INAAM KACHACHI

إنعام كجه جي

طشاري

رواية



طشاري

انعام كجه جي



١

هذا هو الأليزيه إذن.

رأت قصرًا رماديًا قديمًا يقع في شارع متوسّط يزدحم بالسيارات والمشاة. لا عساكر ببنادق رشاشة وشوارب كثّة ونظرات تقدح شررًا. لا أحد يردع المارّة ويهشّهم إلى الرصيف المقابل - إلى عدة شوارع بعيدة عن المكان، لا مناطق حمراء وخضراء وبرتقاليّة. إنّ أمامها الكثير لكي تندهش وتتعجب قبل أن تتعوّد.

كان المدخل بوّابة خشبيّةً بسيطةً مفتوحةً على مصراعيها، تؤدي إلى باحة مرصوفة بالحجر، يحتشد أمامها مصوّرون مُثقلون بالكاميرات وضيوف متأنقون يحملون بأيديهم بطاقات الدعوة. وبين الجمع شرطيّان أو ثلاثة تكاد العين ألا تميّزهم عن غيرهم. لا هيبة لهذا المكان سوى هيبة التاريخ وقرقعة الأسماء الطنّانة.

توقف السائق غير بعيد عن البوّابة وأخرج كرسيّها المتحرك

من صندوق السيّارة ثم فتح لها الباب وساعدها على النزول. وقف في وسط الشارع لا يعرف أين يتوجه بهذه السيّدة التي أخذها من مبنى للاجئين في الضاحية وطلبوا منه إيصالها إلى ٥٥ شارع سانت هونوريه في باريس. لم يفهم لماذا تذهب امرأة مُسنّة مثلها إلى القصر الرئاسي في صباح باكر مثل ذاك. قد تكون من صديقات والدة ساركوزي، أو مربّيته القديمة، أو معلّمته في المدرسة الابتدائية، أو خيّاطة سابقة للأسرة. أو لعلها مُتنبئة شرقيّة طلبها الرئيس الشاب لكي تقرأ له البخت. يعرف السائق أن ميتران كان يدعو عرّافته لتناول الفطور معه ويسألها عن أحوال الكون. وبدا له أن رؤساء هذه البلاد، مثل ملوكنا ورؤسائنا، يؤمنون بالغيب ويتوارثون هواية استشارة الكواكب والأفلاك. ليته شجّع نعيمة على التنجيم وقراءة الكف بدل المكوث أمام التلفزيون والفرجة على المسلسلات التركيّة.

إختلس نظرة في المرآة ولم يجد في هيئة الراكبة ولا في ثيابها ما يدلّ على انتسابها لأهل القصر. إن وشاحها الأسود أنيق لكنّه ليس من الحرير وحقيبة يدها قديمة ولا تبدو عليها الفخامة. إنتهز لحظات توقف السيارة أمام الإشارة الحمراء فالتفت وألقى عليها نظرات فاحصة، لم يجد ما يُلفت النظر سوى خاتم ذي فصّ يبرق في بِنصر كفّها اليسرى، لعلّها تعمل طبّاخة في القصر، لكنّها بالكاد تقف على قدميها ولا يمكن أن تكون قادرة على العمل. إن السؤال يحكّه مثلما يخزه

الشعر المقصوص الذي يتسرّب إلى ظهره، بعد أن يغادر دكان الحلّاق. كان مغربيًا وهجس أنها عربيّة، الأمر الذي ضاعف من فضوله.

ـ إلى قصر الرئاسة يا مدام؟

إنبسطت ملامحها وهي تسمعه يحادثها بعربيّة غريبة اللهجة.

ـ نعم يا وليدي، إنت منين؟

ـ من كازا.

لم تفهم الكلمة وعتِبَت على سمعها الذي تراجع فما عادت أُذناها تميّزان الكلام.

ـ تشرّفنا... أنا عراقية.

ـ ناس ملاح... خير المسلمين.

همّت بأن تقول له بأنها ليست مسلمة لكنها أحجمت. ينظر إليها في المرآة أمامه، كلما توقف عند إشارة حمراء، ويشرح لها أسماء السّاحات والجسور التي يمرّان بها. لا تفهم جيّدًا عباراته المخلوطة بالفرنسيّة وتكتفي بالإبتسام وهزّ الرأس. يراها شاردة تتطلّع من النافذة فيكفّ عن الكلام. يصلان ويتسلّم منها الأجرة ويشكرها وهو يكرّر الإنحناء. يساعدها في الجلوس على الكرسي المتحرّك ويقودها إلى الرصيف ويقف يتلفتّ حوله. لا تطول حيرتُه إذ يتقدّم منه أحد الحراس ويتأكّد من اسم الضيفة. يلقي نظرة على جواز سفرها ويرفع يده إلى رأسه بالتحيّة. يسأله السائق عمّا يجري

فيردّ الحارس: إنه حفل على شرف البابا الذي يزور فرنسا.

يسير الحارس بكرسيّها نحو الداخل ويسلّمها إلى موظف التشريفات.

كان كهلًا أشيب متأنقًا على أربع وعشرين حبّة، يرتدي بدلة سوداء ذات ذيل يتدلّى خلفه، توشّح صدره قلادة طويلة مذهّبة. إنّها لم تر، رؤية العين، زيًّا مثل هذا من قبل. وكانت تعرف تلك الصورة الشهيرة لنوري السعيد وهو يرتدي البدلة الرسميّة السوداء، أُم الذيل، وتحتها قميص ناصع معقوف الياقة وربطة من الساتان الأبيض عند العنق. تذكّرت أن الدكتور شكري، الذي كان رئيسًا للصحّة في الديوانيّة، كان يمتلك بدلة مثل هذه، يرسلها إلى المكوى قبل كل مناسبة كبيرة لكنه يعدل عن ارتدائها. لقد تمنّت لو أنه لبس السترة ذات الذيل في حفل زفافها في نادي الرفق بالفقير، لكنّه لم يفعل، ولعلّها كانت قد ضاقت عليه. وهي حين سألت زوجته لوريس لماذا لم يلبس الدكتور بدلته السموكينغ؟ ردّت السيدة اللبنانيّة العارفة بشؤون التأنق أن اسمها بونجور وهي ذات ذيل أطول من سترة الفراك، أما السموكينغ فشيئ آخر. ضاعت ورديّة بين المسمّيات وخجلت من جهلها.

يا لهذه الذاكرة التي تعاند وتحتفظ بكل شيئ وترفض أن تتنازل عن التفاصيل. وموظف التشريفات ينحني عليها ويسألها عن اسمها وهما على مدخل القاعة التي غصّت بالمدعوين، لكنّ صوته يضيع في الضجيج وهي لا تفهم الفرنسيّة. وخمّنت

ما يطلب منها فقالت له: إنها الدكتورة فلانة، وأتبعت اسمها باسم البلد الذي جاءت منه. ولما جاء دورها صرخ الحاجب الأنيق معلنًا قدومها:

ـ دكتورة ورديّة اسكندر، من العراق.

توقّف القوم عن الحديث والتفتوا نحوها. لاشك أن اسمها أو اسم بلدها يثيران الفضول، وكذلك كرسيّها المتحرّك فوق السجّاد البديع. هل ستبقى جالسة والقوم وقوف؟ إستجمعت قواها ونهضت مستندة على عصاها، تاركة الكرسيّ الثقيل في عهدة التشريفاتي، وتوجهت لتجلس على أقرب مقعد، لكنّها لمحت المطران العراقي يتقدّم نحوها ويقودها إلى المكان المخصص لها، في الصف الأول من الصالة التي صُفّت فيها الكراسي الصغيرة ذات القطيفة النبيذية والمذهّبة في مجموعات ثلاث، مثل فصوص الرمّان.

جلست الدكتورة ورديّة بجوار عدد من العراقيين المسيحيين اللاجئين الذين خصّصت لهم الصفوف الأمامية. لقد قيل لهم إنهم ضيوف ساركوزي فصَدّقوا الحكاية ودخلوا، بعد شهر من لجوئهم إلى هذا البلد، القصرَ التاريخي الذي لم يطأ ملايين الفرنسيين عتبته. وكان موظف التشريفات قد استقبلهم بالتبجيل والانحناء، وقادهم إلى أماكن ضيوف الشرف، بجوار السفراء وعليّة القوم، وفي مواجهة المنصّة الصغيرة التي سيجلس عليها الرئيس وقداسة البابا. ما اسمه؟ بنديكتوس؟ تنسى ورديّة الاسم لأنها لم تعتد عليه، فهي

كانت تحبّ البابا السابق يوحنا بولس. كانت تحبّه حتى اليوم الذي تراجع فيه عن زيارة أُور، مسقط رأس إبراهيم الخليل. لم تغفر له أنه وصل إلى أبواب العراق ثم أدار كعبه وعاد من حيث جاء وتركهم لمحنتهم.

وصل البابا فهبّ الجميع هبّة رجل واحد واجتهدت ورديّة لكي تنهض، مثلهم، وتتأمله عن كثب. كان يشبه كلّ البابوات. صليب كبير وطاقيّة حمراء وثوب أبيض بأزرار كثيرة. حاولت أن تعدّ الأزرار من فوق إلى تحت فتشتّت فكرها ولم تصل إلى نتيجة. كانت تتصوّره أطول وأكثر بهرجة. خيّب أملها ولم يأتِ بالجبّة المذهّبة التي يرتديها في القداديس وطقوس الأعياد، تلك التي يقال إن الطرّازات تشتغلن عليها عشرات الساعات. لا بأس. إنه البابا وها هي في حضرته، تقف على بعد أذرع منه ومن رئيس الجمهوريّة. لا فرق بينها وبينهم. مجتمع لطيف متحضّر وشخصيّات تؤدي أدوارها باحتراف. إنها تحبّ الاحتراف وتحترم من يتقن عمله حتى ولو كان نشّالًا.

عرفت ساركوزي من صوره في التلفزيون. يفسح المجال لضيفه ويمدّ يده ليساعده على ارتقاء المنصّة الواطئة. يسير خطوات على السجّادة الزرقاء ويلتفت ليحيي الحاضرين ثم يجلس على المقعد الكبير المخصّص له. ولم يجلس الرئيس، بل وقف يرتجل كلمة ترحيب لم تفهم منها شيئًا. وبعده قام البابا وأخذ الكلام بصوت ناعم وخافت، عجز مكبّر الصوت

عن نقله واضحًا إليها. وكان يفرد كفّيه ويمدّهما في اتجاه الضيوف، ثم التفت صوبها وصوب اللاجئين الجالسين حولها وسمعته يذكر العراق بشيئ ما. كيف عرفهم؟ لا شكّ أنّ هيئاتهم وشواربهم كانت مختلفة عن سحنات بقية الحضور. ولما انتهت المراسم، قام العراقيون وتقدّموا للسلام على البابا، ولما همّت بالقيام لتأخذ مكانها بينهم، رأت الرئيس ينزل من على المنصّة ويتقدّم إليها من دون الآخرين ليصافحها.

شعرت بالزهو يدفع عافيته في ساقيها وأمسكت عصاها ونهضت واقفة على حيلها وحيّته وتبادلت معه عبارات قليلة بلغة هي خليط من عدّة لغات. بونجور مدام. ميرسي مسيو. شكرًا وممنونة. ثانك يو. حلّت البركة. الله يحفظك لشبابك ويخلّيك على رأس أولادك. تأبّط ساركوزي ذراعها وقادها، على مهل، فأشفقت عليه من تثاقل خطواتها. ورغم انحناء قامتها الطفيف فوق العصا، لاحظت أنها لم تكن بأقصر منه فازدادت زهوًا وشدّت ظهرها. هل تقبّل يد البابا أم تكتفي بالمصافحة؟

مدّ لها البابا كفًّا نحيلة كأنها من الخزف الأبيض. دُمية من تلك الدمى الصغيرة التي ترتدي الدانتيل وتقف على علب الحلوى القديمة، ينصبونها بمفتاح ذهبي فتروح تدور على نغمات موسيقى عيد الميلاد. تمعّنت في كفّه وخمّنت أن جلده لم ير الشمس ولم يغتسل إلا بالكريما. خافت عليه من ترقّق العظام وتمنّت لو كان دفتر الوصفات الطبيّة معها

لتكتب له علبتين من حبوب فيتامين دي، ترمّم هيكله الهشّ. شعرت بالحنوّ عليه وكأنّها البابا وهو المرأة اللاجئة. لم تقبّل اليد الخزفيّة بل اكتفت بابتسامة ومصافحة واهية وبدون كلمات، وهي تنظر في عينين من زجاج أزرق مصفّح.

إستدارت الدكتورةورديّة تبحث عن الحاجب الذي وضع كرسيّها في مكان ما. وكانت خفيفة وشابّة ورشيقة ومعافاة. حرّرت يمناها من العصا والتقطت كأسًا من نادل يدور على الضيوف في القاعة. بلّلت شفتيها، أولًا، بمشروب الملائكة لتتأكّد أن له نفس المذاق الذي عرفته في السنين الخوالي، ثم أخذت جرعة نزلت تزغرد في صدرها. لا تكتمل باريس بدون الشمبانيا.

رفعت رأسها تتأمّل الثريّات والنقوش الذهبيّة والرسوم البديعة التي تطرّز سقف القاعة وتمنّت لو كان زوجها المرحوم جرجس معها، يُمسك بيدها الباردة ويقارعها كأس الكريستال.

لو ركبت هندة الطائرة من كندا ورافقتها إلى الأليزيه.

لو حضر ابنها برّاق من تلك الجزيرة النائية وتأبط ذراعها.

لو صعدت ياسمين إلى أعلى برج في دبي ونطّت إليها.

لو جاء أهالي الديوانيّة الذين كانت تعرفهم: مُتصرف اللواء وقائد الفرقة الأولى والعلويّة شذرة والمرضع بستانة وغسّان

الفلسطيني والدكتور شكري فرنجيّة والست لوريس والجدّة نانا وأُم يعقوب. لو وقفوا كلّهم معها ظهرًا وسندًا.

٢

الساعة هي الآن السابعة صباحًا في باريس.

التاسعة في بغداد.

العاشرة في دبي.

ما زالوا في منتصف الليلة الماضية في مانيتوبا.

وهي الواحدة بعد منتصف الليل في هاييتي.

كأن جزّارًا تناول ساطوره وحكم على أشلائها أن تتفرق في كلّ تلك الأماكن. رمى الكبد إلى الشمال الأميركي وطوّح بالرئتين صوب الكاريبي وترك الشرايين طافية فوق مياه الخليج. أما القلب، فقد أخذ الجزّار سكّينه الرفيعة الحادّة، تلك المخصّصة للعمليات الدقيقة، وحزّ بها القلب رافعًا إياه، باحتراس، من متّكئه بين دجلة والفرات ودحرجه تحت برج إيفل وهو يقهقه زهوًا بما اقترفت يداه.

يطارد السيّاح قلبها بأرجلهم، مثل الكرة، ويحاول أطفالهم أن يقبضوا عليه. إنه منتفخ ويصلح للّعب. يُركل بالقدم أو يطوّح فوق الشبكة أو يصوّب في السلّة. ما الضرر في قليل من الرسوم المتحرّكة؟

يغيب الجزّار وتطلع، من فيلم الكرتون، ساحرة شريرة

تُمسك بعصا البَدد السحرية. ترفعها عاليًا في الهواء ثم تضرب بها بقعة من الأرض كانت خصيبة، آمنة من الزلازل، محروسة بين نهرين، مأهولة بمليون نخلة، طافحة بذهب أسود، جاثمة على فوهة خليج مُلتبس بين عرب وفرس... تضرب الساحرة طاردة أهل تلك البلاد إلى أربعة أطراف الدنيا. تُبدّدهم بين الخرائط وهم دائخون لا يَفقهون ما يُحِلّ بهم. تريد أن تنتقم لأنها دميمة وشرّيرة وهم أهل أريحيّة وسماحة، قُدّوا من تمر وأشعار وأبوذيّات. لأنها ورق وأصباغ ورسوم تتحرّك وهم صخر جلمود. تقهقه وترسل طير اليباديد ليحلّق فوق رؤوسهم. مَنْ يعرف طير اليباديد المنفلت من كتب الأساطير، ذاك الذي يحوم فوق أسطح البيوت الآمنة فيبعثر الأحبّة ويفرقهم في البلاد.

حتى صاحبة هذه الحكاية، لا تعرف كيف حلّت في فرنسا.

خلعت الكفوف البلاستيكيّة المعقّمة، وأزاحت قناني السبيرتو وأكياس القطن، وتركت وراءها سرير الفحص، الذي تتمدّد عليه العواقر والوالّادات. أغلقت بيتها وجاءت إلى هذا البلد الذي لا تعرف أهله ولا يعرفونها. من يعرف هنا الدكتورة ورديّة؟ إنّ من يراها تدفع عجلة كرسيّها المتحرّك، لدى الجزّار القبايلي في كريتاي، لا يصدّق أن هاتين الكفّين الصغيرتين الّلتين ترتسم عليهما خارطة من الأوردة الزرق هما اليدان السحريّتان، ذاتهما، بأناملهما المطواع المدرّبة التي كانت

تجوب المغارات السريّة للنساء فتفكّ وتربط وتكشط وتنظّف وتكوي وتداوي وتهجس بالبشارة. تتلمّس المواضع الخفيّة وتروز تكوّرات الأجنّة وتقدّر أشهر الحمل. ثم تتسلّل إلى الأرحام فتسحب المواليد إلى حياة كُتبت عليهم في سجلّ مجهول. تُطبطب على ظهورهم الحمراء المجعّدة وتسمع صرخاتهم الأُولى وتقطع الحبال وتعقد السُرر.

إنها السابعة في باريس. ونومها قليل وعطشها للشاي لا يتركها ترقد في الفراش. ستعدّ لنفسها كوبًا كبيرًا ثم تجلس بقرب الهاتف، فقد لا تسمع الرنين إذا ابتعدت عنه. آه من هاتين الأذُنين الخوّانتين. ما زال الوقت مبكرًا لكن ياسمين قد تتصل بها من دبي لتطمئن عليها. إنها رقيقة القلب هذه البنت. تزوّجت على عجل وزوّقوها مثل سيارة مسروقة وشحنوها إلى عريسها في الإمارات. مدقّق حسابات كان يعرفها من أيام نادي المشرق. سافرت إليه عبر الأُردن، رغم أنّ دبي من هذه الصفحة، في الجنوب الشرقي، وعمّان في الغرب من تلك الصفحة .

هكذا هو أطلس الويلات. وقد وجدتها ياسمين فرصة لتهرب من بيت صار كالسرداب المهجور. صمت وعتمة وحسرات وانتظار لغدٍ أسوأ. هل شعرت ورديّة بكلّ ذلك؟ كانت عيادتها دنياها، تتحامل على سنوات عمرها، وهي الطبيبة المتقاعدة من العمل في المستشفى، وتسحب ساقيها المتورّمتين إلى التويوتا العتيقة وتدير المفتاح. تتكفّل

السيارة بايصالها إلى العيادة، من كثرة ما راحت وجاءت في ذلك الطريق. إنها تحفظ الحفر والطسّات وسحنات شرطة المرور. يتعمّدون أن يؤشّروا لها بالتوقف، لكي يسلّموا عليها ويتشاقوا معها وينالوا البركة، ما تجود به من عملة شاحبة لا تساوي ثمن الورق الذي طبعت عليه.

ـ مرحبًا دكتورة.

ـ هلا وليدي. متغدّي لو بعد؟

ولتفادي الوقوف المتكرّر والسلامات على الرايح والجاي، خصّصت لكل منهم تعيينًا شهريًا فصارت التويوتا تنساب بدون عراقيل، يفسح لها الشرطيّ الطريق في الزحام ويؤشّر لها بأن تمرّ حتى ولو كان الضوء أحمر. كلّ تلك الأعمدة والإشارات الضوئيّة صارت ذكريات وآثارًا قديمة. وحتّى الشرطة اختفوا من الشوارع والمفارق ثم عادوا بأزياء أُخرى. بعضهم ملثّم وبعضهم مسلّح وبعضهم ملتح والباقي يبدو وكأنّه في ورطة وجوديّة. المدينة كلها في ورطة وجوديّة. ولا أحد يعرف لمن يأمن وممن يخاف. والشوارع مقسّمة حسب الطوائف. لكن سيارة الدكتورة تمرّ والمريضات لا يتخلّفن عن الذهاب إلى العيادة. إنّ صفة المرض لا تناسبهن كلّهن وبينهنّ المعافاة التي ملّت جدران البيت، أو من تبحث عن لمسة اهتمام، أو من جاءت تتجسّس وتتلقط أخبارًا، أو من مرّت من هناك وهي في طريقها إلى السوق فدخلت للسلام. وقد كانت، بينهنّ، تلك التي اصطكّت أسنانها فلم تفجّر الحزام.

تركت الدكتورةورديّة عملها الطويل في الديوانيّة وعادت إلى بغداد بعد أن مرض زوجها مرضًا ألزمه الفراش. تصوّرت أنّ الشغل سيكون خفيفًا في العاصمة. هنا عشرات العيادات لطبيبات معروفات درسن وتخصّصن في الخارج، وخبرن أحدث وسائل العلاج. أما هي، فكل سمعتها، أنّها من الرعيل الأول. ما معنى الرعيل؟ تفكّر، كلما سمعت الكلمة، أن تبحث عنها في المنجد حالما تجد لحظة فراغ. لعلّها تعثر عليها في باب الفعل رعل يرعل. ثم تمضي الأشهر ولا تنفّذ ما عزمت عليه. تبقى تنتمي إلى رعيل لا تفقه معناه. مات من مات منه، وهاجر من هاجر، وانكفأ من انكفأ.

تصل إلى العيادة فتجد العباءات السود واقفة في انتظارها والصالة تمتلئ، يومًا بعد يوم، بالنسوة وبأطفالهن. تأتي المريضة ومعها وفد من الشقيقات والجارات. يجلسن على الكراسي البلاستيك أو على الأرض أو يتراصفن على الدرج المؤدي إلى الطوابق العلويّة للمبنى، مثل جمهور المشجّعين في ملعب كرة قدم. تلمح بينهن شابة حاسرة الرأس فتعرف أنها مسيحيّة أو شيوعيّة. لقد تغيّرت أزياء نساء المدينة وصار الحجاب على كلّ الرؤوس، ونافس العباءة التقليديّة. وهو أمر لا يعنيها سوى أنها تشفق على السمينات والحوامل منهنّ، حين تكشف عليهنّ، وترى طبقات الثياب مبلّلة بعرق لزج وجلودهنّ تعاني الطفح والاحمرار.

تتعامل يداها بخفّة مع أجساد شابة أو مترهلة، ملفوفة

بأقمشة صناعيّة رخيصة تمنع الهواء، مثل رقائق النايلون الشفّافة التي يغلّفون بها الأطعمة. غير أنّ الثياب ثقيلة وقاتمة وليست شفّافة، تتكوّم على المشاجب وتحتاج وقتًا وجهدًا لارتدائها. وبعد أن كانت المريضة تدخل وتخلع فستانها وتستلقي على سرير الفحص في ثوان. وتقوم وترتديه في ثوانٍ، صار الأمر يستغرق وقتًا أكثر والانتظار يطول.

تأتيها المريضات من حيّ الغدير القريب، أو من نعيريّة وقيّارة والمشتل وكراج الأمانة وكمب سارة. ومنهنّ من يقصدنها من الفضيليّة، حاملات لها أطباق القيمر العالي الكثافة، أو من الموصل مع البقلاوة بالدهن الحر التي تبطح جملًا. تحلفن عليها ألا تُعيد الهديّة فتأخذها وتتغاضى عن أُجرة المعاينة: ورق أزرق لا بركة فيه.

تختلط، في غرفة الانتظار، الأظفار الحمر والخصل الشقر لنساء زيونة مع الحواجب الموشومة لكاولية الكمالية. تتداخل الأصوات وترتفع فتصرخ حسنة الفرّاشة آمرة الجميع بالسكوت. يتحوّل الكلام الجهير وشوشة وإشارات بأطراف العيون، ثم تحدث جلبة خارجية مفاجئة وكأن تظاهرة تمر أمام العيادة. تبتسم الدكتورةورديّة وتعرف أنّ الباص الآتي من الديوانيّة قد وصل وأفرغ حمولته. يقود الوفاء مريضاتها القديمات إلى السفر لأكثر من ثلاث ساعات لكي يصلن إلى عيادتها. يقف السائق في كراج الديوانيّة ويصيح "دختورة ورديّة... بعد ثلث ركاب ونقبّط... دختورة ورديّة" . يحجزن

أماكنهن في الحافلة الصغيرة المستأجرة، مرتين في الأُسبوع، ويأتين إلى بغداد. يصلن إليها فتكشف عليهنّ قبل أن يعود السائق بهنّ إلى أهاليهن.

يدخلن العيادة هاشّات باشّات، رُغم انتفاخ الكواحل وقرف الوحام، وكأنّهن داخلات إلى حفلة، تتقدّمهن بطونهن المموّهة تحت العباءات أو الأثواب الشرعيّة. وعندما تلد الواحدة منهن، بسلام، ويكون المولود ذكرًا، فلابدّ من أن تلبّي الولائم التي تقام له. يرسلون لها من ينقلها بالسيارة من بيتها، هي وابنتها ياسمين، ويستقبلونها هناك بالماء البارد والبيبسي والبقلاوة ويرحبون بها وكأنها إليزابيث ملكة الإنكليز. تعود بها السيارة بعد أن يملأوا الصندوق بعثوق التمر وأرغفة خبز التنّور وأكياس عنبر الشاميّة. أرز أزكى من الورد البلدي، يفور على النار فورة وحيدة فتفوح رائحته وتحطّ على أسطح الجيران.

٣

على طريقتها في الكلام، قرّبت العمّة ورديّة رأسها منّي ولوت شفتها جانبًا وكأنّها ساخطة على الكون الذي لا يسير حسب مرامها:

ـ تاليها، يا ابنة أخي الحبّابة، ألم تضجري من ثرثرتي؟ لقد رويت لك كل تلك السوالف والترّهات لكي أقول لك فكرة وحيدة، إنّ السفر لم يكن قدري لكنّني سرت إليه مثل

المنوّمة. لم يعد لي، في ذلك البلد، ما يُبقيني ولا من يُمسكني. دفنت الزوج وأقفلت العيادة ورأيت السرسريّة يحتلّون الطرقات وصارت أيامي الباقية مثل عدمها. لكن ديري بالك، يا عيني، وأنت تكتبين وتشطبين وتراجعين وتستفسرين وتفركين جبهتك تأملًا، أو ربما مللًا من صداع الحكاية. ديري بالك لأنّ هذا ياقوت عمري. إن حياتي من دونه هباء.

ـ عمّة... هل صرت شاعرة؟

تضيء عيناها، وهي تسمع، أن نساء الغدير والمشتل وكمب سارة، ما زلن يشرن إلى ذلك المبنى المتهالك، عندما يعبرن من أمامه ويقلن: هنا كانت عيادة الدكتورة ورديّة اسكندر.

ـ لعلّهنّ تتكرّمن وتذكرنني بالخير.

وصلت عمّتي إلى باريس على الطائرة الأُردنيّة ذات ظهيرة صيفيّة رائقة في شمسها. شمس لطيفة ومهذّبة، على شيئ من التقتير ولا تقارَن بنار آب اللّهاب في بغداد، لكنها، في عُرف أهل هذه البلاد، شمس شرعيّة وحقيقيّة ولا غبار عليها. إن الصحو أفضل من غيم كثيف وزخّات مطر تصيب عمّتي بصدمة الانتقال بين طقس وطقس. لم أكن وحدي في الانتظار. رأيت حولي عراقيين جاؤوا لاستقبال أقارب لهم على الرحلة ذاتها. عائلات مسيحيّة تعرّضت للتهجير والتهديد أو فقدت أفرادها في حوادث تفجير الكنائس.

من وراء الزجاج، رأيتهم ينحنون على الحزام الأفعوانيّ الدوّار، يدفعون العربات المحمّلة بالمعاطف والأكياس البلاستيكيّة ويتلفّتون في انتظار حقائبهم. وفوق إحدى العربات لمحت صورة كبيرة مؤطّرة لمطران الموصل الذي كان مجهولون قد خطفوه وذبحوه قبل فترة وجيزة. رجال يُنحرون وتبقى صورهم في البراويز. يطرحون لقب المطران والطيّار والصحافي ويتخذون السمة الرسميّة للشهيد. وكانت هناك شابة تتّشح بالسواد الكثيف، تمسح عرقها وتدفع عربة الصورة الكبيرة المؤطّرة، والجواز الأخضر من فئة جي في كفّها. الجواز الثمين في كلّ الأكف. مولود مدلّل كان قد خرج حديثًا من رحم المطبعة الرسميّة. كدت أشمّ رائحة الورق والحبر رغم النافذة السميكة الفاصلة بيننا.

لم أكن قد رأيتها، من قبل، تجلس على كرسيّ متحرك. لكنها ابتسمت لي، من وراء الواجهة في مطار شارل ديغول، وقالت شيئًا ما لمضيفة الطيران التي كانت تدفعها. لوّحتُ لها فلوّحت لي بيدها اليسرى، بينما كانت أصابع اليمنى تتوزّع مثل المروحة للتشبّث بالحقيبة وجواز السفر. كانت الحقائب قد بدأت تظهر وتدور على الحزام المتحرّك، وأنا أمضي للبحث عن ماكنة قهوة ثم أجلس في انتظار خروج عمّتي من بوّابة القادمين.

أسعدني خروجها من البلد، أخيرًا، وأقلقني ما سيترتب عليه. ليس من المعتاد أن تخرج امرأة مثلها، في الثمانين،

لكي تصبح لاجئة وحيدة في قارّة غريبة، تطلب وثيقة سفر أجنبيّة وتتخلّى عن جوازها الأخضر العزيز. هل ستقبل أن تتخلّى عنه؟ تذكّرت رعبي وكوابيسي، في سنوات مضت، من احتمال ضياع جوازي. كان الواحد منّا يفضّل أن يضيّع حاله وماله على أن يسهوَ، لحظة، عن ذلك الدفتر الصغير المليء بالأخطاء. كأن موظفي الداخليّة يتسلّون بألقابنا وسلالاتنا. يتعمّدون أن يخطئوا في كتابة أسمائنا وأسماء آبائنا وأجدادنا، نكاية بحامل الجواز العازم على الهرب من البلد المنكوب.

و"المنكوب" كنية لمغنٍّ ريفيّ يتفنّن في إطلاق مواويل اللوعة والآهات التي تفتّت القلوب. وكانت إحدى الصديقات تشكو لي من أن زوجها يشرب ليليًّا نصف قنينة عرق وهو يستمع إلى شريط مسجّل للمنكوب. وعندما يتقدم الليل وتُحكِم الحسرة كفّيها حول خناقه، يهبّ واقفًا ويصيح "أويلاااااه" ثم يمسك زيق دشداشته براحتيه ويشقّه في نترة واحدة. لم تكن شكواها من المنكوب أو من العرق بل من اضطرارها لترقيع الدشداشة بعد كل سكرة.

أفقد نظري ولا أفقد جوازي. هكذا كانت حالي قبل أن آتي إلى هنا وأفهم أن هذا الدفتر ليس أكثر من وثيقة مثل غيرها من الوثائق. هويّة يمكن لأهل البلاد الحصول عليها آليًا لأنها حق من حقوقهم. هات صورتين وطابعًا ماليًا وخذ جواز سفرك. أما إذا ضاع فلا أسهل من تعويضه. ثقافة جديدة استغرقت منّي سنوات لكي أتعوّد عليها. كان فقدان جواز

السفر، عندنا، جريمة يعاقب عليها القانون في المادة كذا وكذا وتقود إلى المحكمة. وإذا لم يكن المرء مشبوهًا، يعني بريئًا، فقد تأخذ القاضي الرأفة به، ويحكم عليه أن يدفع غرامة مالية، ويحرم فوقها من السفر لبضع سنوات.

ـ من تنتظرين؟

يسحبني السؤال من تداعياتي وأبتسم للسيدة التي تتكلّم بلهجتنا وتقول إن شقيقها وعائلته جاؤوا، أيضًا، على الرحلة نفسها. أفهم منها أن وزير الخارجيّة جاء بنفسه، يستقبل المسيحيين العراقيين عند باب الطائرة، مثل وفد رسميّ.

لقد بدأت، إذن، حفلة الاستثمار. وكانت كاميرات التلفزيون تصوّر "الناجين" وهم يضعون أقدامهم على أرض البلد الذي فتح لهم باب اللجوء الإنسانيّ. والمصوّر يطوف على الوجوه المتعبة ويركّز على المرأة المسنّة المدفوعة على الكرسيّ: عمّتي. ثم تستدير الكاميرا لتتوقّف، في لقطة مقرّبة، على صورة المطران القتيل التي جاء اللاجئون بها معهم من هناك. جواز سفرهم الحقيقيّ إلى فرنسا، الابنة البكر للكنيسة الكاثوليكيّة. البلد الذي يزأر كالأسد في غابة حقوق الإنسان.

حالما لمحتها تخرج من بوابة القادمين وتدور بعينيها بحثًا عنّي، أخرجت هاتفي وأدرت رقم هندة في كندا. ردّت عليّ من أوّل رنّة. لابد أنها لم تنم الليل وظلت ساهرة تنتظر الخبر.

ـ وصلتُ. اطمئني. أنا في المطار.

ـ كيف صحّتها؟

ـ يدفعونها على كرسيّ لكنها تبتسم ووجهها صاف.

ولم أسمع ما قالت إبنة عمّتي، بعد ذلك، لأن نشيجها طار فوق المحيط من تورنتو وحطّ في أُذنيّ.

٤

على جانبيّ رصيف المحطة، اصطفّت المنشدات وفي أيديهن الدفوف. لابد أن أُم سُليمان جاءت بهن من شركة تأجير الحوريّات في الأحلام. لقد أرادت وداعًا يليق بابنتها الصغرى ورديّة وهي تذهب لتعمل طبيبة في الأرياف. إرتدت الحوريات فساتين من ريش أبيض وردّدن، بأصوات ملائكيّة، وراءها: "يا شمس تموز التي تجعل الماء يغلي في الكوز، إرأفي برأس هذي الحبّابة. يا أخشاب مقاعد القطار المضعضعة، ترفّقي بعظامها. نحيلة هي لكنها ليست عليلة ولا مسلولة. ذابت فوق الكتب، إبنتي الصغيرة الدكتورة. وهذا يومها الذي كنّا ننتظر ونريد".

لم تركب ورديّة قطارًا من قبل سوى مرّة واحدة، حين انتقلت عائلتها من الموصل إلى العاصمة وهي عجيّة مبهورة دون الخامسة، لا تفقه سببًا لتلك النقلة الكبرى. لقد سمّوها

هجرة وقالوا "هاجرنا إلى بغداد". وفيما بعد عرفت أن الشقيق الأكبر تفوّق في الثانويّة وأراد أن يكمل الدراسة. ولم تكن في الموصل جامعة يومذاك. هل يتركون سُليمان يسافر لوحده ويتغرّب ويأكل طبيخ السوق ويغسل قمصانه بيديه ويتحمّل ويلات الفراق؟

سلّومي المدلّل. هكذا كانت أُمه تسمّيه في صغره. فلما كبر وأظهر ولعًا باللّغة العربيّة، راح يرفض أن يردّ على اسم التغنيج ويصرّ على مناداته بـ "يا سُليمان". يتلفظه بنطق واضح وسليم محترمًا الضّمة فوق السين والفتحة فوق اللام. كان يحبّ اسمه ويتغنّى به وكأنّه ينشد شعرًا. وقف الهدهد في باب سُليمان بذلّة... قال يا مولاي كن لي... عيشتي صارت مملّة.

يبيع الأب بيته العتيق في شارع نينوى ويهاجر مع زوجته وخمسة من الأبناء الذين عاشوا لهما، إلى العاصمة. وهناك، على نفقة الجيش، سيدرس سُليمان في كليّة الحقوق وينال، خلال دراسته، مرتّبًا محدودًا يُعيل به أُسرته. إنه الابن البكر، حادّ ونحيل وقويّ ومنتصب القامة مثل الألف، وعليه يعلّقون الآمال. سيكون أوّل ولد يحصل على شهادة جامعيّة في عشيرتهم كلّها ويحمل نجمة على كتفه ويصبح ضابطًا عدليًا. أما البنت الصغرى المنطوية الهزيلة الخجول التي لم يكن أحد يحسب لها حسابًا، تلك التي سمّوهاورديّة رغم أنها ولدت عجفاء زرقاء مثل خنفسانة، فقد كمنت لهم حيث لا يتوقّعون

ودخلت كليّة الطب. صارت أوّل دكتورة في العائلة وتحققت نبوءة والدتها، أُم سُليمان:

ـ حجارة اللي ما تعجبك تفجخك... تشجّ راسك.

في مساء الرابع عشر من تموز سنة خمس وخمسين نزلتورديّة اسكندر من القطار في محطة الديوانيّة وبيدها أمر إداريّ يفيد بتعيينها طبيبة في مستشفى المدينة. لم يكن من الوارد أن تسافر شابة مستورة لوحدها، وصدر الأمر بأن ترافقها شقيقتها الكبرى كمالة، أن توصلها إلى مقرّ عملها الجديد وتطمئن عليها ثم تعود، وبخلاف شقيقتها السافرة، ارتدت كمالة العباءة في تلك الرحلة، لكنها لم تكن متهيّبة ولا خجولة. وجه بشوش وطبع اجتماعيّ وموهبة في تذليل الصعاب. إنها أكثر تجربة من ورديّة في ارتياد المدن البعيدة. لقد عملت معلّمة في الناصريّة، مع شقيقتها جولي، حال تخرجهما من دار المعلّمات، وخبرت كيف ترتدي العباءة فلا تنزلق عن رأسها.

وها هما في الديوانيّة، المدينة التي سحبتها بالقرعة فتم تعيينها فيها.

لم تكن تعرف عنها أكثر مما تعلّمته في كتب الجغرافيا. لكنهم وضعوا الأسماء في كيس قماشيّ من ذاك الذي تُغلّف به وسائد المرضى في المستشفى، ثم مدّ كلّ خرّيج يده وسحب وريقة لاختيار الموقع الذي سيعمل فيه. كان لواء الديوانيّة من حظ ورديّة.

مدينة هادئة ومتقشّفة ومحافظة وتشبه شخصيّتها. مضت إليها، أول ما مضت، بكثير من التهيّب وكأنها تنهض من مهد ميلادها وتسير إلى نعشها. كل ما عاشته قبل الديوانيّة قشرة بصل، وكل ما ستعيشه فيها سيمدّ جذورًا ويرسخ وينمو ويتفرّع ويخضوضر ويبرعم ويطرح الثمار. لم يكذب الشعراء الملاعين الغاوون، أصدقاء أخيها سُليمان وندماؤه، حين زعموا أن هناك مساقط للرؤوس وأُخرى للأفئدة. وهي ستؤرّخ لهذا المكان مسقطًا لقلبها وسماء لطيفة حَنَت عليها ومنحتها الكثير من القليل الذي تملك.

عندما أخرجت كفّها من الكيس القماشي وقرأت اسم المدينة، إنكمشت ووردت على بالها كل الاحتمالات. أوّلها أن تعارض الأُسرة عملها بعيدًا عن بغداد وتحرمها من ممارسة المهنة التي تعبت في دراستها. إن القرار بيد سُليمان. وهو قد تفكّر في الأمر طويلًا ثم هزّ رأسه موافقًا على سفر الشقيقة الصغرى. وكان ذلك يعني قبوِله أن تبيت ورديّة خارج البيت، في أماكن غير معروفة، وسط أُناس غرباء، لا يحميها سوى أنها طبيبة. سبب وجيه ونبيل يسمح بقضائها الليل خارج سريرها، وغير ذلك قد يستدعي الذبح. كم كان شديدًا، إنما على سماحة، ذلك الأخ الكبير. وهي، إذ تستعيد ظلّ خيمته الذي أورَف على رأسها ورؤوس نساء العائلة، تدرك أنه كان واسع الأفق بشكل لا يتسنّى لأشقّاء أو آباء هذا الزمان.

عائلات محافظة ومتديّنة مُشرعة البصائر، ترسل بناتها إلى

الكليّة وهي تدرك، مُسبقًا، أنّ الخرّيجات يبدأن العمل في القرى والمناطق النائية. هو قانون لا خروج عليه. لذلك لم يُبدِ سُليمان تحفظًا كبيرًا، ولو من باب التسلّط الظاهري، بل كان مرتاحًا لأن عمل وردّية سيكون في الديوانيّة، مقرّ الفرقة الأُولى في الجيش. إنه يعرف قائدها وعددًا من ضبّاطها.

لم ترَ وردّية وجهًا مألوفًا بين الذين وقفوا يرحّبون بها حال نزولها من القطار. ولم يخطر على بالها أن تجد في استقبالها، على الرصيف، وفدًا من الأطباء والصيادلة والموظفين المحليين. رجال لم تسمع بأسمائهم، ساقتهم شِيَمُهم للترحيب بها بعد أن عرفوا أنها ستصل إلى الديوانيّة، غريبة بقطار الليل. ستّ ساعات وهي تهتّز مع اهتزازات العربة وقرقعات خشب المقاعد والحقائب والأواني ومتاع المسافرين. كانت متوتّرة وخائفة ومختصرة، تلتصق بكتف كمالة وتمسح في عباءتها دموع غربة لم تبدأ بعد. ثم تبدّدت الوحشة وهي تجد نصف وجهاء المدينة ينتظرونها في المحطة. فقد كان هناك الطبيب المقيم الأقدم، والدكتور المشرف على مستوصف الأمراض الصدريّة، ومسؤول صيدليّة المستشفى ومعه ممرضتان، ومدير المدرسة، ومأمور البريد، وبعض وجهاء العشائر. وجوه طيبة وحييّة، عرفت من بينها زميلين لها، تخرجا طبيبين والتحقا بالخدمة العسكريّة في الديوانيّة.

حسنًا، لقد وصلت، فمتى تعود؟

اعتادت، منذ يومها الأوّل، أن تسأل كل من تتعرف عليه من الأطباء:

ـ كم مضى عليك هنا؟

ـ ستة أشهر.

ـ ستة؟ كيف تحملت كلّ هذه المدّة؟

كان أحدهم قد وصل إلى اللواء قبلها بأحد عشر يومًا فحسب، طبيب في عز شبابه، كثّ الشاربين عريض المنكبين لكن دموعه لم تكن قد نشفت على فراق والدته وإخوته. قالت في سرّها إنها لن تبكي عشرة أيام ولا حتى أسبوعين. ستذرف دمعًا كلّ يوم من أيام السنة حتى تعود إلى بغداد. تدمع وتخاف أن يصل همسها الداخلي إلى مسمع سُليمان فيسخر من تهيؤاتها. وسيحسم الأمر، على جري عادته، بالقول: تقدّرون وتضحك الأقدارُ. إنّها واحدة من عبارتين اتخذ أخوها منهما شعارًا للحياة. والثانية هي الخير في ما اختاره الله. كيف لم تعرف أن شمس الديوانيّة ربما تحتوي مرهمًا للفراق وأن دموعها ستجف بأسرع مما تصوّرت؟ ذهبت لكي تمضي سنة واحدة، إثني عشر شهرًا يلتزم الخريجون الجدد خلالها بالخدمة في الأرياف. لكنها بقيت لأكثر من ربع قرن وغادرتها وهي في سن الكهولة. لقد وشمتها المدينة وشمًا لا يشبه الريفيّات، على ذقنها أو حاجبيها أو ظاهر كفّها، بل على روحها. وهي "دكّة" تحبها ولا تتمنّى زوالها مع الوقت. تربية إضافيّة لا يمكن تحصيلها من بيت ولا مدرسة. كان لابد

من أن تكون وحيدة هناك، ومستوحدة، ومهمومة، وسعيدة، ومعتمدة على نفسها، وغريبة، وأليفة، ومسؤولة عن أرواح بشر، لكي تكتمل عدّة إنسانيتها.

وفي الديوانيّة ستعيش ورديّة أحلى سنوات شبابها.

وستواجه مخاطر المهنة وستسهر على نار أو تنام قريرة العين.

وستعقد أوطد الصداقات وتخالط أشكالًا من الناس وتتعلّم كيف تتعامل معهم، فرّاشًا ذا أسمال أو إقطاعيًا صاحب أطيان.

وفي الديوانيّة ستتعرف علي الرجل الذي سيصبح زوجها، وستحبّ وتأرق وتحفظ أغاني أُم كلثوم وتذوق العسل الذي ما مثله عسل.

وفيها ستنجب أربعة أبناء، وتفقد منهم واحدًا يترك جمرة في كيانها.

٥

مثلما توقّف المسيح في إيبولي، ورفض أن يمضي أبعد منها إلى القرى الفقيرة في إيطاليا، حلّ يوحنا بولس الثاني في الجامع الأُموي في دمشق ولم يكمل رحلته إلى أور، مسقط رأس أبينا إبراهيم. يومها، فقط، هجست عمّتي بأن الأُمور في

البلد قد تعسّرت مثل ولادة مات فيها الجنين في بطن الأُم. لم تكن كلّ الثورات والانقلابات والانتفاضات والحروب التي عاشتها كافية لإقناعها بأنّه بلد مدسوس بين فكيّ الشيطان. هكذا كان في التاريخ وهكذا سيبقى. شوكة عصيّة على الابتلاع، تجرح وتنجرح. يكفي أن يستيقظ الناس ويسمعون من الراديو نشيد "الله أكبر فوق كيد المعتدي... دم دم دم دم" حتى يصيحوا:

ـ علكت...

ولّعت. إشتعلت. شبّت النار في البلد. تكون القيامة قد قامت والدبابات تحرّكت من معسكراتها ومضت للسيطرة على إذاعة بغداد وتحويط القصر الجمهوري. "قولوا معي... قولوا معي.. الله الله الله أكبر" فلا يبقى مكان للشك. يأتي البيان رقم واحد. دائمًا ذلك البيان المسعور رقم واحد. وبعده ينهمر الرصاص وتتبدّل السحنات وتُرتجل المحاكمات وتُنصب المشانق وتصل الدماء إلى الركب.

لسنا مسيحيّين، لأن المسيح توقف في إيبولي ولم يتكبد عناء الوصول إلينا. هكذا كتب كارلو ليفي في روايته التي رأيتها فيلمًا في باريس. أما العمّة ورديّة فلم تفهم كيف يمكن أن يقوم الحَبر الأعظم برحلة للسير على خطى إبراهيم الخَليل، أبي الأنبياء، بدون المرور بمسقط رأسه في العراق. إنّ مساقط الرأس مهنتها ومسيرة البابا يجب أن تبدأ من أور لأنها الرأس وكل ما دونها أطراف وجلافيط.

ـ هات من يشرحها لي. كيف يأتي قداسته، بجلالة قدره، من الفاتيكان إلى هنا ويكاد يصل عتبة النبي إبراهيم ثم يستدير ويرجع قبل أن يلقي السلام؟

قرّرت عمّتي أنّ رحلة البابا ناقصة وماسخة. كأنك تفتح بطن مريضة وتنسى أن تخيط الجرح. كأنك تطبخ بامية بدون ثوم. إن الطبّ والطبخ قد يتساويان عندها عندما تسعفها الأمثلة والبراهين، رغم أنها تجيد الأول ولا تفقه الثاني.

كان اسمها، في التاريخ أُور الكلدانيين. المدينة المقدّسة لنانا آلهة القمر. حاضرة بيضاويّة تقع على مصبّ الفرات، حيث تدفن الجواري بملابسهن وحليّهن مع مليكهن، وتحفر بئر في كل قبر، وتقام فوقه الزقّورة، هرمًا من القلاع المربّعة المتدرّجة في مساحاتها، مثل كعكة الأعراس. ثم شحب الأسم وتحنّط وصار من رماد الماضي. موقع أثريّ يزوره تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات والرحّالة الأجانب. ولما فتحنا أعيننا على الدنيا وجدنا الكلّ يسمّيها الناصريّة. مدينة جديدة تقوم على عظام السومريين. ثم تدور السنوات وتهبّ على بلدنا رياح الاعتزاز القوميّ. وتقرّر القيادة الحكيمة، لسبب في نفس يعقوب، استرجاع مواقع التاريخ الإسلامي وتطلق على المحافظة تسمية ذي قار. وتدور عقود أُخرى وتجيء الأخبار بأن بابا النصارى سيزور المدينة. ويضرب رؤساء عشائر الناصرية أيديهم على صدورهم ويعلنون:

ـ هلا به.

هم ما كانوا ليقصّروا في الحفاوة بالرجل العجوز، رغم مجيئه في السنوات العجاف، وسيسوّرونه بأسوار أوليائهم وبطيب الدعاء حتى يعود سالمًا إلى أهله في روما، بجاه العباس أبي فاضل.

بنكوص البابا عن المجيء إلى العراق، بدأت الألفية الثالثة في بلد لم تحسن كل أبالسة الأمن تدبير حمايته فيه. إعتذروا عن استقباله وتركوا الرؤوس مكشوفة لزخّات النار التي ستهطل على الأهالي مثل لعنة مرصودة منذ الأزل. حتى كوفي أنان، الرجل الذي لم نر نصاعة أسنانه لتقتيره في الابتسام، لم يصدّق الأمر وقال للسفير العراقي إن أمر قومه عجب.

ـ أنتم مجانين بالتأكيد. إن الزيارة هديّة على طبق من فضّة. فرصة لزحزحة الحصار وتمزيق العزلة التي يفرضها الأميركان والإنكليز عليكم.

ردّت الحكومة رغبة الحبر الأعظم بصفعة على الخد. ويوحنا بولس الثاني بولونيّ ملتزم بتعاليم المسيح. يعرف كيف يدير خده الأيمن لمن يصفعه على الأيسر. لكن ورديّة غضبت وانقهرت وشعرت أنه خذلهم. إنهم ليسوا مثل باقي المسيحيين طالما أن البابا توقّف قبل أن يصل إليهم ويصلّي بينهم. ولم تكن تصوراتها مجرد شكوك عابرة بل دخل في رأسها أن العراقيين، بكل طوائفهم، ليسوا بشرًا ما دام العالم ينبذهم ويشيح بوجهه عن موتهم.

ـ نحن شعب لا عازة له، مثل المشيمة التي تُرمى للقطط.

تردّد وهي تسوق سيارتها التويوتا العتيقة في طريقها إلى بغداد الجديدة. هم فائضون في هذه الدنيا. مسجّلون في خانة الزوال. لا أحد يهتمّ لمصائرهم ولا يقلقه أنهم يخبطون في الظلام منذ عشر سنوات. يشربون ماء كالبول الحار ويغتسلون نصف اغتسال من حنفيّات شحيحة. يوقدون الشموع نذورًا لكي تأتي الكهرباء. يتمدّدون غارقين في عرقهم، تفوح روائح أجسادهم وهم يتفرّجون على مروحة السقف عسى أن تئن وتدور وتنفخ عليهم فحيحها. أصيح بها في الهاتف لكي يصل صوتي إلى سمعها الكفيف:

ـ عمّة...

ـ ها عمّة!

ـ كيف الحال؟

ـ سخام وزقنبوت.

أُحاول تغيير الموضوع لأن للهواتف، في بلادنا، آذانًا. لكنّها تواصل بدون أن تسمعني:

ـ هل نأمن على أنفسنا في بلد لا يأمن البابا على روحه فيه؟

وعندما تستخدم عمّتي كلمات خارجة عن اللياقات فإن ذلك دليل على خطورة الحال. هي ليست مثلي، ذات معجم

متفلّت مثل مصراع أهوج، ولم تعاشر صحافيين لبنانيين مهاجرين ولا شعراء توانسة يزرعون على لسانها طفيليات بذيئة. إنّ السّخام والزقنبوت هما أقصى ما يمكن أن يصل إليه مدى مدفعيّتها الثقيلة. لقد كانت مضرب المَثَل في عفة اللسان، بين زميلاتها وزملائها في كليّة الطب بحيث صار لقبها بينهم "نجّنا يا يسوع". والحكاية أنهم كانوا، ذات يوم، يتبادلون نكاتًا على شيء من الجرأة بمقياس تلك الأيام. وكانت هي تحمرّ وتتلوّن وتشيح بوجهها عنهم، خفرًا واستنكارًا، الأمر الذي شجّعهم على محاصرتها ومطالبتها بأن تروي لهم نكتة، بدورها.

ـ خرج راهب من الدير، يومًا، للذهاب إلى الطبيب لكنّه أخطأ العنوان ودخل منزلًا مشبوهًا ورأى ما رأى. فسارع في الخروج وهو يردد: نجّنا يا يسوع". وبسبب ارتباكه، صدم عمود الكهرباء في الشارع، ثم ارتطم بجدارٍ عالٍ، ثم بشجرةٍ على الرصيف، ثم بتنكة أزبال، وهو في كل مرّة يتصور أنه صدم امرأة خليعة فيغضّ بصره ويصيح "نجّنا يا يسوع".

إنتهت النكتة وجمد الطلاب والطالبات بلا حراك وتبادلوا فيما بينهم نظرات الاستغراب، ثم انفجرت قهقهاتهم، دفعة واحدة، زوابع لا تتوقّف.

سخام وزقنبوت. هذا كل ما تمكّن قهرها أن يجود به من سُباب. ومع هذا فقد كان عليّ أن أبحث عن حلّ لها ولمشكلة بقائها وحيدة هناك. ولم يخطر على بالي أنّ الأمر يمكن أن يصل إلى التفكير بترك البلد. كان السفر أُمنية

العراقيين في تلك السنوات وما تلاها لكنّ عمّتي بقيت في مكانها لا تتزحزح. كلّهم يهاجرون إلّاها. أطباء وطبيبات وضباط وشعراء وصحافيون ومطربون ورسّامون وأساتذة جامعات ودلّالات، وهي مقيمة ما بين بيتها وعيادتها. الليل في البيت والنهار في العيادة. وكانت ياسمين رفيقتها ووَنَسها، قبل أن تتزوّج وتقفز وراء الحدود، مثل هندة وبرّاق. كلّنا سبقناها ولعبنا الطفّيرة. وظلّت هي على عنادها.

كان ذلك قبل حربنا الثالثة. فلما قامت القيامة واستعرت نار جهنم ولوّحت الفوضى بيدها فوق الرؤوس، أدركت عمّتي، أخيرًا، وبحكمة امرأة عاشت ثمانين حولًا، أنّ الخراب سيطيل إقامته في تلك الأرض. وبدأ يراودها هاجس أن تهاجر مع من يهاجرون. وكانت كندا هي الوجهة المثلى طالما أن ابنتها البكر هندة تقيم هناك. لكنها ظلّت تنفض رأسها طاردة الفكرة.

ـ أموت وأندفن هنا ولا أتهجول.

٦

لم يكن مستشفى بل إسطبل.

الردهات مثل سوق شعبي. في كلّ منها عشرة أسرّة يقيم فيها عشرون مريضًا، نصفهم يرقد على الأرض. أما مجاري

المياه فمسدودة تعوم فوقها النفايات. ولكي تستحمّ، كان على الطبيبة الوافدة من بغداد أن تصعد فوق كرسيّ حديديّ تضعه تحت الصنبور العالي. إنّ أرض الحمّام غرقى بمياه المجاري.

كعادتها، تركت العنان لدموعها، سلاح ضعفها الذي يسبق اندفاعات مقاومتها. ثمّ حسمت أمرها، ذات صباح، وذهبت لمقابلة رئيس صحّة اللواء، واشتكت له:

ـ كيف أعمل في مكان مثل هذا... هل تقبل أن ينزل الأطفال وسط الميكروبات؟

ـ يواش يواش دكتورة... هذي هي الإمكانيات.

لم يكن الرجل معنيًّا بثورتها ولا بما تقول. لقد قرأت في الأمر الإداري ذاته الخاص بتعيينها في الديوانيّة، قرارًا ثانيًا يقضي بنقل رئيس الصحة من الديوانيّة إلى بغداد. إنه ذاهب بعد أن بلغ به الصبر مداه. ومع هذا استمع إليها برحابة ومن دون كثير جدل، لأنّ الأمر لم يعد يخصّه. كان مديرًا أنيقًا ونظيفًا ومبتسمًا، وقد زاد من سعادته أنه سيعود، قريبًا، إلى العاصمة. ولرفع العتب، نصحها بأن تباشر بتوليد النساء في ردهة الجراحة. ما الفرق؟ إن الطفل الذي كان ينزل وسط الميكروبات سيفتح عينيه على الدنيا بين المريضات المصابات بحروق من الدرجة الثالثة، أو اللواتي تعرّضن لكسور مضاعفة، أو من حزّت سكين رقابهن غسلًا للعار ولم تنجح المهمّة. كيف تطمئن الحبلى وهي في قلب المجزرة؟

عاشت نساء المدينة، ومن قبلهنّ أُمهاتهن وجدّاتهن، وهن يلدن في البيوت، على أيدي الجدّات، أي القابلات. ثم جاءت ورديّة وأرادت تغيير حركة الكون. ولم تكن في الديوانيّة، قبل وصولها، سوى طبيبة وحيدة تعمل في عيادتها الخاصّة، لا في المستشفى. وهكذا فقد انتظرت يومين، بعد زيارتها لرئيس الصحّة، وعزمت على أن تذهب لرؤية متصرّف اللواء. إنها زيارة تعارف ومجاملة. وهي ستنتهز الفرصة فتطلب مساعدته. ولم يكن المتصرّف غريبًا تمامًا فهناك صداقة قديمة بينه وبين أخيها سُليمان، وزوجته كانت طالبة تسبقها بعدة صفوف في الثانويّة.

في اللحظة التي دخلت فيها عليه، انتهى شعورها بأنها غريبة في الديوانيّة.

٧

ـ إسكندر، تعال سلّم على عمّة ورديّة.

هتفت به والدته حالما فتح باب الشقة عائدًا من المدرسة.

العائلة كلمة لا تعني له سوى شخصين، أبيه وأُمّه. لقد ولد في باريس ولم يذهب إلى بغداد إلا مرّة وحيدة عندما أخذوه، وهو في الثالثة، لإجراء عمليّة تنزيل خصية عاصية لدى جرّاح تثق فيه العمّة. وعدا البيوت ذات الحدائق التي تسرح

فيها القطط والمجمّدات الكبيرة في المطابخ، فإنه لا يذكر من الرحلة شيئًا. لقد رأى جدّيه لأبيه وجدّيه لأمّه والكثير من الخالات والعمّات والأعمام وأبنائهم ثم نسيهم حالما عادت به الطائرة. قبيلة من الأقارب، يهجم أفرادها عليه ويقبّلونه ويعتصرونه ويقرصون خدّيه ويدسّون في عبّه وكفّيه أوراقًا نقديّة كثيرة. كانوا يتفرّجون عليه مثل دمية ويضحكون كثيرًا ويحبونه كثيرًا بشكل لم يألفه. لكنّه لم يعد يذكر وجوههم ولم يفهم كيف تسنّى لهم أن يتعلقوا به وهم يرونه للمرّة الأُولى.

ـ حبيبي اسكندر تعال في حضني.

ـ عيوني اسكندر خذ هذي البرتقالة.

ـ هل أنت جائع... هل تريد كليجاية؟

ولم يستعِدِ الطفل توازنه إلا بعد أن عاد إلى شقّتهم الصغيرة في باريس. الستوديو الذي كانوا يعيشون فيه نهارًا بشكل عمودي، وليلًا بشكل أُفقي. فمع حلول العتمة، تتحول الكنبة إلى سرير ويفرشون المرتبات والأغطية، وينام ثلاثتهم في الحجرة الوحيدة. وحدث أن جاءت خالته لزيارتهم من بغداد وروت لهم نكتة عادل إمام التي تنطبق عليهم. تسأله إحداهنّ في إحدى المسرحيّات: إنت ومراتك وحماتك وسبع عيالك سايبين الشقّة كلها وعايشين في أُوضة؟ ويرد: إحنا شقّتنا أُوضة.

عاد اسكندر إلى بيته المختصر المعلّق في الطابق الحادي عشر ونسي بيوت بغداد الكبيرة ومجمّداتها الملأى بالدجاج والموطا. كبر في باريس وتطورت أحوالهم واتسعت شقّتهم

وصارت له غرفته. إنه لا يسمع عن بغداد إلا ما يتناقله الأبوان من أخبار مقلقة، أو حوادث محزنة تصيب هذا، أو ذاك من الأقارب. ثم صارت أحداث بلده تتوالى كثيرًا في نشرات الأخبار. يرى الصور والدبّابات والخوذ والجثث الطافية في الخليج، فيتوقف عما في يده، ويرفع صوت التلفزيون ويحسّ بأن الأمر يخصّه. كان ولدًا أوحد. تعتصره أُمه بين ذراعيها وتقول إنه زعيمها الأوحد، فلا يفهم ما تعني. لا أقارب له ولا عائلة بالمعنى المتداول بين أقرانه. إنّ رفاقه ينتظرون ليلة الميلاد لكي يتناولوا الديك المحشيّ على مائدة الجدّة. وبينهم من كان ينزل، في إجازة الفصح، إلى الجنوب عند خاله أو عمّته. أمّا عطلة الصيف فلابد من قضائها في المنازل العائليّة الأُولى التي يرثها الآباء عن الأجداد، في الريف أو الجبل. يحكي له زملاؤه عن النزهات الطويلة على الأقدام ودروس الأكورديون وركوب الخيل والصيد في النهيرات والبحيرات الزرقاء. يعودون ومعهم صورًا للصيّف الجميل وقصصًا عن مغامرات لا تتوفّر له.

ـ بابا... لماذا لا نسافر في الإجازة؟

ـ كلب ابن الكلب... قاعد بباريس وتريد تسافر؟

يقول له أبوه إن عشرين مليون عراقي يحسدونه على وجوده هنا، فلو كان في بغداد لساقوه إلى الجنديّة وحلقوا شعره الأجعد الطويل ونزعوا الحلقة الفضيّة من أُذنه. الرجال لا يتزينون بـ "التراجي". واحدة من الكلمات العراقيّة التي

حفظها من كثرة ما سمعها تقريعًا له على ميوعة مفترضة. التراجي والدولمة وسرسري وكلاوجي وطلعت روحي وعابت هلجهرة وشلون نمونة وألعن إبليسك. وهاهو الآن يتعرّف على مفردة جديدة تتكرر على مسمعه منذ أن جاءت هذه العمّة إلى باريس. تقول له أُمه:

ـ إنها الدكتورة التي ملصتك من بطني.

ويفهم أنهم يسمّون التوليد ملصًا. ويتحرّجون فيصفون المكان الذي ينزل منه الطفل بالبطن. لكنه يعرف، منذ كان في صف الروضة، أن الأطفال لا يخرجون من البطون بل من فروج أُمهاتهم. تقول له:

ـ شلتك ببطني.

ويضحك ويتخيل والدته مثل الكنغر الأُسترالي، تقفز به من بغداد إلى باريس، ذهابًا وإيابًا، وهي تحمله في كيس بطنها. لماذا لا يسمون الفرج فرجًا... يصغّرونه ويخترعون له، مثل الفرنسيين، تسمية طفوليّة، زيزيت؟

درس اسكندر موضوع العمّة وقرّر، بينه وبين نفسه، أن يكون لطيفًا معها، طالما أنها أول إنسان نظر في خلقته حين نزل إلى الدنيا. يبتسم لها ويحاول أن يجاملها بما يعرف من كلمات عراقية. تغضب وتلومه لأنّه لم يتعلّم العربيّة كما يجب.

ـ مو عيب ما تعرف حكينا؟

ـ مو صوجي... صوج ماما.

تمدّ يديها المعروقتين وتحتضن كفّه الكبيرة:

ـ حقّك، الذنب مو ذنبك، تريد أعلّمك عربي؟

يقوم ويفتعل أي انشغال ويدخل إلى غرفته ويجلس أمام الكومبيوتر. حديد رماديّ واجم ذو شاشة مضيئة. صديقه وأنيسه وأُستاذه وكاتم أسراره. لقد برع في خفاياه واستعمالاته حتى صار حجّة بين أقرانه. وحتى مديرة المدرسة، تلجأ إليه عندما يتعطل جهازها. يشعر بالفخر وهو يحلّ مشكلتها في دقائق. تشكره بحزم وتتغاضى عن شكوى مدرّس التاريخ من كثرة غياباته عن الصف. لا يحبّ التاريخ ويتوجّس منه لأنّ أباه يستشهد به كثيرًا ويتحمّس وينفعل ويضرب بيده على الطاولة ويسبّ حتى تنتفخ شرايينه ويعتلّ قلبه. التاريخ يحفظ نزاعات البشر فيرفع ضغطهم ويمرضون.

تلحق به أُمه وتغلق الباب وراءها وتعاتبه بهمس:

ـ شلون تقوم وتتركها وحدها؟

ـ إنها عمّتك وليست عمّتي.

ـ هل نسيت أنها هي التي ملصتك من بطني؟

يضع سمّاعتَيْ الموسيقى على أُذنيه ويتمدّد على الفراش ويتطلّع إلى سقف الغرفة، منتظرًا أن تقوم والدته وتتركه لحاله. ماذا تريد منه؟ ليس من المعقول أن يترك الناس أعمالهم وواجباتهم ويلازموا الممرّضات والأطبّاء الذين سحبوهم من بطون أُمهاتهم.

٨

ـ دكتورة... أين نضع المريضة؟

لم تحبّ ورديّة أن تُسمّى الحبلى مريضة. إنها لا تشكو فتقًا أو ورمًا أو نزيفًا بل تأتي متوّجة بتلك الهالة التي وصفتها كتب الطب بأنها "افتخار الحمل". تسير متخاذلة وموجوعة ويشقّ صراخها الفضاء لكنّها تتعالى على الطبيبة وعلى الممرّضات وعلى المريضات الرّاقدات في الرّدهة لأنّها، من دونهن في تلك اللحظة، من تحمل في أحشائها بَرَكة الخَلق. ورغم فرادتها وسموّ رسالتها، لابدّ من إيجاد مكان في الردهة النسائيّة للمتمخّضة التي يفلق الوجع حبل ظهرها. والحلّ يكون بإزاحة مريضة سابقة من سريرها في انتظار أن تحلّ "الساعة الخفيفة" وتلفظ الحبلى وليدها خارج رحمها.

ـ إيدي على يدك يا الحسين يا سيّد الشهداء... دختورة سوّيلي جارة...

لا تجد مفرًا من أن تنقل الحامل إلى صالة العملّيات المختلطة. لا يمكن إقلاق راحة الرّاقدات في الردهة النسائيّة. مكان مكتظ بضحايا الحرائق والخارجات من عمليّات قيصريّة. مريضات محتاجات للهدوء. تضع الممرّضة يدها تحت إبط الحامل وترفع. تقابلها ورديّة من الإبط الآخر. تساعدانها على ارتقاء سرير العمليّات المرتفع. تشتغل الأيدي تقودها خبرتها. تتدفّق عبارات الحثّ والتشجيع وكأنهنّ يدفعن سيارة متعطّلة.

تصرخ الأُم صرختها العظمى، ويخرج الرأس، ثم تنزلق الكتفان الصغيرتان، وتمسك الطبيبة بالجسم مثل سمكة زَلِقة في رغوتها. تعلو صرخة المولود ويسكت أنين النفساء وتخمد استغاثاتها. تقوم وتنزل من فوق السرير العالي والحمرة تخضّب وجهها. كأنها طالعة من الحمّام. يغادرها افتخار الحمل، حالما يفرغ بطنها، فتترجل من عليائها. تقف على ساقيها وتلفّ نفسها وطفلها بعباءتها. تعود إلى البيت لكي لا تتأخّر على أطفالها الآخرين. تهرب من الصالة الكئيبة حاملة بين ذراعيها حياة طازجة.

لاشكّ أنّ أولئك النسوة اللواتي قصدنها للولادة في مستشفى الديوانيّة كنّ شجاعات أو، مثلها، مستوحدات. تسمع الأنين من الممر فتعرف أن مُتمخّضة قد جاءت تتوكّأ على كتف أُمّ أو شقيقة. الرجال، في مثل هذه المواقف، لا يرافقون نساءهم إلى المستشفى. إنهم يأتون، يتبخترون تحت عباءاتهم الهفهافة، حين يأتي المولود ذكرًا. أما إذا تعسّرت الولادة واحتاجت الحامل إلى قيصريّة، فلا بد من إرسال أحدهم ليخطر الزوج ويأتي به. هو وحده الذي يملك القرار. يبصم على ورقة الموافقة أو يدير ظهره ويرفض.

نادرًا ما كان الرجال يرفضون. إن القيصرّية تساعد على انتشال الطفل، حيًا، ولو ماتت الأُم. الولد عزيز والزوجة يمكن تعويضها. لكنورديّة كانت قد تعلّمت من أساتذتها، في حال

الاضطرار إلى الاختيار، أن حياة الوالدة أهم من حياة الجنين. مع هذا، لا يمكن للطبيب أن يتكهّن بحالة الطفل، في كل الأحيان. وقد صادفتها حالة مشهودة أثناء تدريبها العملي في المستشفى الملكي في بغداد، حين جاءها رجل لم يرزق أطفالًا من زوجته الأولى، ومعه زوجته الثانية الحبلى التي ستحقق له أمنية الأبوّة.

فحصت الجنين فوجدته في وضع غير طبيعي ولا يمكن توليد الأم بدون عملية. صاح الزوج:

- إفتحي بطنها... دكتورة بجاه الله إفتحي بطنها.

وقف شقيق المرأة ووالدتها ورفضا القيصريّة. وتوسّلت ورديّة بالمريضة أن توافق فلم تقبل وهربت من المستشفى قبل العملية. وجيء بها بعد يومين، في الثالثة صباحًا، وجسم الطفل خارج من بين ساقيها ورأسه محشور في الداخل. كان ميّتًا وقد حاولت قابلة شعبية توليدها فلم تفلح لأن وضع الجنين كان مقلوبًا. والغريب أنها كانت هادئة ولم تصرخ، منهكة لكن ضغطها سليم ونبضها منتظم. وفي الخامسة صباحًا جاءت الدكتورة لميعة وفحصت الحالة. كانت الرحم قد تقلّصت على رقبة الطفل والجسد أزرق. ثم جاء السامرائي والدكتورة أناستيان ورئيس المقيمين ووقفوا يتباحثون في الأمر. أخيرًا قرر البروفيسور لينن، وبدون تردّد، أن يقطع رقبة الطفل. أخذ الطبيب البريطاني الذي كان في مهمّة تعليميّة في العراق، مقصًا وقطع الرقبة وطلب فتح بطن الأم لاخراج الرأس.

أقسم زوجها أن يطلّقها. لكنّها عادت وحملت وأنجبت له سبعة أبناء، وصلوا ورؤوسهم في المقدمة. وبعد اثنتي عشرة سنة، صادفت ورديّة حالة مماثلة في الديوانيّة. وكان المسؤول عن المريضة طبيب جديد ومتفوّق عائد، للتوّ، من لندن مع شهادة الماستر. لقد فاجأته الحالة واستشارها فقالت له أن يفتح بطن الأمّ على الفور.

ـ لا، سنحاول توليدها بشكل طبيعيّ رغم انقلاب وضعيّة الجنين.

ـ أنا غير مسؤولة ولن أتمكن من توليدها من الأسفل.

ـ سنتعاون.

ـ لا.

جاءت طبيبة ثانية وبدأت تساعده في إخراج جسم الطفل. وعندما سحبا الساقين والصدر والذراعين ووصلا إلى الرقبة، تقلّص عنق الرحم فاحتبس الرأس. وأرسل الطبيب يستدعيها على عجل.

ـ ماذا نفعل... كيف نعيد إدخال الطفل إلى الرحم؟

ـ ماذا تُدخل؟ قصّ الرقبة وافتح البطن لإخراج الرأس.

لم يتمكن الطبيب الجديد من إكمال العمليّة ورجاها أن تتولّى الأمر وخرج.

تلك هي قسوة المهنة؛ قسوة لا مفرّ منها، شرط ألّا تصبح قانونًا وتزيح الرحمة. غير أنّ هناك لحظات من الفرح والإفتخار تعادلها وتخفّف من وطأتها. يحدث كثيرًا أن تأتيها

مريضة ومعها شاب يافع مثل البدر.

ـ دختورة هل تذكرينه... هذا الذي عذّبنا حتى طلع وعاش.

وفيما بعد، وكانت قد تركت الديوانيّة وانتقلت إلى بغداد، أرسلت ياسمين لتجدّد لها إجازة السيّاقة الخاصة بها. قرأ الضابط المتجهّم اسم صاحبة الإجازة فانبسط وجهه.

ـ هل هي ورديّة اسكندر التي كانت دكتورة في الديوانيّة؟

ـ نعم، وأنا ابنتها.

ـ شلون صدفة... هي التي جاءت بي إلى الدنيا.

ـ ما اسم الوالدة؟ ... إن أُمي لا تنسى مريضاتها.

كان الزحام شديدًا حول نافذة المراجعين وتحرّج الضابط من أن يذكر اسم أُمه أمامهم. أخذ ورقة وكتب عليها كلمتين وطواها بسرعة ودسّها في يد ياسمين. ثم قام بالواجب خير قيام وجدّد الإجازة في دقائق. وفيما بعد، لـمّا قرأت ورديّة اسم حميدة ناصر، تذكّرتها وشقيقاتها وموقع بيتهم على طريق معمل الطابوق. قالت إنّ اسم ابنها فاضل وقد ولد في رمضان.

في ساعة غضب وحيرة، عادت ورديّة لرؤية مُتصرّف اللواء.

ـ أنصبوا لي خيمة في حديقة المستشفى لأعمل فيها.

ـ إصبري وانتظري. نحن بصدد بناء مستشفى جديد وقد حفرنا الأساسات ولا مجال لتوسيع المستشفى القديم.

ـ أُريد خيمة لا أكثر... ولن أنتظر أيّ بناء.

يستغرب الرجل من إصرارها فيرفع سماعة الهاتف ويطلب رئيس الصحّة.

ـ هل لديكم فسحة فارغة؟

لم تسمع ما قيل على الطرف الآخر لكنّ المتصرّف هبّ واقفًا.

ـ دكتورة، تعالي ورائي.

ركبت معه في سيّارته وذهبا إلى المستشفى. ترجّل وعاين المدخل ووجد في جانب منه شرفة مربّعة تقوم على عمودين حجريين، مشغولة ببالات القطن. كانوا يستعملون المكان مخزنًا للمستلزمات الصحيّة.

ـ هل يفيدك هذا المكان؟

لم تكن تحلم بأكثر من ذلك.

بإشارة من المتصرّف جاءت شاحنة وأفرغت الشرفة. ثم طلب مجموعة من عمّال البناء وتركهم تحت تصرّفها. ولم تكن مهندسة لكنّها كانت تعرف ما تريد. جاء صديق العائلة أبو يعقوب، صاحب معمل الطابوق وساعدها في وضع التصميم. في هذه الزاوية ستُبنى المغاسل ودورات المياه، وهناك لابدّ من تشييد مخزن صغير لحفظ حاجيّات المريضات، مع بضعة أرفف للمواد المطهّرة واللوازم الطبّية. نقل لها أبو يعقوب بشاحنته الصغيرة ما تحتاج من كاشي وطلاء ومواد بناء. هذا هو الفضاء

الخاص الذي ستتحرك فيه وتستقبل الحوامل وتملّص المواليد. هنا سترتفع صرخاتهم الأولى، وتنطلق الهلاهل، ويفتّل الرجال شواربهم في الخارج ويدخّنون.

نزلت إلى بغداد لتشتري ما تحتاج من أثاث: سرير التوليد والحاجز الخشبي الذي يستر الوالدة ومهود الأطفال... الكواريك. وحين عادت كان العمّال قد أكملوا رصف الأرضيّة ودهن الجدران. صارت ردهة التوليد ماثلة وكاملة. تضيء المصابيح القوية فيلتمع الطّلاء الدّهني الذي تملأ رائحته المكان .

حضر المُتصرّف حفل الافتتاح، في الصباح، وقصّ الشريط. وجاء قائد فرقة المنطقة وضباطه وشيوخ عشائر الديوانيّة وما جاورها. أطلوا على الردهة الجديدة وأنظارهم في الأرض. غرفة توليد لا يجوز خرق حرمتها حتى ولو كانت فارغة. وبعد ظهيرة اليوم نفسه جاءت زوجة المُتصرّف بصحبة ضيفاتها من عقيلات الضبّاط والقائمقام ومدير التربية. تناولن الشاي والبسكت مع الطبيبات والممرّضات.

٩

" ماما الحبيبة...

لم أشبع من صوتك في التلفون هذا الصباح. تمنيّت لو يظلّ الخط مفتوحًا بيننا طوال النهار لأحكي لك عن حياتي هنا. إنّ كندا جميلة وآمنة لكنها باردة وبعيدة.

بعيدة عنكم أكثر من اللّازم. كأن الذاهب إليها يموت وهو في الحياة. يفارق أهله فلا يرونه ولا يراهم أو يسمعهم إلا في الصور وعَبْر الأسلاك. ماذا تفيد الفرجة بلون لمس وأحضان ولثم وشمّ؟ مع هذا أشكر نعمة الهاتف وأعيش مع الصور التي حملتها معي من هناك. أتأمّل صورتي وأنا طفلة على مسرح المدرسة في الديوانيّة، أرتدي صدريّة بيضاء وأضع على أذنيّ السمّاعة الطبيّة وأفحص دمية ممدّدة على منضدة خشبيّة صغيرة. هل تذكرين الدمية التي اشتريتها لي من اوروزدي باك وكانت أطول منّي قامة؟

الأولاد هنا لا يلعبون بالدمى. إنهم جيل إلكترونيّ. وغرف أولادي ملأى بالشاشات الكبيرة والصغيرة. ومع هذا يطلبون المزيد والجديد. أشعر بالذنب لأنّ عملي في المستشفى يأخذني منهم طيلة الوقت ثم أتذكّر طفولتي وأقول لنفسي إنّ عملكِ الطويل ما بين المستشفى والعيادة لم يجعل مني إبنة فاسدة. كنت تعودين إلى البيت، بعد العاشرة مساء، وأنت مرهقة وذبلانة. تصعدين إلى الطابق العلوي وتتوجّهين إلى غرفتي وتجدينني ساهرة أستعدّ لامتحان الفيزياء أو الرياضيّات. حبيبتي هندة... ألست بردانة؟ أنهرك وأتضايق من خشيتك الدائمة عليّ من النسمة، حتى في الصيف. هندة... أتريدين كوب شاي حليب؟ يا ريت يا

ماما. تدخلين غرفتك على عجل وترتدين دشداشة النوم وتنزلين إلى المطبخ لتعودي لي بترموس الشاي جاهزاً بالسُكّر والحليب. تصبّين لي كوباً وتخرجين من غرفتي وأنت تخاطبين العذراء أن تكافئ جهدي وسهري. تعودين في الصباح لإيقاظي وتجدين الكوب كما هو، لم يُمس. لكنكِ لا تغضبين ولا تعاتبين. وفي المساء التالي تكرّرين إعداد الترموس وإحضاره إلى غرفتي.

هل كنت سأقول لكِ كلّ هذا لو لم أتغرّب وأبتعد عنكِ؟ هل هي الأُمومة التي جعلتني حسّاسة لتضحياتكِ؟ أم أنها المهنة الواحدة التي جمعتنا وفرضت علينا أن نعطيَ من ذواتنا للغرباء أكثر مما نمنح فلذات أكبادنا؟ قد تقولين إن الغربة علّمتني تنميق الكلام وإن إنشائيَ قد تحسّن. فهل تنسين أنكِ كنت حريصة على ألّا تقلّ علاماتي في اللغة العربيّة عنها في العلوم والإنكليزيّة؟ جئت لي بذلك المدرس الخصوصيّ، الأستاذ أسعد، لكي يعلّمني القواعد ويقوّيني في الإعراب. كان من أهالي الدغّارة، مفصولاً من الوظيفة لأنّ له قريباً في حزب مشبوه. و استبسل الرجل لكي يؤدّي مهمّته على خير وجه. وكنت تشفقين عليّ من تشدّده. عيني أُستاذ أسعد على كيفك ويّا البنيّة. يضحك ويقسم بأن يجعل مني بنت مالك في النحو،

أُنافس ابن مالك صاحب الألفيّة. كنت تتباهين بي أمام خالي سُليمان وتطلبين منه أن يمتحنني في الإعراب، فأنجح وأرفع رأسك. خالي الذي كان يحبّ اللغة أكثر من كلّ العلوم.

ثرثرات، أليس كذلك؟ الورق كثير والبريد رخيص وأعرف أنك لا تضيقين بكلامي. كم أحتاج للحديث معك، كتابةً، لأنّني ما كنت أجرؤ أن أحكي لك مواجهة، كلّ هذا. تبقين أُمّي وأبقى أخجل منك. بل أستغرب أننا لم نتحادث، من قبل، كطبيبتين تتداولان في شؤون الأمراض والتشخيصات والمرضى. هل تذكرين لقاءنا في الأردن قبل سنوات؟ كنت قد جئت لك معي بمجموعة من المجلّات الطبّية. كان كل شيء متوفرًا لديكم قبل الحصار. ثم غرقتم في الظلمة. رأيتك تنكبّين على المجلات تطالعينها بشغف وتتناقشين معي حول بعض ما ورد فيها. أسعدتني سعادتك بمجلاتي وبأننا نتكلّم، لمرّة فريدة، حول مهنتنا. ولم تكوني الوالدة، يومها، بل الدكتورة القُلمى المُجرِبّة. ولم أكن الابنة بل الطبيبة المُبتدئة الأقل خبرة.

بعد قليل سيعود سلام من العمل. أخلع صدريّة المستشفى وأرتدي صدريّة المطبخ. أنا التي كان كأس الماء البارد يأتيني إلى غرفتي على إناء خزفيّ، صرت

طبّاخة ماهرة. كنذا فرضت عليّ نلك وأتت على دلالي بالضربة القاضية. لا تتهاوني مع قلبك يا أُمّي. خذي دواء الضغط في مواعيده. أنا مضطرّة لإنهاء الرسالة وسأكتب لك حالما أجد فراغًا لأحكّ رأسي".

تسوف أوراق الرسائل وتتشقّق من كثرة القراءة والتقليب. تحاولورديّة أن ترتّبها حسب التواريخ. رسائل عمّان في رزمة، وتورنتو في رزمة، ثم رزمة مانيتوبا، حيث الرسائل الأطول والأكثر إدهاشًا. إنها تنتظر مكاتيب هندة مثلما كان المرحوم جرجس ينتظر وصول مجلّة المختار. يرصد جولة ساعي البريد ويفرح به فينقده بخشيشًا مجزيًا إذا جاء في وقته، أو يتعارك معه إذا تأخّر. ولمّا غاب الزوج، لم تعرف ماذا تفعل بكلّ تلك الكتب ومجموعات المجلّات المحفوظة في المكتبة وفق تسلسلها. لم يعد أحد يقرأ ويهتم. وفي النهاية جاء أحد الكهنة وأخذها لمكتبة دير المسبح. ستنام هناك تحت الغبار ولن تمتدّ إليها يد.

جرفتها رسالة هندة وأعادتها إلى زمن فات. حرّكت لديها شوقًا من نوع مغاير. إنها تريد أن تلتقيَ بابنتها البكر، لا لكي تنصحها وتحنوَ عليها، بل لكي تهنأ بصحبتها مثل صديقة وتتبادل معها الرأي مثل زميلة. أليست هذه هي المكافأة الكبرى لأمومتها؟ إن هدهدة الطفل من أبهى مُتع الدنيا. ضمّه إلى الصدر وتمريغ الوجه في عنقه الناعم. لكن من

عطايا الحياة أن تلتقي الافكار بينها وبين ابنتها ويدور بينهما كلام حميم. تتحادثان كامرأتين وتكتشف كلّ واحدة شيئًا من نفسها في الأُخرى. تلتقيان فتأسف لكلّ تلك المسافات التي باعدت بينهما. تدرك حجم الإجحاف الذي لحق بهما، بمليون من الأُمهات المتروكات للوحدة وأوجاع الشيخوخة. لا جريرة لهنّ سوى الانتساب لهذا المكان الذي تعصف فيه كلّ رياح الأرض.

ألهذا استسلمت، بعد طول عناد، لإلحاح هندة ولمعاملة لمّ الشمل والهجرة إلى كندا؟ لو عرفت على أيّ درب آلامٍ ستضع قدمها لما انساقت وراء ذلك السراب المهين.

جاءت الأوراق وطلبوا منها الذّهاب للفحص الطّبي. والفحص لا يُجرى في بغداد، بسبب الحصار. وقد كان عليها أن تذهب إلى عمّان حيث الأطباء المعتمدون من قنصليّة كندا. وسافرت إلى هناك لتلتقي هندة التي جاءت من تورنتو وتشبع منها. وكانت العاصمة الأردنيّة قد تحوّلت إلى محطة للأحضان والقبلات والدموع بين الأُمهات المقيمات والأبناء المنفيين أو المهاجرين. يتّفقون على موعد فيها ويأتي الابن من الدانمرك، بجوازه الأجنبيّ وما تيسّر من الدولارات. يستأجر شقّة في جبل اللويبدة ويستدعي أُمه ليشمّها ويشبع من رائحتها.

رافقتها هندة في جولاتها على أطباء الباطنيّة والعظام والعيون، حسب تعليمات الباب العالي الكندي، ثم تواعدتا بالدموع وعادت كل منهما إلى مدينتها وبيتها. يبدأ انتظار

النتيجة ويتراكم القلق. اليوم قد يتصلون بها. غدًا قد يصل الإشعار. معاملات العراقيين بالمئات والتأخير قَدَر. ثم يأتي الرّفض. إنّ التقرير الطبيّ يشير إلى حاجة صاحبة الطلب لتغيير مفصلي الرّكبتين. آخ من هاتين الركبتين، حتى كندا ليست مستعدّة لتحمّل نفقات علاجها. يحضرون في التحالفات والحروب، يرسلون الجنود والطّائرات، يقصفون ويقتلون ويحاصرون، ثم يولّون ولا يبولون على يد مجروح.

أعادت البنت تقديم طلب لمّ الشمل وتكرّرت رحلة ورديّة إلى الأُردن ثلاث مرات. دارت على الأطباء المُرخّصين من السّفارة حتى حفظوا وجهها. وفي كل مرّة، كانت كندا تغلق الباب. لكن هندة، التي كانت قد حصلت على جنسية بلد المهجر، تشجّعت وجلست، ذات مساء ثلجيّ، وكتبت رسالة طويلة إلى دائرة الهجرة، قالت فيها إنها طبيبة جاءت من العراق وتعالج الكنديين منذ كذا سنة، وإن والدتها طبيبة، أيضًا، داوت آلاف النساء طوالِ نصف قرن، وهي لا تريد أكثر من اجتماع شملها بهذه الأمِ. أن يتعرف أبناؤها الكنديون على جدّتهم العراقيّة. وفي آخر الرسالة، تعهّدت بأن تجري لوالدتها عمليّة الركبتين على نفقتها. وأرفقت كشفًا بحسابها المصرفيّ. لكن الرسالة ظلت بلا جواب.

ـ ماما، سأذهب إلى محام في أُوتاوا لتقديم شكوى.

ـ إياك أن تفعلي... إللي ما يريدني ما أريده.

ـ كاوبوي أمريكي وصل تازة... الليلة في السينما الصيفي... لا يفوتك يا ولد.

طلبت وردّية من سائق الأُجرة أن يلحق بسيارة البيكاب التي تحمل صورة كبيرة لفيلم من أفلام جون وين. تسير في شوارع المدينة وتمرّ على المقاهي والأسواق ودكاكين الحلاقة وصوت سائقها يلعلع من مكبّر الصوت. يعلن عن العرض الجديد ويغري شبان المدينة ورجالها بسهرة مع الخيول والمسدّسات والأقواس النشّابة. لحقت به وأوقفته بإشارة من يدها فعرفها ونزل يستطلع الأمر.

ـ خير دكتورة؟

ـ شوف عيني، هاك ربع دينار وأريدك تدور بسيارتك وتصيح بالميكرفون تعلن عن افتتاح صالة جديدة للولادة في المستشفى... نظافة وأمان وبإشراف دكتورة جاءت من بغداد.

لا يشفع لها أنّها طبيبة آتية من العاصمة لكي يثق بها الأهالي. إنّ لكلّ محيط رموزه. لكلّ قفل مفتاحه. ومفتاح نساء المدينة في عبّ العلويّة شذرة. كان عليها أن تزورها وتحصل على بركتها. وبدونها فلن تأمن لها المريضات. لن تقصدنها لعلاجهنّ وتوليدهنّ وهي الغريبة الآتية من بغداد، وفوق هذا ليست من أمّة محمّد.

وشذرة امرأة نسيج وحدها. نظرتها مسبار وكلامها ماء ورد وأدعيتها بلاسم. تستمد احترامها من لقبها الديني الذي يشهد بأنها من آل الرسول. والعلويّات كثيرات لكنها هي التي ذاع صيتها في المدينة والأرياف المجاورة. يدان مباركتان لا تستعصي عليهما عقدة. تقرأ الآيات على رؤوس الأطفال وتفكّ السحر وتخطّ الأحجبة التي تحقق المراد. إنّ زيارتها واجبة على كل موظّفة جديدة تفد على المنطقة. والذهاب إلى بيتها البعيد يشبه توجّه السفراء الجدد لتقديم أوراق اعتمادهم. سمعت ورديّة كلّ ذلك وفهمته. وطلبت من إحدى الممرّضات أن تأخذها لعند العلويّة شذرة التي كانت تسكن ناحية على حدود الكوت، تتبع أمير ربيعة وفيها يقوم قصره.

وصلت والشتاء في أوّله فوجدت نفسها أمام بناء فسيح من طابقين تتقدمه حديقة عامرة بأشجار الليمون والنارنج، تقف عند بوّابته سيّارة شيفروليه من طراز "أُم العيون". معدن سماويّ اللون يمتد برشاقة صاروخ، يخطف بريقه البصر ويصلح مرآة للوجوه. كأنّ هناك أيد خفيّة تتناوب على تلميع السيارة كلّ ساعة. وحتى رئيس الصحّة لم يكن يركب ما يشبهها، ولا متصرف اللواء، ولا حتى الزعيم قائد الفرقة الأولى للجيش.

استقبلتها بالترحاب ودعتها للجلوس بجانبها، على الأرض، في المضيف المزدحم بالنساء. وكانت هناك صورة كبيرة للإمام علي مرسومة على كامل الجدار، في صدر الديوان.

وقدّرتورديّة أن العلويّة في حوالى الخمسين، ذات جسم ممتلئ وبأس نصف خفيّ نصف ظاهر، ترتدي عباءة من قماش فخم يبرق ويتهدّل على كتفيها ثم تتموّج أذياله على السجّادة العجميّة التي تفرش الغرفة الفسيحة من الجدار للجدار. ومرّت الدقائق الأُولى والمرأتان تتناوبان النظر، كلّ منهما تفحص الأُخرى وتحاول أن تفرك خامتها وتروزها وتقيس مدى شكيمتها. عرفت ورديّة أن أحدًا لا يمكن أن يكون ندًا للعلويّة.

من الوجه الأسمر المليح نزلت نظرات الدكتورة إلى اليد التي تطقطق بينها حبّات المسبحة الكهرب. كفّ بنت دلال وراحة وأصابع مزيّنة بمحابس من ذهب وشذر وألماس. إنّ هذه المرأة لا تعجن ولا تطبخ ولا تدعك الثياب في الطشت بل تستخدم الأنامل في ما هو طريّ وخفيف. تفرك وريقات الآس وتقطف العنب وقد تفرفط حبّ الرمان. تكتب الأحجبة وتمسح على جباه الأطفال وتسبّح بحمد الرحمن. أما إذا نهضت إلى الشرفة أو إلى الحديقة، سارعت وصيفتها إلى إلباسها معطفًا طويلًا أسود من فراء الأسترخان. تتبعها بعض الزائرات حيثما مضت، والوصيفة تسير وراءها، تنقل حقيبتها وعلبة سكائرها.

سرت الكيمياء بينهما وتوقّف المرصاد وهدأت النظرات. نالت الدكتورة الشابّة البركة وتناولت العلويّة من صحن الفاكهة تفاحة قشّرتها، بيدها، وقدّمتها إلى ضيفتها. تبسّمت لها وتمنّت لها الرزق والتوفيق.

ـ يعني راح تشهريني بين أهالي الديوانيّة؟
ـ حاشاك... عمتْ عين اللي يشهرك.

تفهمورديّة خطأها فتضحك. إن من تنشهر، بلهجتهم، هي من تنفضح. وهي لا تريد سوى الستر. وقد طمأنتها العلويّة ووعدتها بأن تروّج لها بين النساء. كانت متنفذّة ومُطاعة ومرهوبة الجانب، تملك أن ترفع مكانة طبيب أو أن تقضيَ على سمعة طبيبة. وكانوا يتركون عندها رزمًا من بطاقات الزيارة التي تحمل أسماءهم وعناوين عياداتهم، وهي توزّعها على زائراتها، إذا عنّ لها وشاءت.

كان من حظ ورديّة أن العلوّية شذرة ارتاحت لها ووثقت بها. جاءت بأدوية السكّريّ التي تتناولها وعرضتها عليها. زينة لو مو زينة؟ تطلب رأيها وتميل عليها وتسرّ لها بأنها تتردّد على المرحاض كثيرًا وتتبوّل بعد كلّ استكان شاي. تفهم الدكتورة سرّ إبريق الماء الذي تحمله الوصيفة وتسير به وراء ربّة البيت. كل الأعين تتبعها حين تسير وكأن فيها مغناطيسًا لا يُقاوم. وهي تفرح بزيارة الطبيبة الشابّة وترمي وشاح سحرها عليها. تقوم من مجلسها وتودّعها حتى الباب وتسوّرها بالأدعية. يخرج الكلام من فمها عذبًا بلهجة ريفيّة إنما بعربيّة فصيحة، تضاهي ما كان ينطق به شقيقها سُليمان.

سُليمان، عشق اللغة منذ يفاعته. كان يرى في امتلاكه لناصيتها تأكيدًا لانتمائه، وهو السريانيّ، إلى الهوية الوطنيّة في دولة تأسّست وهو دون العاشرة من العمر. لقد ولد في

الموصل مع أُولى سنوات الحرب الأُولى. فلمّا انتصر الحلفاء راحت المدينة تتأرجح بين أهواء الدول العظمى. جلس مندوبون إنكليز وفرنسيّون يرسمون خرائط المنطقة وبيد كل منهم مسطرة وفرجال وفي قلبه شهوة سافرة. خطّطوا الحدود وبتّوا في مصير ولاية الموصل. قرروا إنهاء علاقتها بالدولة العثمانية المندحرة وضمّها إلى خارطة العراق. لولا جرّة قلم لكانوا اليوم أتراكًا.

حفظ الطالب المجتهد المعلّقات والشعر القديم. يقف في ساحة المدرسة، أو على سطح الدار، ويلقيه بصوت عال وبلسان قويم. كان أقرباؤه في القرى القريبة يتحادثون بالسريانيّة وأقرانه يرطنون بالكثير من الكلمات التركيّة وهو ينام في حضن الضاد. أنهى الثانويّة وجاء ترتيبه الأول على لواء الموصل في اللغة العربيّة. وقد جرت العادة أن يكون المُصحف مكافأة الطالب الأول لتفوّقه في لغة القرآن. لكن العادة، مع سُليمان اسكندر، كانت تختلف.

خرج من المدرسة، في موعد انصراف الطلاب، ووجد المدير في انتظاره، جالسًا في عربة الربل، عند البوابة.

ـ تعال إبني سُليمان أفندي، إصعد معي.

يأمر المدير الحوذيّ بالتوجه إلى المكتبة المركزيّة. وهناك يطلب من الطالب المتفوق أن يختار أيّ كتاب يريد، على سبيل المكافأة، مهما غلا ثمنه. يقرأ سُليمان ما يدور في بال مديره ويردّ بأدب:

ـ أُستاذ، لن أقبل بأي جائزة أُخرى.

ـ إبني... أنت نصراني والموصل مدينة محافظة.

ـ لن أقبل بغير المصحف.

يتأثرّ المدير ويربت على كتف الطالب وينصاع لعناده. ينال سُليمان الجائزة المعهودة ويدخل القرآن إلى بيتهم للمرّة الأُولى. كلّما اختلفوا على معنى أو إعراب أو آية احتكموا إليه. ولمّا انتقلوا إلى بغداد رافقهم وأخذ مكانه في أعلى رفوف المكتبة.

١١

واحد يجرّ واحدًا والحبل طويل.

تطوّع عدد من المهاجرين السابقين لمساعدة المهاجرين العراقيين الجدد في تقديم طلبات اللجوء وترجمة الوثائق المطلوبة. يذهبون إلى كنيسة سيدة كلدة يلتمسون الدفء والالتقاء بمن يتكلّم لغتهم. يوقدون الشموع أمام إيقونة أم العجائب ويصلّون لكي تتسهّل أُمورهم. يلقون النظرات الأخيرة على جوازات سفرهم الخضراء قبل أن تؤخذ منهم ويعطون، بدلها، ورقة موقتة تفيد بأنهم ماضون في معاملة اللجوء الإنساني. تأتيني عمّتي بجوازها وتطلب مني أن أُصوّره لها، للذكرى. كأنها تضع في يدي جمرة توقد كل خلايا ذاكرتي.

جواز سفرها جديد وجوازي كان قديمًا ذا غلاف كرتونيّ سميك. أحتفظ به في ملف الوثائق المهمة رغم أن صلاحيته انتهت منذ سنوات. أختام كثيرة في صفحاته تتبع تنقلاتي وتقتفي خطوات زمن مضى. تنعش التواريخ وتواقيع التجديد والتأشيرات ذاكرتي وترميني في حال من فقدان الوزن. أنفلت بعيدًا عن جاذبيّة هذه الغرفة وهذا البيت وأتشبّث بالجواز وأطير مثلما طارت ميري بوبينز مع مظلّتها. أخاف عليه ومنه لأنّ لي معه حكايات لا يعرفها غيري ولا تعيها عمّتي. تشيح بوجهها وتتأفّف من كثرة وصاياي لها بالحفاظ على جوازها والحذر من فقدانه .

أفقد بصري ولا أفقده، هذا الجواز الذي كان هويّتي الوحيدة في هذا البلد ودليل وجودي. أخاف عليه حين أنقله في حقيبة يدي وأخاف عليه حين أتركه في البيت. لا أنسى حالة الفزع التي أصابتني، عندما كنت في دورة دراسيّة في كارديف وأردت، مع زميلات من الهند وكينيا واليونان، أن نزور بروكسل. كان علينا أن نرسل جوازاتنا بالبريد إلى السفارة البلجيكيّة في لندن لطلب التأشيرات ثم تعاد لنا، أيضًا، بالبريد. وهو ما فعلته رفيقاتي بدون تردّد. إنهنّ مواطنات دول طبيعيّة ولا يفقهن "فوبيا الباسبورت". تضع كل منهنّ جوازها في مغلف وتكتب عليه عنوان السفارة وتلصق الطابع وترمي الرسالة في برميل البريد الأحمر وكأنها ترسل بطاقة معايدة. لست مجنونة لأفعل مثلهنّ. لا يفهمن سبب تردّدي. يضحكن

من خشيتي وأضحك لسذاجتهنّ وتدمع عيناي وأهزّ رأسي.

ـ إمبوسيبل.

لـن أرمـي جـوازي في صنـدوق لا أدري مـا في جـوفه وفي عهدة ساع أجنبيّ لا أعرفه ولا أثق في نواياه. إذهبن وسأبقى هنـا، أحـرس هـذا الـدفتر الأخضـر ولا أفـترق عنـه أكثـر مـن الـمسافة بين يدّ تعطي ويد تتسلّم، تتصفّح وتختم وتُعيد. إنّه واحد مـن أنواع خوفي الـمتعـدّد الأشكـال والأسبـاب. وكـنّـا، آنذاك، مُدلّلين في قنصليّات العالم ومطاراته، سيّاحًا ميسورين من دولة نفطيّة. جوازنا غير منبوذ ولا يثير الريبة. لا نقف على أبواب القنصليّات كالأيتام على موائد اللئام.

أرفع الكاميرا الصغيرة وأرجو عددًا من المهاجرين أن يقفوا في صفوف على درج الكنيسة. أطلب منهم أن يـمسكوا جوازاتهم في أيديهم لكي ألتقط لهم صورة جماعية. طلاب شباب وموظفون بلا عمل وكهول متقاعدون وربّات بيوت مع أطفالهن. يرتسم الهمّ على الوجوه ويبتسمون، قسرًا، للكاميرا. أطلب منهم أن يتراصفوا ويقتربوا بعضهم من بعض. أُحاول لـملـمة شتاتهم ولصق خزف أعمار تشظّت. أضع النتوء على النتوء وأفرح حين تتطابق الكسرة مع الكسرة. أكبس على الزرّ ويلـمع الفلاش على سحنات لوّحتها شمس الانتظار. أقول إن الصورة تصلح غلافًا لديواني الـمخطوط، في حال عثرتُ على من ينشره لي.

ـ أنتِ لا تعرفين تفاصيل الحكاية.

لا أعرف سوى الخطوط العريضة. أتقوقع في شقّتي وأتفرّج على أخبار البلد وأكتب شعرًا. أتعامل مع بغداد بالريموت كونترول وأعتبر نفسي وطنيّة. القصائد هي سلاحي الذي لا أُجيد استخدام غيره. ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من صفّ المعاني ونَوْح الحمام على الأطلال؟ حتى الحنين أتمرّن على خلعه فلا أعود معنيّة بالأشواق. لا أودّ العودة إلى هناك ولو من باب العلم بالشيئ. تقطّعت الروابط منذ أن اجتاح الشاشات عراقيون لا يشبهون العراقيين. نهّابون وقَطّاعو رؤوس وعملاء يعلقّون على صدورهم أنواط شبهاتهم. الأقوى بينهم هو الأكثر حظوة لدى المحتلّ. طائفيّون يسألونك عن مذهبك قبل السلام عليكم. لو كان أبي على قيد الحياة لقال بالمصلاوي:

ـ هذولي ما ينسكغ معاهم.

يقلب الراء غينًا فيشتدّ وقع الكلمة وتلتصق بسقف الحلق. هؤلاء لا يصلحون جيرانًا وأصدقاء وندامى. إنّ بيننا نوعًا شديد التعقيد من سوء التفاهم. خطفوا الوطن وتركونا نعلّق مفاتيح بيوت أهالينا على جدران هجرتنا، نحلم بجسر العودة. سنرجع يومًا إلى حيّنا. يذوب الصوت في حنجرة المغنيّة ويموت أبي وتلحق به أمّي وأجتهد لكي أمسح صفحة الحنين. لست مثل هذا اللّاجئ الطازَج الذي فقد والدته العجوز في مُفخّخة وُضعت أمام كنيسة في الدورة. أتبعه إلى الباب الخارجي لكي يدخّن سيجارة تلحّ عليه. أحتاج لأن

أسمع كل التفاصيل. إنها اللّحم الذي يصنع جسد القصيدة وبدونها يبقى شِعري هيكلًا فارغًا ولغتي عصًا عجفاء. يمتصّ الدخان وكأن له ثأرًا مع السيجارة. يرمي العقب ويسحقه بحذائه ويستل جواز سفره من جيب سترته، يلوّح به ثم يضرب به ضربات عصبيّة على كفّه المفتوحة.

ـ هذا الذي كدت بسببه أدخل السجن.

أحالوه على القاضي ولم يكن قد أضاع الباسبورت بل وريقة صغيرة كان ضابط السفر يدسّها في جوازات المسافرين. يخبرني الحكاية وكأنه قد تمرّن على تكرارها لعشرات المرّات، مثل نص مسرحيّ وهو الممثل الأول، البطل والضحيّة، مثلما هي العادة في التراجيديّات الكبرى أو الصغرى. يفتح الجواز على الصفحة الأخيرة ويؤشّر بإصبعه إلى زاويتها العليا. هناك، في ذلك الركن، كبس موظف الضريبة الورقة بالكبّاسة.

لم تكن سوى وصل رسميّ ذي رقم وتاريخ، يفيد بأنّ المسافر قد دفع ضريبة السفر.

ـ ضاع الوصل فساقوني إلى المحكمة.

يقولها ويبصق على الأرض فأمدّ يدي وأُناوله منديلًا. نحن في الطريق العام والبصاق ممنوع. لكنّه يعود ويكرّر لي أنّ الرقم والتاريخ، ذاتيهما، مكتوبان في مكان آخر في الجواز. إنّ وريقة الوصل ليست ذات أهميّة. يمكن أن تُنزع من مكانها، بسهولة، في ظروف التزاحم الخانق للمسافرين والعائدين على شبابيك موظفي الحدود في "طريبيل". ينادي الموظف صاحب

الجواز ثم يلقي له بالدفتر من فوق رؤوس المحتشدين على شبّاكه. تتلقفه عدة أيدٍ قبل أن يصل إلى يد صاحبه.

في أواخر التسعينيات، أراد السفر إلى الأردن لملاقاة ابنته المقيمة في السويد. وذهب لكي يدفع ضريبة السفر المقرّرة بأربعمئة ألف دينار. إبتزاز باهظ لأشواق الآباء والأمهات الذين هجّ أبناؤهم وتفرّقوا في البلاد. لكنّ الموظف رمقه بغضب مفتعل وأعاد له الجواز.

- جوازك تالف.

- شلون تالف يامعوّد؟

قال له إنّ وصل الضريبة الخاصّ بالسفرة السابقة غير موجود. لقد سافر، من قبل، ثلاث مرّات، حسب الأختام المطبوعة. لكنّ عدد الوصولات المثبتة على آخر صفحات الجواز كان اثنين والثالث مفقودًا.

تبدو لي الحكاية مثل متاهة سورياليّة، لكنّ صاحبها ما زال يستشيط غضبًا رغم مرور سنين على الواقعة. إنه غير قادر على نسيان الموقف المهين وما أسفر عنه. وهو قد حاول أن يحافظ على هدوء أعصابه وأن يحلّها بالتي هي أحسن. استفسر من موظّف التأشيرة عن العلاقة بين وصل يعود لسفرة سابقة وبين سفرة لاحقة. لكنّ المنطق لا ينفع في تلك المواقف، والجدل يرفع من متعة الموظّف. إنها فرصته لممارسة سطوته على المُراجع الضعيف. وهكذا لم يبق أمام صاحب الحكاية سوى أن يستقويَ محاولًا سحب الغطاء

لجانبه. رفع صوته ليسمعه جميع الموجودين وطلب الاحتكام للقانون.

ـ تريد القانون؟ خذ القانون.

كان محدّثي يتابع ما يصدر عن الحكومة ومجلس قيادة الثورة من قرارات، وهو يعرف أنّ بنود العقوبات صارت أُحجيّة من الأحاجي لكثرة ما صدر على كلّ قانون من تعديل ثم تعديل على التعديل أو تعديل على تعديل التعديل. لقد كان موقنًا أنّ عقوبة إتلاف جواز السفر لا تتجاوز الدنانير الخمسة. وبعدها يحصل على جواز جديد. لكنّ الموظّف كان يخبّئ في عبّه أرنبًا آخر. تزحلق بمقعده إلى الوراء وابتسم بلؤم. مدّ يده إلى جارورٍ جانبيٍّ وأخرج قرارًا غير معلن ولم يسمع به أحد، يحيل عقوبة إتلاف الجواز إلى عناية سكرتير رئيس الجمهورية. وأصدر السكرتير أوامره برفع العقوبة إلى السجن لمدّة سنة مع غرامة ماليّة.

أرسلوا المتّهم إلى المحكمة ومعه متّهمون آخرون بإتلاف جوازاتهم. عنوان تهمتهم، حسب أوراق الدعوى: "فقدان ليبل". المفردة مأخوذة عن الإنكليزيّة وكتّاب المحاكم لا يعرفون معناها. يلفظونها "فقدان نبيل". تأتي معاونة القاضي وتنظّم صفوفهم، مثل تلاميذ المدارس، وتدخلهم عليه. لا يسألهم القاضي أيّ سؤال. توشوش المساعدة في أذنه بشيئ ما فيأمرهم بالانصراف. وعندما يصبحون خارج القاعة، يقال لهم: إنّ حكمًا بالسجن لمدّة سنة قد صدر عليكم. تعود

معاونة القاضي وتتفاوض معهم، على الواقف. تطلب من كل محكوم تمّت إدانته بفقدان نبيل خمسين ألف دينار.

يضحك صاحب الحكاية ثمّ يبصق على الأرض ثمّ يعود للضّحك. يتأمّل السماء وكأنّه لا يصدّق أنه صار في باريس. يشعل سيجارته الرابعة ويقول إنه عاد وتفاوض، جانبيًّا، ونجح في تخفيض الرشوة إلى ثلاثين ألف دينار وتغيير الحكم. الحبس مع وقف التنفيذ.

بأيّ مرارة أنقع أشلاء هذي القصيدة؟

١٢

كلّما ضاق صدرها حملت نفسها وتعنّت للذهاب إلى العلويّة شذرة. صارت زيارتها طقسًا ترفيهيًا يختلف عن مخالطتها الرسمّية لزوجات الأطبّاء وكبار الضبّاط والموظّفين. كأنّها تسافر إلى كوكب فيه من الروحانيّة قدر ما فيه من طين هذه الأرض. العجينة التي جُبل منها بنو البشر. وديوان البيت الكبير المُشيّد بالطابوق الأصفر مُضاء بالمصابيح حتّى في ساعات النّهار. هذي أراضي أمير عشائر ربيعة. ولمّا بنى قصره فيها جاء بالمولّدات الكهربائيّة له ولبيوت فلّاحي الناحية. لم تكن كهرباء الحكومة قد وصلت إلى المنطقة.

تذهب إليها في ساعة العصر، بعد انتهاء عملها في المستشفى، وتجلس بقربها على الأرض. لا تتربّع كبقيّة

الزائرات بل تطوي ساقيها تحتها جانبًا، مثل الممثلات اللواتي تشاهَد صورهنّ في مجلّات الست لوريس. ثم تتعب من الشّياكة وتمدّ ساقيها وتترك جسدها يستريح على الوسائد المستطيلة الكثيرة المغطّاة، في وسطها، بقماش أبيض ناصع يحمي وجوه الساتان ذات الألوان الحمراء والزرقاء الفاقعة. تتمدّد في إحدى الزوايا وتترك العلويّة تقضي حاجات زائراتها. تصبح واحدة منهنّ، جنوبيّة لم تأخذ من الموصليّات شقرة ولا حمرة. تشرب الشاي الذي لا يضاهيه أيّ شاي آخر. أطيب من شاي جبّوري حارس المحطّة، المُصبّر ليلة كاملة على الصوبة.

ـ علويّة... ما السرّ في شايك؟

تضحك المرأة المبروكة كاشفة عن سنّين ذهبِيّين فتغور غمّازتاها عميقًا في وجنتيها.

ـ إنه شاي العبّاس يا دختورة.

والعبّاس أبو راس الحار ليس غريبًا عليها. ولا باقي الأئمّة والأولياء الذين يتبرّك بهم الأهالي ويلهجون بذكرهم. من يجرؤ على أن ينقض قسمًا بالعباس؟ أسماء تتردّد في تضرّعات الحوامل عندما تحين تلك الساعة التي ما مثلها ساعة. يأتيهنّ المخاض ويشعل الطلق مجسّات أعصابهنّ. يستنجدن بحيدر نصيرًا لهنّ على الوجع الذي يفلق أسفل الظهر. يقعن دخيلات على الحمزة الذي يرقد عندهم في الديوانيّة. يَنذرن أن يوزّعن خبز العباس بعد انقضاء الشدّة.

عنّ لها، ذات يوم، وهي ترى العزّ الذي تعيش فيه العلويّة، أن تسألها كيف تنفق، في مجلسها، بكلّ تلك الأريحيّة. إنّها لا تتقاضى سوى درهم من كلّ زائرة تقصدها لدعاء أو حجاب. تتمهّل المرأة الحكيمة وتدير السؤال تحت أضراسها لتتأكّد من براءته. لا يمكن للدكتورة الطيّبة أن تحسدها على النعمة. تمدّ يدها المزيّنة بالخواتم وتفرك السبّابة بالإبهام كمن يحصي نقودًا.

ـ درهم فوق درهم... ويجي الذهب والبيت والسيارة.

بعد سنوات، ستعود كلمات العلويّة شذرة إلى بالها، حين تفتح عيادتها الخاصّة وتحدّد أُجرة المعاينة بربع دينار، خمسة دراهم والفقيرة ببلاش.

أكتملت صالة التوليد ودار صاحب الميكروفون يعلن عنها في أرجاء المدينة كلها: شارع عريض مُبلّط كيفما اتفق وأزقّة مترّبة وطريق تحاذي النهر. يدور ويصيح والحوامل يفضّلن أن يلدن في البيوت، مثلما ولدتهنّ أُمهاتهنّ، على أيدي الجدّات والقابلات الشعبيّات. لا ينقل الرجل زوجته إلى المستشفى إلا إذا تعسّر أمرها وفشلت القابلة في إنهاء المهمّة. وقد تعبت الدكتورةورديّة من استقبال نساء موشكات على الموت بعد أن نزفن وانهدّت قواهنّ. أجنّة تخرج إلى النور زرقاء مختنقة وثواكل تكوي الخيبة قلوبهنّ. تأتيها المريضة في

حالة حرجة وتحتاج لعمليّة قيصريّة. لكنّ الأهل يرفضون أن تتمّ العمليّة في الديوانيّة ويقرّرون نقلها إلى مستشفى الكوفة. هناك، كان الدكتور عبدالأمير معروفًا لهم، له من العمر والخبرة ما يوحي بالإطمئنان.

تقف في الباب تودّعهم وتدعو لهم بالسلامة. في يدها ورقة يقرّ فيها الزوج بأنّه يتحمّل مسؤوليّة نقل المريضة وما قد يحدث لها في الطريق. يبصم ويلفّ عباءته تحت إبطه ويمضي على عجل. وتبقى في صحبة القلق والإحباط. تمنّت أن ترى الأسرّة الجديدة مشغولة بالنفساوات وصرخات المواليد تصعد من المهود الفارغة. لكنّها احتاجت إلى وقت لتكسب ثقة الأهالي. أُناس بسطاء لا يصدّقون أن في مقدور هذه الشابّة النحيلة أن تجري عمليّة وتشقّ بطنًا. ولم يكن زميلها إدوار، الجرّاح المقيم الذي كان استاذًا لها في السنة الجامعيّة الثانية، يميل للتوليد والعمليات النسائيّة. حتّى لو مال، فقد كانت المسلمات يتحرّجن منه.

جاء عيد الميلاد وعادت في أُولى إجازاتها إلى بغداد. إرتمت في حضن والدتها وبكت. البكاء ديدنها. طبع ووحمة ولاديّة. هواية وِولع. دموعها لا تغيّر في الأمر شيئًا ولا تحرّك ساكنًا. تربّت أم سُليمان على رأس ابنتها الصغرى وتخترع لها المُصبّرات.

ـ بالأوّل مثل القندرة الجديدة. تحصر الرجلين. بعدين برتخي الجلد وترتاحين.

يرتفع نشيجها لأنّ والدتها من أهل اللّه، تشبّه مهنتها النبيلة بالحذاء. سيكبر الطبّ وتتعوّد عليه. تُضحكها الصورة فتمسح عينيها وتحاول أن تتفاءل. إنه زمن الميلاد والبشارة. وغدًا سيكون أفضل من اليوم. تغسل وجهها وتنزل مع كمالة وجولي إلى السوق وتشتري معطفًا جديدًا أخضر اللون. تعود إلى الديوانيّة وهي أكثر أناقة، تعلّق معطفها على المشجب وترتدي الصدريّة البيضاء وتنتظر مجيء المريضات.

تتغيّر الأمور، على مهل، ويتمدّد جلد الحذاء.

تستدّل خطواتهم عليها حين يحتاجونها. يذهبون إليها في المستشفى فتعالج نساءهم وأطفالهم ويخرجون ممنونين. تفعل بركة العلويّة فعلها وتسري توصياتها، من شفة لأذن، بين البيوت وفي الأرياف القريبة. وكان لابدّ من أن يحبّها أهل الديوانيّة، مع الوقت، ويثقوا بها ويحترموها رغم أنّها كانت أوّل امرأة تمشي سافرةً في الشوارع بدون عباءة. تعمل مع الرجال في المستشفى و تتجوّل في السوق بمعطفها الأخضر كاشفةً عن شعرها اللّامع المرفوع في إضمامة فوق الرأس. ينهض الباعة احترامًا ويفسح الصبية وأصحاب عربات الحِمل لها الطريق. تمرّ أمام مقهىٍ شعبيّ فيخفت الضجيج وتمتدّ يد إلى الراديو لتخفض الأغنية. يتوقف الزبائن عن لعب النرد وتلتفت الرؤوس نحو الشارع. تجمد الأصابع على استكانات الشاي وتلبد لفافات السكائر بين الشفاه. يتهامسون: هاي هي الدختورة الجديدة.

١٣

لـم يـعـرف رأس ورديّـة الـعـبـاءة سـوى مـرّة واحـدة، يـوم ذهبت مع كمالة وخطيبها إلى النجف لشراء سجّادة عجميّة. عباءة من قماش ثقيل أملس ينزلق وينزل على كتفيها ويسحل فتتعثّر به. ترتبك ولا تعرف كيف تواصل سيرها في السوق. لقد رأت والدتها ترتدي العباءة السوداء عندما كانوا في الموصل، وكذلك كمالة وجولي. أمّا هي فكانت طفلة. ولـمّا انتقلتِ العائلة إلى بغداد ذهبت الى المدرسة الإبتدائية بضفيرتين سافرتين، مثل رفيقاتها.

خابر سُليمان صديقه آمر موقع الديوانيّة وأخبره بأنّ شقيقته قد تعيّنت طبيبةً عندهم. سأله:

ـ هل عليها أن ترتدي العباءة؟

ـ لو كانت لي إبنة تخرّجت دكتورة فلن أُغطّيها بالعباءة.

أخذ شقيقها برأي صديقه الآمر، سليل الأُسرة المحافظة، واقتنع بأنّ المركز الاجتماعيّ للطبيبة ونوع العمل الذي تؤدّيه يعفيانها من العباءة. ولما حلّت في المدينة، شملها الضابط الكبير برعايته وصارت صديقة لزوجته. عشرة طيّبة دامت طويلًا ولم تنقطّع إلّا بعد أن تدهور البلد وانحدر نحو الفجوة السوداء. صار الرجل وزيرًا، بعد الثورة، ثم راح بين العشرات الذين ثقب الرصاص صدورهم في ساحات الإعدام.

في بغداد، تركت ورديّة الفساتين الصيفيّة التي تكشف عن

ذراعيها. ذهبت عند الخياطة وأعدّت قميصين، أسود وأبيض، ترتديهما فوق ثيابها في الديوانيّة. لم تكن متمرّدة ولا متبجّحة ولم يقلقها أن تنتقل من بيت عائليٍّ دافئٍ إلى السكن في القسم المخصّص لإقامة الممرّضات. غرفة في المستشفى لا تتّسع لأكثر من سرير ودولاب حديديٍّ. وهي لم تنزل، في الأشهر الأُولى، إلى الشارع إلّا نادرًا، عندما يأتون في طلبها للكشف على مريضة في مكان قريب تمشي معهم أو تركب العربانة التي يجرّها حصان، قبل أن تشتريَ سيّارة.

ظلّ لقب الدكتورة غريبًا على أُذنها، لفترة، حتى اعتادت عليه. تحب لهجة الريفيّين وهم ينادونها: دختورة. درست الطبّ على مضضٍ ولم تختره. أجبرتها الأُسرة عليه عندما أنهت الثانوية وحصلت على معدّلٍ عالٍ. قالوا لها ستكونين طبيبة ولم يسمعوا رأيها. ذهبت وداومت في صفّها ولم تحبّ الدروس. كانت موادُّ السنة الأُولى عذابًا خالصًا. تعود من الكليّة إلى البيت لتبكيَ وتتوسلَ ألا تعود إليها في اليوم التالي. تنتحب وتريد أن تكون معلمة، مثل شقيقتيها. تقول لهم إنها سترسب في الطبِّ ويضيع مستقبلها. يضحكون ويشفقون عليها من سذاجتها. ماذا يعني، في أواخر الأربعينيّات، مستقبل فتاة ستتزوّج في نهاية المطاف وتجلس في البيت لتربِي الأولاد والبنات؟

تقوم الصّبح وتشعل شمعة أمام صورة العذراء وتمضي إلى الباب المعظّم وبوزها شبر. تدلف من بوّابة الكليّة، لصق

المستشفى الملكيّ، وتشعر بأنّها مسكينة ومظلومة وذاهبة إلى مأتمٍ . تدخل إلى الصف وتدرس رغمًا عنها وتنهي السنة الأُولى الحاسمة. من يفشل فيها يترك الطبَّ إلى أيٍّ كلّيّة أخرى. لكنها تنجح وتتثبّت في دراستها ولا يعود أمامها مجال للفرار.

معها في الصف عشرات الطلاب وثلاث عشرة طالبة، لم تبق منهنّ عند التخرّج سوى ثمان. مارسن المهنة ولم تتسرّب أي منهنّ إلى وظيفة مكتبيّة وإداريّة، حتّى بعد أن تزوّجْن وصرن أُمّهات. أحببن الطبَّ وخدمن المرضى حتّى التقاعد، وحتّى الموت، بدون تهاون. تتفرّج على الصّور التي احتفظت بها من أيام الكلّية فيُخيّل لها أنّها التقطت في كوكبٍ آخر. شابّات بشعور قصيرة مُسرّحة أو مُجعّدة، وفساتين بدون أكمام، يقف ذيل تنوراتها الكلوش عند الركبة. ملابس كانت تعتبر محتشمة وتساير موضة الخمسينيّات كما تبدو في المجلّات النسائيّة الواردة من القاهرة. وفوق الفساتين تلبس الطالبات الصدريّة الطبيّة فتضفي عليهنّ هيبة خاصّة. ومن بينهنّ جميعًا، كانت هناك واحدة تلبس العباءة في الشارع ثم تخلعها عند دخولها الصف.

ـ آنسة، هل تسمحين لي بأن أنضمّ إلى مجموعتك؟

شاب غريب يوجّه لها الحديث، لأوّل مرّة، خارج إطار العائلة. يتورّد وجهها وهي تخالط زملاءها وتتبادل الأحاديث معهم. ليسوا وحوشًا ولا شياطين. يراجعون دروسهم سويّة في

مجموعات تتألّف من أربعة أو ثمانية. تقف البنات مع البنات لكنّ استاذ التشريح يتعمّد أن تكون المجموعات مختلطة. يريدهم أن يعملوا بجدّ ولا تتلهّى الطالبات بالأحاديث الخاصّة التي تدور بينهن، أو الطلاب بما يدور بين الشباب في تلك السن. وعند طاولة التشريح، أمام جثّة قاتمة، تتعرّف ورديّة على كلير، الطالبة المتفوّقة التي حازت الأولوية في ألوية الجنوب ودخلت الكلّية الجديدة لطبّ الأسنان. إنّ كليّتها لم تفتتح، بعد، وهي تداوم مع طلاب الطبّ في السنة الأُولى.

كلير الجميلة، ابنة أخ مطران البصرة، لفتت الأنظار ببياض بشرتها وعينيها الزرقاوين وخلّفت وراءها أكثر من متيّم. نالت لقب فيفيان لي بغداد، بطلة ذهب مع الريح الجريئة المقدام، لكنّها كانت تخاف من الحشرات ولا تطيق لمسها. حاول زميل لها أن ينتقم من صدودها فجاء بضفدعة مُخدّرة ورماها في جيب معطفها. ولمّا انتهى الدوام ارتدته لتخرج، مدّت يدها إلى جيبها فعثرت على الضفدعة وبدأت تصرخ بهستيريا، دون أن يعرف الآخرون السبب. كانت تلك حادثة مشهودة تناقلها طلّاب صفها والكلّيات الأُخرى ووصلت إلى صفحات الجرائد. وفي آخر المطاف تركت كلير دراستها وعادت إلى البصرة لتتزوّج وتهجر التشريح وتواصل جمالها.

ورديّة رقيقة الطبع لكنّها تتآلف، تدريجيًا، مع الطبّ وتتقدّم في دراستها ولا تخاف الحشرات ولا الكلاب ولا الجثث. تمدّ يدها إليها وتقلّبها وتفحصها وتنبش في أحشائها وتتعلّم

ما يمكن للأموات أن يلقّنوه للأحياء. يغلّف الهدوء الظاهريّ أحواض الجثث في مشرحة المستشفى الملكيّ بينما يغلي العراق والمنطقة كلّها بأحداث جسام. فقد كانوا في سنة تسقيط الجنسيّة عن اليهود. من يرغبْ منهم بترك البلد فليذهبْ حيثما يشاء شرط ألّا يعود إلى هنا. وفي تلك السنة لم يُقبل في الجامعة أيّ طالب يهوديّ. أما من كانوا في الصفوف المتقدمة فواصلوا الدراسة في أجواء من الجدل والاحتدام والصراع الذي يدور خارج الصفوف.

غرقت ورديّة في المنهاج الدراسيّ ولم تتحمّس للسياسة، هي التي كانت تتحدّث باسم الطالبات، في المدرسة الثانويّة، وتقود المظاهرات التي تنزل إلى شارع الرشيد ضد الإنكليز ومعاهدة بورتسموث. تطلب السماح من سُليمان فلا يعترض. الكلّ مشدود للمعركة الوطنيّة، نساء ورجالًا، تقدميّين ومحافظين، شِيبًا وشبّانًا. تخرج مديرة المدرسة ومعلّماتها ويمشين في الصفوف الأولى من المظاهرة ويشاركن الطّالبات الهتاف.

في الثانويّة تعرّفت ورديّة إلى معاني حبّ الوطن. وكان في صفّها أربع طالبات مسلمات واثنتان مسيحيّتان وسبع عشرة يهوديّة. إنها المكلّفة بجمع التبرّعات لضحايا المظاهرات من الطلبة الجرحى برصاص الشرطة. لا تتأخّر في الذهاب إلى اليهوديّات فيتبرّعن، مثل الأُخريات، على مضض أو عن طيب خاطر. أحبّ اليهود موطنهم الذي وفّر لهم عيشة طيبة وكانوا

يعرفون أنّ التوراة كُتِبَت في بابل. ولم تكن الصراعات السياسيّة، في تلك الفترة المبكرة، قد أفسدت النسيج الاجتماعيّ البغداديّ.

تأتي زميلاتها المسلمات واليهوديّات لمعايدتها في عيد القيامة. يجلسن في غرفة الخطّار مثل الكبار. يشربن الشّاي ويأكلن الكليجة. تدور بينهن أحاديث لطيفة يقطعها، فجأة، صوت أخيها يونس زاعقًا من وراء الباب:

ـ ورديّة... قومي احلبي البقرة.

ولم تكن في بيتهم بقرة لتُحلب لكنّه الأخ الذي يشاكسها دائمًا ويريد أن يحرجها أمام رفيقاتها. يغبطها على تفوّقها ويوجّه لها الأوامر ويلاحقها بالتعليقات رغم أنها المفضّلة لديه بين شقيقاته. كان موهوبًا في الفنّ والتصميم، لا يتأخّر عنها حين تطلب مساعدته في درس الرسم. معلّمة الفنون هي زوجة شقيقها سُليمان التي كانت تنتظر طفلها الأوّل. تأتي مرهقة من المدرسة في الظهيرة وتدخل إلى المطبخ لتعدّ الطعام للعائلة. تدفع بأوراق التلميذات إلى زوجها ليساعدها في تصحيح الواجب. يراجع سُليمان ما رسمته الطالبات ويصل إلى ورقة ورديّة. يعرف أنّها تغشّ وأنّ يونس هو الذي أنجز الواجب. يمنحها صفرًا ويشطب على الورقة ويكتب في أعلاها: إعتمدي على نفسك.

قبل أشهر من إنهائها الثانويّة، مات والدها فلم يعرف أنّ صغرى بناته ستحصل على درجات عالية وستصبح طبيبة.

ولا هي كانت تعرف. وعندما كانت صغيرة، طلبت المعلّمة منهن في درس الإنشاء أن يكتبن موضوعًا بعنوان: "ماذا تريدين أن تكوني في المستقبل؟". عادت ورديّة إلى البيت وكتبت بأنها تريد أن تصبح معلّمة. لكنّ سُليمان، الذي كان العين التي تراجع كلّ شيئ، لم يعجبه جوابها وأمرها بأن تكتب أنّها تريد أن تكون طبيبة. رفضت وسالت دموعها فأخذها في حضنه وهو يقول:

ـ هل صدّقت أنك صرت دكتورة؟ إكتبي أيّ شيء واللّه كريم.

كتبتْ مثلما أراد. وتحقّق الإنشاء ودخلت كلّية الطبّ، مبنىً عتيق يمور في داخله نشاط سياسيٌّ محتدم وتنطلق شعارات ملتهبة تصل إلى بقيّة الكلّيّات. إنّ الهتافات والتبرعات والأناشيد الوطنية البريئة التي تعلّمتها في الثانويّة تتحوّل، هنا، إلى أفعال خطيرة ومحظورة. تطرق سمعها لفظة النشاط الهدّام وتفهم أنّ المقصود بها هو الشيوعيّة. وكان الشيوعيّون والشيوعيّات من زملائها يقودون الاحتجاجات وينظّمون الإجتماعات السرّية. وبينهم من فُصل من الدراسة، وهو في السنة الثالثة، بسبب نشاطه السياسيّ. حُرم من أن يصبح طبيبًا وغادر الكلّية.

تدفن ورديّة رأسها في الكتب العلميّة السميكة المقرّرة عليهم وتتحاشى السياسة. تخشاها وتخاف عواقبها. ولم يكن واردًا أن تهتمّ بأبعد من مقتضيات دراستها. إنّ شقيقها

سُليمان سيقطع عنقها لو سمع أنها ذهبت إلى اجتماع سرّيٍّ أو انتمت إلى حزب محظور.

ـ نحن مؤمنون والشيوعيّة دين كفر.

ـ زعيمهم مسيحيّ، يا أخويي، وهم يدافعون عن الوطن.

ـ إنصرفي إلى دراستك. شويّة فوضويين يخرّبون استقرار البلد بحجّة الدفاع عنه.

تعود إلى كتبها وإلى قاموس اللغة الإنكليزيّة وتقرأ وهي تبكي لأنّها عاجزة عن استيعاب كلّ تلك التسميات والمصطلحات المعقّدة. تعاف نفسها الأكل وتنام وهي جالسة ويتهدّل رأسها على الكتاب. تدخل عليها والدتها وتغطّيها وتعود بالصحن إلى المطبخ، ولم يُمس. تكتئب في أوقات الامتحانات وتشعر بأنّ المعلومات تتبخّر من رأسها. تطير ولا يتقبّل عقلها المزيد. يرتفع نشيجها فتبكي والدتها معها وتضرب بكفّها على فخذها وتصيح بأهل البيت:

ـ ظلمتم البنت يا ظلّام وهي مثل عود الشخّاط... مصويّي وما تتحمّل...

لكنها تحمّلت وانطلقت في الدراسة حتى أنهتها. كان وزنها خمسين كيلوغرامًا عندما دخلت إلى الكلّيّة، ولمّا تخرّجت زاد ثلاثة أُخرى.

١٤

ـ ماما، أليس في عائلتكم أسماء غير اسكندر؟

لا يفهم الولد كيف أنه يحمل آسمًا يشاركه فيه نصف رجال العائلة، من مات منهم ومن سيولد. وهو عندما يفتح الكومبيوتر ويدخل على فيسبوك يجد أبناء الأعمام والأخوال مصفوفين مع صورهم وآخر أخبارهم، يطاردونه ويهيلون عليه عواطفهم الحارّة. واحد في سياتل، واثنان في أُوكلاند، وواحدة في جرمانا، وعشرة في ديترويت. ما الذي طيّرهم إلى هناك؟ باستثناء الاسم، فإنّه لا يحس بأيّ رابطة تشدّه إليهم. هذا ابن عمّة كمالة وذاك حفيد العمّ يونس والسلسلة لا تنتهي. أقارب أغراب. لن يفلح في أن يتآلف معهم وكلّ واحدٍ منهم يقيم في قارّة. لا يكفي الفيسبوك لكي ينتمي إليهم ويتواصل معهم كما تتمنّى والدته وتلحّ. إنّ العائلة، كما يعرف، هي مجموعة متشابهة تسكن بيتًا واحدًا. يكبر أفرادها سويّة وينفقون من جيب مشترك. يأكلون على مائدة واحدة ويتقاسمون الرغيف ويتزاحمون على مرحاض واحد ويتبادلون الهدايا في عيد الميلاد.

ـ ماما، لماذا يتشارك ابن العمّ مع ابن الخال في اللقب نفسه؟

ـ لأنني وأباك من العائلة نفسها، واسكندر هو جدنا الكبير الذي ولد في الموصل، أيام الدولة العثمانية. أنت تعرف أين تقع الموصل؟

ـ في شمال العراق وتُسمّى أم الربيعين. سَمعتها منكِ مليون مرّة.

مساء الجمعة، تأخذ والدته السيّارة وتذهب إلى ضاحية كريتاي وتعود ومعها ورديّة. تبقى العمّة الكبيرة عندهم يومي العطلة. لا تحكي كثيرًا لكنّها تثير فضوله وهي تتطفّل على شاشة الكومبيوتر ويبدو عليها أنّها تفهم ما ترى وتقرأ ما يكتب. لماذا تحاول أن تقرأ وهي لا تعرف الفرنسيّة؟ إنه لا يصدّق أنّها طبيبة ويقول لنفسه إنها ربما كانت تداوي بالأعشاب. تسقي النساء شراب اليانسون والنومي بصرة وتطرد البرد من بطونهنّ. تفرك صدور الأطفال بالفيكس وتمسح على جباههم بزيت الزيتون. إنّ ابتسامتها معلّقة، دائمًا، على الطرف الأيسر من فمها. لكنّها تبدو له مهمومة وغير مرتاحة.

ـ هل تعرف يا اسكندر لماذا أُحبك كثيرًا؟

ـ لأنّكِ أنتِ التي مَلّصْتني من بطن أُمّي.

تتسع شبه الابتسامة وتتحوّل الى ضحكة. تكركر وتغصّ وتدمع عيناها وهي تسمع تلك الكلمة من فمه. يتصور أنّها ستمسح دموعها وتقول اللّهم اجعله خيرًا، مثلما تفعل والدته بعد كلّ نوبة انشراح. لكنّ العمّة لا تعتذر عن ضحكتها بل تشطب الحاضر وتعود باسكندر إلى سرداب بيت العائلة في شارع الهنديّ في الكرّادة. تؤكّد له، وهو لا يُصدّق، أنّ والدته كانت مريضتها الأُولى.

ـ ماما كانت مريضة؟

ـ لا، سلامتها، كانت دميتي المطيعة... لعّابتي.

إعتادت، وهي طالبة طبّ، أن تُطبّق ما تتعلّمه في الكتب على كائن حي. والكائن المذعن المتوفّر تحت يديها هو إبنة شقيقها.

ـ لم يكن عمر أُمّك أكثر من ستّ سنوات. لكنّها كانت قادرة على تمثيل دور المريض النموذجيّ.

يفهم لهجتها العراقية لكنّه لا يعرف معنى النموذجيّ. يستمع إليها ولا يضجر من قصصها. تحكي له كيف كانت أمّه تستلقي على الحصيرة، في سرداب البيت الرّطب، حين ينزلون إليه صيفًا هربًا من الحرّ. تتمدّد وتطيع كل ما تطلبه العمّة. تضع السماعة الطبّيّة على صدرها الرقيق. خُذي نفسًا عميقًا. أسعلي. إقطعي النفس. تمدّدي جانبًا. أسعلي من جديد. والدمية الصغيرة تسعل وتتنفّس وتتقلّب ولا تشتكي. فلما كبرت وحبلت وتمخّضت، إنتقمت من كل ذلك الصبر الطفوليّ وشقّ صراخها عنان المستشفى.

ـ كنت أرتجف من الخوف وأنا أُحاول أن أسحب رأسك من رحمها. هل تعرف الآن لماذا أُحبك كثيرًا؟

ـ لأنّك مَلصتني.

يستعيد صوت العمّة صباه وهي تنفض سجّادة العمر

فيتساقط غبارها على الولد المراهق. يرقّ ويرنّ ولا يعود الصوت لامرأة في الثمانين. يحدث أن تضع الهدوء جانبًا وتتكلّم باستضافة وتدفّق وهو يستمع ويهزّ رأسه عجبًا. يرى أفيالًا تطير وسعالى تتوالد ونساء خجلاوات بعباءات سود ورجالًا بغترات مبقّعة بعرق الجباه وحوريات بحر يخرجن من بين شفتيها المفوّهتين. نصف الحكاية شابّة حلوة ونصفها الأسفل سمكة ذات ذيل مُنفرج، تلبط في الماء، على موج الشاطئ البعيد الذي لم يصل إليه.

بحكاياتها، تقرّبت ورديّة من اسكندر وردمت المسافة التي يضعها بينه وبين من يطرأ على روتين حياته. لم تطلب منه شيئًا ولم تصرفه عن هوايته. كانت تكتفي، أحيانًا، بأن تتطلّع إليه ساهمة وهو مُنغمر في شاشته، يجوب عوالم لم تُتح لها. لكنّ ابتسامتها المجتزأة تُشعره بالذنب، وكذلك الشجن المقيم في عينيها. لا يدري لماذا يتحمّل ذنبها. هل تضيق العمّة بالصمت الذي كان قانونًا يسري في بيتهم؟ الأب يقف طوال اليوم في مطعم الفلافل والأمّ تنزوي لتكتب كلامًا لا يفهمه. تدخل إلى صفحات ماري كلير ولا تخرج منها حتى يصدر عدد الأسبوع التالي. والولد يجاري قانون الصمت، يضع السمّاعات على أذنيه ويغرق ما بين شاشته وموسيقاه. لقد تعلّم، منذ أن جاؤوا به طفلًا إلى هذا البلد، أن العمارات الباريسيّة محكومة بالهدوء وأنّ الجيران يكرهون الضوضاء.

ـ لا تتكلم في الممرّات يا ابني.

لا في الممرّات ولا قرب صناديق البريد ولا أمام المصعد ولا عند حاويات القمامة. ولا تصفق باب الشقّة بل تشبّثْ به، وراءك، حتى يلفظ نفسه الأخير بمنتهى الأدب. الكلّ يمارس رياضة الهمس وراء الأبواب المغلقة والمحصّنة بعدة أقفال مدعّمة بأشياش عموديّة وإطارات من حديد. إنه لا ينسى كيف أنّ جارة لهم استدعت البوليس لأنّ أباه كان يصرخ في الهاتف وهو يتحدث مع أخيه في بغداد. وبغداد بعيدة والأب يريد أن يوصل كلامه حرفًا حرفًا. ما زال يذكر، أيضًا، ذلك اليوم الذي تلقّت فيه أُمّه خبر وفاة والدها، بالتلفون أيضًا. اضطرّ أبوه لأن يضع كفّه على فمها لكي لا تلمّ عليهم شرطة باريس كلّها.

كلّ سبت وأحد تجمع شقّتهم ثلاثة صامتين وعمّة عجوزًا تزعم أنها لا تسمع جيّدًا. تطلب منه السمّاعات لكي تتابع المسلسل الكويتيّ عبر فضائيّة أبو ظبي. تقرّب كرسيّها من الشاشة وتتحفّز في جلستها مادّةً رقبتها إلى الأمام.

ـ شوف، هذي الممثّلة اسمها شجون. تشبهني عندما كنت شابة.

حتّى التلفزيون عندهم صورة بصوت خفيض، والهاتف الكبير يرّنّ بنداء مبحوح، والهواتف الصغيرة ترتجف في الجيوب، والساعة المنبهة تدقّ ضوئيًا، وهو ينام ويتأخّر عن المدرسة لأنّه سهر الليل في تصميم مواقع لأصدقائه على النت مقابل مبالغ مُتّفق عليها. لن تفيده المدرسة في هذا الزمن. ها هو

أبوه يجلد نفسه بتعليق شهادة الدكتوراه على حائط المطعم، فوق المقلاة العميقة للفلافل. أمّا أُمه التي تؤكد أنّها كانت شاعرة تنتظرها الشهرة لو بقيت في بغداد، فإنها تمضي نهاراتها في قراءة المجلّات النسائيّة وأُمسياتها في تدبيج رسائل إلى أُناس بعيدين، لعلهم ماتوا وشبعوا موتًا. إنها ما زالت تكتب، أحيانًا، قصائد تصرّ أنها ستأخذها إلى المجد.

كان يبحث عن كبّاسة الأوراق حين عثر على دفتر بنفسجيّ سميك يلفت النظر في درج والدته، وعلى غلافه كلمة بالعربيّة لم يفهمها. وحين سألها قالت إنّه ديوانها الجاهز للطبع.

ـ ما عنوانه؟

ـ طشّاري.

ـ يعني؟

ـ بالعربيّ الفصيح: تفرّقوا أيدي سبأ.

ـ يعني؟

ـ تطشّروا مثل طلقة البندقية التي تتوزّع في كل الاتجاهات.

ـ ماما، هل تكتبين أشعارًا عن الأسلحة والرصاص؟

ـ إنهم أهلي الذين تفرّقوا في بلاد العالم مثل الطَلق الطشّاري.

"طشّاري ماله والي". تردّد وهي تنوس في جلستها فيتهدّج صوتها لكنها تتماسك وتضحك لكي لا تبكي. أما هو

فلم يكن يعرف من هو الوالي المقصود ويؤثر ألّا يسأل. إنّ أسئلته تحرّك البحيرة الآسنة المتوارية وراء ابتسامتها. هناك بحيرات آسنة، وراء كل واحد من هؤلاء الكبار، ومن الأفضل ألا يلقي فيها حَجرًا. عندها تتسرّب أنفاس مُبهمة وشريرة ومُنفِّرة.

حتى هو كانت له بحيرته الداخليّة المسوّرة. يثور ويحتجّ حين يتسلل أبوه إلى حجرته ويتلصّص على ما فيها. يسمع أُمه تصيح وترجو الأب:

ـ إطلع لخاطر الله من غرفة اسكندر وسدّ الطهارة.

تعلّم أنّ الطهارة هي التواليت. ومثلها المرحاض. ومثلها الخلاء. ومثلها الأدب. تستغرق أُمّه في الضحك وهو يكرّر أمامها كل تلك المحفوظات. إنّه يُفضّلها ضاحكة منشرحة، ولو على سبيل المجاملة. يُقدّر صلابتها الظاهريّة وبشاشتها وقبضها على الثور من قرنيه. يحبّها كثيرًا ويخاف عليها من انهيار الواجهة. أما العمّة، فلم تكن لها تلك القوّة. ولعلّ تقدّمها في السنّ زاد من همومها. وهي حين تصمت ويشرد ذهنها، يرتسم على وجهها قناع الحزن الأبدي. مثل "بييرو دو لالون"، الشخصيّة الخرافية. يتهدّل حاجباها وزاويتا فمها وكأنها ستبكي في أيّة لحظة. موزة مجعوصة منزوعة من قشرتها عنوة. هل كانت جميلة في شبابها وتشبه تلك الممثّلة؟ إنّ قامتها منحنية قليلًا لكنّ البياض لم يزحف على كلّ شعرها. تقصّه قصيرًا مثل راهبة راضية بمحو أُنوثتها. يتصوّر اسكندر أنّ

تسريحتها تتطابق وسيرتها. إنّ من تشتغل بالطب وتشق البطون وتقصّ حبال السُرر وتكفّن الأجنّة الأموات، لابد وأن تصل إلى منطقة ملتبسة تتعدّى الأنوثة. تأتي إليهم فينفتح خزّان الأسئلة في عقله. لا يفهم لماذا تبدو العمّة ورديّة مهمومة رغم أنها خرجت سالمة من بلد يموت الناس فيه مثل الذباب.

ـ عمّة، ألا تحبّين باريس؟

ـ أُحبّها لكنني لا أُريد أن أموت هنا وأُدفن في فرنسا.

ـ هاي هيّ المشكلة؟

كلهم يحبّون فرنسا لكنهم يريدون أن يُدفنوا هناك. في البلدان التي جاؤوا منها. لقد باعت والدة صديقته كلثوم أساورها الذهبيّة لكي تشحن زوجها المتوفى من باريس إلى تونس وتدفنه في جندوبة. ولم يكن اسكندر قد سمع بتلك المدينة من قبل. لكن كلثوم ذهبت معهم إلى هناك وعادت ومعها هديّة له. قنينة من زيت الزيتون المحلّي. وهو، قبل تعرفه على هذه البنت، كان يفهم الهدايا على أنها عطور وباقات ورد وعلب شوكولاتة. أشياء ناعمة تخاطب الأذواق، لا علاقة لها بالطبخ والحمس والقلي. لكنه أحبّ هديتها ووجد تناغمًا مثيرًا بين الزيتون ولون عينيها. وحتى هذه العمّة الآتية من بلاد لا تسمح بالحبّ، لَحَظَت اهتمامه بالصديقة التونسيّة الصغيرة. إنها تشفق عليها لأنها يتيمة الأب ولأنّ في وجهها شحوبًا وأسى.

كلمّا جاءت كلثوم لزيارتهم، يجتهد اسكندر لانتشالها من جلسة النساء وتحويطها بخفّة وسحبها إلى غرفته. هناك دائمًا حجج مقنعة. دروس أو اسطوانات أو مراجعة معلومات على الكومبيوتر. ووراء الباب المغلق يفعل معها ما يفعله الأولاد والبنات المتأرجحين بين المراهقة والبلوغ، الواقفين على فوّهة الرغبة. إنّه منجذب إليها ويحتاج لأن يخترع الأسباب لينفرد بها. يتحوّل إلى مهرّج صغير بين يديها لكي يستبقيها معه.

تكتم البنت التونسيّة ضحكتها وهو يخبرها أنّ العمّة العجوز الجالسة في الصالون تخصّصت في سحب الأطفال من أحشاء أُمهاتهم.

ـ من هنا.

يحاول أن يمدّ يده إلى ملتقى فخذيها المحشورتين في الجينز الضيق لكنّها تبعده ويزداد توهج خديها. يزول الشحوب وترمش الأهداب مثل الدمى في أفلام الكرتون. لا قوّة تملك أن توقف طَفَح الهرمونات. إنه لا يتراجع عن محاولاته، تثيره ضحكات كلثوم القصيرة وهو يحكي لها أن العمّة طبيبة أمضت خمسين عامًا وهي تمدّ كفّها في فروج النساء. يتفرج على أسنانها الناصعة ولسانها الذي يبدو وكأنها شربت كأسًا من عصير الكرز، فينفلت لسانه ويبالغ ويقسم لها أنّ ربع سكّان العراق ولدوا بين يدي هذه المرأة. يزداد ضحكها والتماع عينيها فيتشجّع على التهريج، أكثر، وقلّة الحياء.

ـ هل تعرفين ما هي الهواية المفضلة لتانت ورديّة؟

ـ عقد حبال السرّة؟

ـ بل الجلوس في شرفة أحد المقاهي الشعبية وإحصاء عدد المارة الذين جاءت بهم إلى الدنيا. هذا إي، هذي لا، هذا إي، وهذا إي، وهذا لا.

ـ يعني مثل زهرة المرغريت ولعبة يحبّني، لا يحبّني...

ـ أُحبّك...

يقولها بالفرنسية ويتهاوى معها على أرضيّة الغرفة، قرب السرير، يتلوّيان من الضحك ومن الوجل. يميل عليها ويقترب بفمه ليذوق الرمّان وتلمس شفتاه أسنانها. تعتدل الفتاة وتصدّه عنها بكفّ واهية. قبلة أُولى غشيمة تكفي لإيقاد الحرائق في فوّهة البركان.

يرصدان بطرف العين باب الغرفة ويواصلان لعق الشهد الممنوع.

١٥

ـ عمّة...

ـ عيون عمّة.

ـ ألا نذهب إلى الصالون لقصّ شعرك؟

في طريقنا إلى الكوافير تصارحني بأنها تحكّ شعرها وجسمها كثيرًا وتريد دواءً للحساسيّة. تكشف لي عن ذراعيها

فأرى بثورًا حمراء وخطوطًا من آثار أظفارها. لابد أن الشقّة الأُولى التي أسكنوها فيها، في ضاحية غرينيي، ليست على ما يرام . قد لا يخلو الأمر من حشرات مستوطنة في الأثاث أو الأغطية. أزورها فأحتاج لكمّامة وأنا أستخدم المصعد وأحبس أنفاسي إلى الطّابق الحادي عشر. لكن اللّاجئين يتغاضون عن سفاسف المتبطّرين، يسبحون في تلك الهناءة التي يوفّرها الشعور بالأمان. يسهرون وهم يتطلعون إلى السقف، يتفرّجون على المصباح المضيء بدون انقطاع. يرقدون تحت ليل مريب في سكونه. يستفقدون أصوات الرصاص الطائش والانفجارات التي كانت تُفزع أطفالهم فيفزّون من النوم.

في أيام الآحاد، يرتدون أفضل ثيابهم ويذهبون إلى الكنيسة الصغيرة. يملأ السرور قلب راعيها وهو يرى رعيّته تكبر، فجأة، وتتنوّع. عائلات تجيء من بغداد والموصل وتلّسقف وكرمليس وزاخو وتلكيف وبرطلّة. تتوزّع في الضواحي البعيدة ويأخذ أفرادها القطارات إلى محطة مترو لا شابيل. يتلفّعون بأوشحة وقبعات صوفية تقي بعضهم بردًا لم يتعودوا عليه. ينزلون ويجتازون البولفار ويدخلون شارع باجول. يحملون أطفالهم على الأذرع أو يدفعونهم في العربات وهم يغذّون السير ليصلوا سيدة كلدة. يصعدون إلى قاعة الصلاة السابحة في عبق البخّور ليلحقوا بالقدّاس. يأخذون أماكنهم على المصاطب الخشبية ويحنون رؤوسهم ويرسمون إشارة الصليب. تحتشد بهم الكنيسة

التي كانت تشكو قلّة المصلّين. تدبُّ فيها الحياة وصرخات الرضّع ونقرات الكعوب العالية للأُمهات الشابات وهن يلقمن أثداءهن لأطفالهن، خلسة، من تحت الأوشحة. يصلّون ويقفون ويركعون ويتبادلون سلام المسيح عناقًا أو من كفّ لكفّ. يصطفّون لكي يتناولوا القربان المقدس. يخشعون بأعين دامعة أمام صورة أُم العجائب. يشعلون الشموع ويرجونها أن تحميَ أقرباءهم الذين ظلوا هناك. يباركهم الكاهن راجيًا أن يذهبوا بسلام وينتهي القدّاس.

ينزلون ليشربوا القهوة في الطابق الأرضي وليتبادلوا الأخبار والمعلومات المفيدة. موقع المكتبة التي تبيع القاموس العربي الفرنسي. عناوين دكاكين البرغل والهيل وخبز التنّور. السكائر الأرخص. الصبغة الأفضل للشعر الأبيض. كلفة السفر إلى مغارة لورد. شروط الحصول على الجنسيّة الفرنسيّة. هل يمكن أن يصبحوا فرنسيين ويحملوا الجواز الأُوروبي ذا اللون النبيذي؟ ما أحلى اللون النبيذيّ في الجواز الصغير المطبوع بأناقة. تحترمه شرطة الحدود ويبتسمون لحامله. لقد تعذّبوا كثيرًا أمام القنصليّات الموصدة، يلوّحون بالجواز الأخضر بلا فائدة. لكنّ فرنسا فتحتْ لهم بوّابتها في لحظة غير متوّقعة. رحبّت بهم لتضيفهم إلى الآلاف المؤلّفة من لاجئيها. خُيّل لهم أنهم مدلّلون بين الرعايا السود والصفر والسمر وسيحصلون على معاملة أفضل ومساكن أبهى. لكن القمل جاهل لا يقرأ ولا يكتب ولا يفرّق بين رأس فييتناميّ أو صوماليّ أو شيشانيّ أو عراقيّ.

درت بعمّتي على أطبّاء القلب والأُذن والعيون والأسنان وكل ما تقتضيه معاملة اللجوء. إنها تعرف تفاصيل الجولة منذ أن سعت وراء تأشيرة كندا. تستعدّ للدوران في العيادات والمستشفيات وكأنّها ذاهبة في نزهة سياحيّة. أستغرب لحماستها، فتقول لي إنها تتعرف على طرائق جديدة في العلاج وأجهزة لم تعرفها من قبل. أنسى أنها طبيبة وأن من نزورهم زملاء لها؛ وفي العيادات الطبيّة تكون عمّتي مثل السمكة في النهر. ينشرح صدرها وتروح تتنفس بعمق وكأننا في حدائق فيرساي. تتفرّج على الصّور المعلّقة على الجدران وتلتقط كل كتيّب من تلك المنشورات الخاصّة بتوعية المرضى. تقرأ المطبوعات وتفهم ما فيها. وكذلك التعليمات المدسوسة في علب الأدوية، رغم أنّها تجهل الفرنسيّة.

دخلنا وخرجنا وصعدنا ونزلنا وأجرينا لها كل التحليلات وصور الأشعة ولم ندفع شيئًا. تسألني في كل مرّة:

ـ ما يريدون فليسات؟

ـ على حساب ساركوزي.

تبتسم لسخريّتي وتدعو له أن يعثر على بنت الحلال. تتفرّج على العيادات الأنيقة أو الكئيبة وتدرس بعينيها كلّ شيء. تتذكر طلاء عيادتها المُتقشّر والكراسي المهزوزة وضجّة المريضات وزعيق الأطفال في فترة التسنين. تستسلم لأيدي الأطبّاء، مثلما كنت أستسلم ليديها، وأنا طفلة، تفحصني

وتجسّ نبضي ولا أتململ أو أتملّص. أراها ساكنة تستمع لإرشادات الدكتورة الفرنسيّة التي تكتب لها مرهمًا للبواسير. تعامل الطبيبة الشابة عمّتي وهي تتصوّرها مهاجرة جاءت من القرية لتكون قريبة من ابن يعمل في مصانع رينو. إمرأة جاهلة لا تفهم اللغة ولا طرق استخدام الأدوية. تشير إلى الخلف لكي تشرح للمريضة أن المرهم يوضع في المؤخرة. ثم تشير إلى الفم وتحرك سبّابتها يمينًا ويسارًا وتردد "نو... نو". تحاول تحذيرها من أن الدواء لا يؤخذ عن طريق البلع.

لا تفهم الدكتورة ذات الشعر البرتقالي القصير لماذا نتبادل النظرات ونكتم ضحكنا. أعتذر عن خفّتي وأقول لها إنّ هذه السيدة مارست الطبّ في بلدها لنصف قرن. يرتفع الحاجبان وترمش الأهداب الشقراء ويبدو عليها الحرج.

ـ أين بلدها؟

ـ العراق. كانت أوّل من فتح صالة لتوليد النساء في مدينة صغيرة.

تتناول الدكتورة يد مريضتها المسنّة ويخيّل لي أنها سترفعها إلى فمها. لا تسحب عمّتي كفّها ولا تستغفر الله، على عادة شيوخ عشائر الديوانيّة، بل تمسح على الشعر البرتقالي وتتمتم:

ـ ميرسي ماي دير.

تشكرها بما يسعفها به الخاطر من خلطة لغويّة وتطلب أن

أتمنى لزميلتها الشابّة مسيرة مهنيّة عامرة مُعمرّة، مثل مسيرتها. يسري تيّار التواطؤ بينهما في أقل من دقيقة. تضحكان وتتصافحان وترطنان بمصطلحات لا أفهمها. أجدني خارج دائرتهما. مُستبعدة من تضامن أهل المهنة وتفاهم أبناء الكار.

١٦

١٤ ديوانيّة... لو طلبوا إليها أن تختار رقمًا يعجبها لما عثرت على أجمل من هذا الرقم لسيارتها. إنّها تتفاءل بالأرقام الزوجيّة وتميل إليه لأنّه تاريخ وصولها إلى الديوانيّة. كانت قد سمعت من الإذاعة قصيدة للميعة عبّاس عمارة وحفظت مطلعها وظلّت تُردّده بينها وبين نفسها. "أُحبّ كلّ أربع وعشرٍ... لأنها تختم رقم الشّر".

سلّمها ضابط التسجيل رقعة السيّارة ومنّنها بأنّه أنعم عليها برقم ثورة تموز. ثبّت الميكانيكيّ الرقعة وساقت ورديّة سيارتها الأوبل موديل ٥٩، من الورشة إلى البيت. خرج الجميع يتفرّج على السيّارة الجديدة ذات اللونين الأصفر والأبيض وهي بعد في الكاغد. يبارك الجيران لها وتطلب أُم جرجس من غسّان أن يذبح دجاجة ويُضمّخ كفّه الكبيرة بدمها ويطبعها على بدَن السيّارة. دم الذبيحة يردّ العين ويدفع الشرور. لابدّ منه لتدشين البيوت والدكاكين

والسيارات. تأتي صديقتها اليهوديّة أُم يعقوب وبيدها أُم سبع عيون مربوطة بشريط فضيّ. تعقده على مرآة السيارة وتترك الحلية تتدلى منه.

- بدالكي... ما تفكّين الشريط لو إيش ما صار.

بقي أبو يعقوب، صاحب معمل الطابوق، في الديوانيّة مع أُسرته حتى أواخر الستينيّات. لم يضايقه أحد ولم يضايق أحدًا. ثم نُصبت المشانق للجواسيس اليهود في ساحة التحرير في بغداد وتوتّرت الأجواء. صار يسمع ما لا يحبّ وراح الأخضر بسعر اليابس. ولم ينتظر الرجل ما هو أدهى. أخذ أُسرته وسافروا إلى لندن. وقيل إنّهم صاروا في إسرائيل. وظلت أم السبع عيون تتنقل مع ورديّة من سيارة لسيارة.

هجرت عربات الربل والإسعاف وبدأت تتنقل بالأوبل الأنيقة ما بين المستشفى وبيوت علويّة شذرة وعلويّة حسينة وأُم يعقوب. تزور زوجة المتصرّف وتذهب إلى الست لوريس وتشتري حاجياتها بنفسها. يؤشر لها شرطي المرور ضاحكًا حين تمرّ به. يرفع إصبعين بعلامة النصر ويصيح:

- صرتن ثنين.

هي والدكتورة أنيسة التي كانت أوّل امرأة تقود سيارة في شوارع الديوانيّة. يُربكِها أنّها لم تعد تذكر كيف تعلّمت السّياقة. لابدّ أن هناك زملاء ساعدوها وأعاروها سيّاراتهم وتركوها تجرّب. لم يخافوا عليها أو على السيّارات من حوادث الاصطدام. لا أحد يصطدم بأحد والسيارات قليلة والشوارع

شبه خالية. يبثّون الشجاعة في قلبها ويقولون لها إنها حتى لو دخلت في جدار فإنّ شركة التأمين تعوّض صاحب السيارة ومالك الجدار. شركات التأمين بدعة لم تسمع بها من قبل. يقولون هذا لتطمينها وهي تجلس وراء المقود، تتشبّث به وتضغط عليه وتلهث من التعب. كأنه طوق نجاة، أو كأنّها تحمل السيّارة على كتفيها.

خرج أطباء المستشفى والممرضات ليتفرجوا عليها، ذات ظهيرة، وهي تستعرض عليهم مهارتها في القيادة. لم تكن السيّارة لها بل للصيدليّ العجوز. لكنّها حالما أدارت المحرّك، قفزت السيّارة من مكانها وصدمت سيارة رئيس الصحّة المتوقفة على مبعدة مترين أمامها. صفّق المتفرّجون وضحكوا عاليًا وهي تبكي خيبتها. لا تعرف كم مرة طفرت دموعها في ثمانين سنة. لو أحصتها لكانت مليونيرة في قوائم فوربس.

بعد قفزة وصدمتين بسيطتين، تعلّمت القيادة واشترت تلك السيّارة ذات الرقم المشابه لتاريخ ثورة تموز وإعلان الجمهوريّة. سمّوها المجيدة والمظفّرة والفتيّة والخالدة وغنّوا لها: لاحت رؤوس الحراب. أما هي فخافت من الفوضى وارتعدت من مجزرة القصر الملكيّ وحلبات الجنون وسحل الجثث. أصابها الوجوم وهي ترى الجميع يتبادلون القبلات والتهاني أمام المستشفى وفي ممراته. وحتى المرضى المخطرون هبّوا من أسرّتهم وساروا في الردهات، مثل أليعازر في أُعجوبة المسيح، وهزجوا مع الأطباء والمضمّدين والممرضات.

صار لكلّ من عاصر الثورة قصّته الخاصة معها. يحفظها ويرويها ولا ينساها ولو بعد عقود. وهي تبدأ كلّها بداية متشابهة: "صباح الاثنين ذاك كنت نائمًا على السطح وجاء فلان وأيقظني وقال: افتح الراديو صارت ثورة". بعد هذا الاستهلال تتباين التفاصيل وتتشعّب الخطوط. لكلّ مدينة روايتها ولكلّ عراقيّ قصّته. وفي قصّة ورديّة ثمّة اختلاف بسيط في المقدّمة، ذلك أنها كانت نائمة في غرفتها في المستشفى، لا على السطح. استيقظت في ذلك النهار الصيفيّ الحار على جلبة في الشارع، وكان الوقت مبكرًا ولا شيئ يمكن أن يقلق السّكون. نظرت من النافذة ورأت الرجال والنساء في الطريق بثياب النوم وجنودًا يهرولون في اتجاه مبنى الولاية. أدارت الراديو وسمعت البيان الأوّل ولعلعة الأناشيد. شعرت بخطورة ما يقوله المذياع رغم أنها لم تسمع بيانات أُولى، من قبل. وكعادتها بدأت تبكي. الدموع هي لسان حالها الوفيّ والحاضر للخدمة. خافت على سُليمان في بغداد ولم تفكّر بأي بشر غيره.

تركت فراشها بدون ترتيب وغسلت وجهها وارتدت أيّ شيئ ونزلت من القسم الداخليّ الذي تبيت فيه مع الممرضات. وجدت زميليها فؤاد وإدوار يرقصان في ممرّ المستشفى بالمناديل. بالجفافي. وممرّضة تطشّ المصقول فوق الرؤوس. واستغربت وهي ترى الدكتور جرجس يهزج ويصفّق معهم، الطبيب الجديد ذا القامة الطويلة والعينين الملوّنتين الذي جاءهم منقولًا من السماوة.

وقفت ساكتة بينهم والقلق يأكل قلبها. وقرّرت أن تأخذ إجازة وتذهب إلى بغداد. تريد أن تطمئن على شقيقها الذي يداوم في وزارة الدفاع. إنّ البيانات تتوالى والأخبار تشتعل والإشاعات تنصب المشانق وتحيي وتميت. وقبل الظهيرة بقليل أرسل لها المتصرّف سائقه لكي ينقلها لعند زوجته. كانوا مستبشرين ومدّوا مائدة الغداء وألحّوا عليها أن تأكل لقمة فلم تتقبّل نفسها الأكل. شعرت أنها مثل البومة التي تقف على خيمة عرس. اعتذرت منهم وعادت الى المستشفى. وفي الجمعة التالية كانت في بغداد.

وجدت والدتها العجوز تضرب كفًّا بكفّ، من دون توقّف، مثل لعبة منصوبة ميكانيكيًّا. تندب بلهجتها الموصلية وتعدّد: راحوا الملوك وجاؤوا العلوك. أما جولي، شقيقتها التي قرّرت أن تترهبن في بيت العائلة، لا في دير من الأديرة، فقد استيقظت بعد أُسبوع من الثورة، لتروي لهم ما رأت في المنام. يبلّل العرق الغزير وجهها وصدر دشداشتها وهي تحلف أنّها رأت الملكة عالية، والدة الملك القتيل، وعرفتها من تاجها ووشاحها الملكيّ الأزرق. وكانت تجوب حقلًا للحنطة بقدمين عاريتين وبيدها منجل تحصد به السنابل اليانعة.

ـ هات المنجل، يا ستّي، ودعيني أعاونك.

ـ بل اتركيني أحصد رؤوس الذين قتلوا وحيدي.

يقشعرّ جلد جولي وهي تحكي حلمها الاستشرافيّ. تنفعل وترفع صوتها وتقول إنّها استفاقت منه في وجه الصبح. إنّ

منامات الفجر لابدّ وأن تتحقق. يشير لها الجميع بأن تخفض صوتها لئلا يصل إلى آذان المتحمّسين من أبناء الشعب.

ـ ونحن ... ألسنا من بنات الشعب وأبنائه؟

تطفو تسميات المرحلة على سطح الكلام ويتلقّفها الخطباء وكتبة الأناشيد وخطّاطو مانشيتات الجرائد. الجمهوريّة الفتيّة. العهد البائد. أيتام نوري السعيد. العمال الكادحون. المسحوقون. أنصار السلام. أذناب الاستعمار الذين يأكلون على موائد الأجنبيّ. لكلّ فترة مفرداتها التي تنتقل من خطبة حماسيّة وتعليق في جريدة لتستقرّ على ألسنة المتعلّمين والجهلة. صار اسم الناس والجيران الذين تعرفهم، الشعب العراقي البطل، وإسم الانقلاب، الثورة الميمونة، وإسم الهيجان الشامل، المدّ الثوري.

مدّ يعلو ويعلو ويبلغ الزبى. تتوالى الانقلابات والمؤامرات فيحصد الثوّار بعضهم بعضًا. يُعلّق المدنيّون على المشانق ويُساق العسكريّون إلى ساحات الرمي بالرصاص. ترفع الثورات شهداءها وتخسف بخونتها ولا تبقي ولا تذرّ. ثم تدور العجلة وتنقلب المرحلة فيصير الخائن شهيدًا ويذهب الشهيد إلى طاحونة الصور.

كم تبدو لها تلك التراجيديّات بعيدة وباهتة وهي واقفة عند نافذة شقّتها في غرينيي، تتفرج على ريشة الخريف العابثة بأوراق الشجر. سبحان الله. ألف لون ولون. تُحرّكها ريح لطيفة وتعكسها على ضفاف البحيرة القريبة. لا يمكن أن يكون كلّ

هذا الجمال طبيعيًا. إنه مُرهق في كثافته. رؤيا فردوسيّة ترجّلت من عليائها واندسّت في الروزنامة. تمدّدت فوق صفحة تشرين. طبيعة طيّعة لا تشبه العواصف الحمراء التي تجتاح بلدها وتعمي الأبصار. تمضي في مقارناتها وتتذكّر أن عيدهم الوطنيّ كان يتطابق مع العيد الوطنيّ في فرنسا وذكرى الزحف على سجن الباستيل. جمهوريّة هنا وجمهورية هناك. كما لو أنّ الضبّاط الأحرار تقصّدوا الاقتداء بالتاريخ الشهير. لكنّ أحلامهم طاشت عن أهدافها. مضوا تباعًا سراعًا ولم يحقّقوا سوى التشابه في القسوة والاختلاف في النتائج. لننتظر مئتي سنة ونرَ.

بعد الثورة بأشهر، وجدتْ ورديّة نفسها مدعوّة للمشاركة في الوليمة. لقد طلبوها لتصبح رئيسة لرابطة المرأة العراقيّة في الديوانيّة. ذهب إليها طبيب من زملائها وأعطاها النظام الداخلي للحزب الشيوعيّ.

ـ إقرئيه وستجدين أنّ مبادئه تتوافق مع مهنتك الإنسانيّة.

إعتذرت منه وتحجّجت بضيق الوقت ورفضت تسلّم الكرّاس منه. خشيت أن تمسك الورق بيديها فيلتصق بهما وتصبحان حمراوين ولا تعود قادرة على إزالة الصبغة . تخيّلت صفعة شقيقها الكبير على خدّها وهو يعرف بانضمامها للحزب. حاولت أن تكون صادقة مع زميلها:

ـ ما أحبّ السياسة. أخاف منها.

ـ تفتحين البطون بالمشارط وتخافين من حزبنا؟

ذهب ولم يلحّ كثيرا. لكنّ النصيب نصيب. قدر يلاحقها ويتغلب عليها. دائمًا كانت أقدارها أقوى منها لكنّها، وهي تستسلم، كانت تتكيّف مع ما تكره وتحاول أن تتقبّله. أنشأ القوميّون منظّمة نساء الجمهوريّة ووجدت نفسها، مرّة ثانية، مطلوبة لتكون رئيسة لفرع الديوانيّة. أعادت عليهم محفوظاتها وأنّها تخاف السياسة ولا تعرف عنها شيئًا ولا وقت لها لغير الطب، لكنّهم لم يقبلوا منها عذرًا. زارها المتصرّف وقائد الفرقة الأُولى وألحّا ولم يتركاها إلا بعد أن نشف ريقها من عبارات التملّص. سكتت واعتبرا سكوتها علامة الرضا. لقد ساعداها كثيرًا ولم يكن من اللائق أن تردّهما خائبين. امتثلتْ ولم تفكر بصفعة مرتقبة من سُليمان لأن الاثنين كانا من معارفه.

بين رابطة المرأة ومنظّمة النساء ما صنع الحدّاد. إنّها الطبعة المؤنّثة من الصراع الحزبيّ بين الرجال. وقد أصبحت ورديّة رئيسة للمنظّمة، رغمًا عنها، ووجدت نفسها تعمل مع نساء محسوبات على التيار القوميّ بحكم التبعيّة لأزواجهن. كنّ مثلها، لم يمارسن العمل العام من قبل. تذهب لتلقي في المناسبات الوطنيّة خطابات سياسيّة رنّانة يكتبها لها رجال لا تعرفهم. إنّ كل يوم من أيّام الخالق يصلح لأن يتحوّل إلى مناسبة وطنيّة. والكلّ جاهز لترك العمل والنزول إلى الشارع والهتاف في المسيرات والمظاهرات والاحتفالات والمهرجانات الدائمة. يأتون بالشاحنات المكشوفة ويزيّنونها بالأزهار واللّافتات والرّايات الملوّنة، الأحمر للشيوعيين والأخضر للقوميين، وتصعد إليها

الطالبات بأزياء عربيّة وكرديّة وآشوريّة برّاقة، دليل التآخي الوطني. تمتلئ دكاكين باعة الأقمشة باللون الأحمر القاني المنقّط بالأبيض. تتهافت النّساء لشرائه ويجلسن إلى ماكنات سنجر لخياطة فساتين منه. كان اسمه "دم الشهيد".

تدور عجلة المنافسة بين المنظّمتين لاجتذاب نساء الديوانيّة. حفلات جماعيّة لختان الذكور. حملات للتّطعيم ضد الجدري. جولات لتوزيع الأحذية والحلويات على الأطفال. مصائد متنوّعة تلتقط الأُمهات إلى منظّمة نساء الجمهوريّة نكاية برابطة المرأة العراقيّة. ثم يتفكّك التجمع وتنتهي تجربة ورديّة اليتيمة مع التيّارات السياسيّة. تتنفّس الصعداء لأنّ أي حزب لم يحاول أن يكسبها بعد ذلك. جاء البعثيّون، ثم راحوا ثم عادوا، ولم يتقرّبوا إليها، رغم أنهم كانوا يطاردون حتى صراصير المجاري.

تبتسم ابتسامتها النصفيّة وهي تلمح طيرًا أسود يقف على سياج شرفة قريبة. تستغرب أن تأتيَ الغربان إلى باريس وضواحيها. أيّ شؤم يقدر على هذه الولاية الباهرة؟ يتعجّبون لأنها تسمّي باريس ولاية. ما زال قاموسها عتيقًا لكنّها ترتاح لمفرداته. تراجع الكلمات وتطلع من صدرها زفرة فاترة. يهبط عليها الأسى وهي تنتبه إلى أن دخول الأحزاب كان يسمّى كسبًا. ماذا كسبوا في نهاية المطاف؟ وشايات وسجونًا ومنافيَ وجلودًا تتبدّل وموتاً زؤامًا وبناء شامخًا تحوّل إلى خرابة. حتى النفوس صارت خرابة تُلقى فيها النفايات حين يتأخّر الزبّال عن موعده.

زوجها المرحوم لم يكن ليقبل بهذا الكلام. لقد شارك في حرب فلسطين الأولى، حال إنهائه دراسة الطب. إرتدى الخاكي وذهب متحمّسًا لطرد الصهاينة وعصابات اليهود التي احتلّت بيوت العرب وشرّدتهم. وصل الجيش العراقي إلى مشارف تل أبيب ثم أُعلنت الهدنة. ظلّ يحلم باستعادة القدس السليب. صار ناصريًّا عنيدًا وفُجع، بعد النّكبة، بمرارة النّكسة. بكى رحيل جمال عبد الناصر كمن يبكي أباه. ظلّ الدكتور جرجس منصور ناصريًّا ومرض ومات وهو يحلم بالتحرير.

وبخلاف السّياسة، لا شيئ كانت تخشاه في شبابها إلّا الحبّ. صبّتورديّة رغباتها في قوالب الفافون ووضعتها في الثلّاجة. لكنّ جرجس لفت نظرها منذ أن رأته في بيت رئيس الصحّة. ومثله كان يلفت النظر. كأنّه نبيل جرمانيّ بشعره الفاتح وبشرته المشربة بالحمرة. أحبّته وتزوّجته وكانت، حين تسير بجواره، تشعر بالزهو حين ترى الأعين تتساءل: كيف اصطادته؟

١٧

هو إما محتال أو عبقريّ.

تطلّعت ورديّة بعينين مذعورتين إلى ما كان اسكندر يعرضه عليها، وهو يضع شاشة الكومبيوتر أمام عينيها. يقوم ويقعد، مزهوًا ومتوتّرًا، وهو يُشركها في أسرار الموقع الجديد الذي صمّمه بنفسه.

ـ شوفي عمّة. مقبرة ألكترونيّة يمكنك أن تنامي فيها بجوار من تحبّين.

رأت شواهد رخاميّة تتوزع بين أشجار خضراء، صلبانًا من رخام وخشب وذهب، أزهارًا نضِرة وكأنّها سُقيت للتّو. وضعت السمّاعتين فسمعت موسيقى ناعمة تتناغم مع حركة فأرة الكومبيوتر التي يقبض عليها اسكندر ويجول بالسّهم يمينًا أو يسارًا. عرض عليها قبورًا تفنّن في تشييدها، وأقام عليها شواهد ملوّنة مثل أقواس قزح. هذا قبر جدّه سُليمان، شقيقها الكبير المدفون في بغداد. بجواره قبر زوجته وقبور جولي وكمالة وزوجها شمعون. قبر أُم جرجس وحفيدتها فايزة التي خطفها السّرطان. قبر قريبهم أُولمبي الذي كان طيّارًا في الجيش. تتفرّج وتضطرب وترتجف يداها مع تواتر الألحان والألوان. يستدير الولد ويواجهها ويتطلّع في عينيها ويطلب وعدًا بألّا تبكي. يوجّه سهم الفأرة إلى قلب الصورة. يرفع السماعتين عن رأسها ويقول بحرج:

ـ هنا وضعت قبر العم جرجس وتركت لك مكانًا بجواره... بعد مئة سنة إن شاء الله.

نقر على زاوية الشاشة فتضاعف حجم الصورة وتمكّنت أن تشاهد ما هو منقوش على رخامة القبر. "من آمن بي وإن مات فسيحيا". وتحت العبارة الإنجيليّة قرأت: "الدكتور جرجس منصور ١٩٢٨ ـ ١٩٩٧".

يريد منها ألّا تبكي؟ غامت عيناها وخفق قلبها ذلك الخفقان

السّريع الذي تعرفه وتتغاضى عن خطورته. عليها أن تأخذ حبّة الدواء وتسترخي وتطرد كلّ ما في رأسها وتترك عقلها يرتاح.

ـ تعال اسكندر... ضع كفّك على قلبي.

ـ هل أنتِ مريضة... هل أستدعي الإسعاف؟

تحاول أن تبتسم وتقول له إنها بخير. كل ما في الأمر أنّ دقّات قلبها غير منتظمة، ترقص الفالس. دقتان إلى الأمام ودقة إلى الوراء. يضحك حين يراها تضحك ويعجب من برودة أعصابها. إنّ صدرها يعلو ويهبط وقلبها يضرب مثل طبل وهي قد تموت الآن بين يديه، في هذه اللحظة، لكنّها تسخر وتذعن لما يصيبها وتطمئنه بالقول إنها تعرف كيف تعالج القلب الأهوج.

أخذ الفالس مكانه في صدرها منذ تلك الهبطة في عيادتها، وكانت خمس سنوات قد مضت على الاحتلال. شاهدت موتها أمام عينيها فنشف حلقها وانحبس تنفسّها. كان موتاً كريهًا لا يشبه الموت الافتراضيّ الملوّن الذي ابتدعه اسكندر لها. لهم جميعًا. كلّ الأحباب الذين استدعاهم من أجلها حضروا وشكلّوا بقبورهم سورًا يحوّطها، يمتصّ قلقها وهواجسها. ماذا يمكن أن يحصل لها أكثر من الانضمام لهم واجتماع شملها مع العزاز؟

تناولت حبة الفاليوم من علبة في حقيبتها وطلبت من اسكندر كأس ماء. وقبل أن ينهض إلى المطبخ سحبته من ردن قميصه وضمّته إليها. مسحت دموعها في وجنته الخَشنة.

لقد صار رجلًا. ينبت شعر قاس في وجهه، له من الفِطنة وقوة العضل ما يجعله يحفر التراب ويُوسّد الموتى ويسهر على رعاية قبورهم. تحتضنه بعينيها وقلبها والذراعين. لا تصدّق أنه تعب وفكّر واخترع لها مقبرة سفريّة تطلبها فتجدها طوعَ اليد. تزورها متى تشاء. هديّة ثمينة تعادل شهادة الطب أو خاتم الزواج أو ملكيّة بيتها الكبير الذي شيّدته في بغداد، بعد عودتهم من الديوانيّة. يعرف الملعون كيف يرمّم ما مضى من عمرها ويؤاخيه مع ما تبقّى. يلعب على الشاشة لكي يحيل الموت طبقًا قابلًا للاشتهاء.

بلعت الحبّة ووضعت حبّة غيرها تحت اللسان. استراحت من انفعالها وعادت تتفرّج على المقبرة الإلكترونيّة وهي في ذهول. تضع كفّها على الفأرة وتتعلّم السيطرة على السهم وتتجوّل بين الشواهد الموزّعة في فردوس من أزاهير وأطايير وقمريّات تتدلّى منها العناقيد.

ـ عمّة، هل أنت راضية؟

ـ أنا مسحورة.

ـ هل أعجبك التصميم؟

ـ جدًا، يحتاج بضع نخلات.

قذفت المقبرة الألكترونيّة باسكندر في صلب العائلة وكادت تلهيه حتى عن كلثوم. كان، من قبل، لا يعرف من عائلته

سوى أبيه وأُمه، ثم سقط في فخّ السلالة وصار خبيرًا في العمّات والأعمام والأجداد الراحلين. إكتشف تفاصيل مسلّية عنهم وهو ينحت قبورهم ويسطّر العبارات اللائقة على شواهدها. ولم يكن أبوه مرتاحًا لهذه الشطحات التي تسمح للتكنولوجيا بانتهاك حرمة الأموات والعبث بفكرة رقادهم الأبدي. لم يعجبه أن يهيئ الولد أضرحة مسبقة للأحياء منهم. لقد نأى بنفسه عن اللعبة، منذ البداية، وطلب ألّا يحسبوا حساب قبره. لكن والدته كانت متحمّسة للفكرة وساعدته في التنفيذ. رسمت له شجرة بدائيّة للعائلة، بفرعها الموصليّ الأصليّ وفرعها التالي في بغداد. وبالقلم الأحمر، سجّلت على الأغصان أسماء الأموات من أبناء عمومة وأقارب. ولوّنت بالقلم الأخضر أسماء الباقين على قيد الحياة.

ـ ماما، من أين جئتم باسم أُولمبي؟

ـ إنّه وحيد الخالة نجمة. كان طيّارًا في الجيش لكنّه كره عمله بعد قصف الأكراد. إخترع مرضًا وهميًا ليحيلوه على التقاعد. ثم مات بمرض حقيقيّ وهو دون السبعين.

نجمة، ذات العينين الخضراوين، سحرت بجمالها طبيب الأسنان اليونانيّ ستيفانوس أُولمبيوس الذي جاء من بلده، مع جيش العصمليّ، ليعمل في الموصل. تزوّجها وحملت منه ومات بالتيفوئيد قبل أن يرى طفله. لبست نجمة السواد وهي حبلى. ولما ولدت سمّت ابنها أُولمبيوس، على إسم جده.

وتحوّل مع الزمن إلى أُولمبي. فتى وسيم ومدلّل ووحيد، يحب فريد الأطرش، وقد غيّر اسمه إلى فريد عندما أراد دخول القوة الجوّية. قالوا له ليس من المعقول أن يكون هناك ضابط في الجيش العراقي يدعى أولمبيوس ستيفانوس أُولمبيوس. صارت له تسميتان. واحدة للمهنة وواحدة للبيت.

لقد نجا، على الأقل، من متوالية اسم اسكندر.

٨

ـ يحرق دينك على هل العَمْلة.

نهر الطبيب اللبنانيّ الدكتورةورديّة لأنها زاحمته وداست على قدمه من الخلف. انخلعت فردة حذائه الإيطاليّ وما عاد قادرًا على المشي معتدلًا في "مسيرة السلامة والابتهاج". كيف يبتهج بنجاة الزعيم عبدالكريم قاسم من محاولة الاغتيال وهو يسير أعرج فوق حافّة جلدية ناتئة؟ كان الدكتور شكري فرنجيّة سمينًا ذا كرش لا يسمح له بالانحناء لفكّ الرباط وزجّ قدمه في الحذاء وربطه من جديد. ولم يكن واردًا أن ينسحب من بين المتظاهرين ويجلس في المقهى ليطلب "كرتة" ليلبس القندرة. لا يجوز أن يتقاعس رئيس صحّة الديوانيّة عن الابتهاج. إنه غريب هنا وقامته تجذب الأنظار.

إلتفت إلى ورديّة ورمقها بشرر. دعا على دينها بالحريق. أقلع عن المحاولة وسار يعرج فوق الفردة المطويّة من الخلف

مثل كلاش الأكراد. يمشي ويرى اللّافتات مرفوعة فوق الرؤوس ويسمع الحناجر تصرخ بالهتاف.

- يروح الشعب... كلّ الشعب... فدوة لابن قاسم.

يلتقط اللبنانيّ الكلمات ويحار في تحليل معنى الشعار. يحاول أن يؤقلم لسانه على اللهجة العراقية وأن يصفّق مع المصفّقين. يسمعهم يردّدون:

- إللي ما يصفّق عفلقي.

لم يعرف رئيس الصحّة الجديد معنى العفلقي. لم يُخلَق ذلك الزغرتاوي ليجادل في السياسة. لا يقرأ الجرائد المحليّة ولم يمش في مظاهرة من هذه التي يسمّونها جماهيريّة وشعبيّة. وبعد الطب، كان قد كرّس نفسه للأناقة والترف. يتحمّس لربطة العنق الباريسيّة وللحذاء الإيطاليّ أكثر من أيّ زعيم. ومنذ أن انتقل للعمل في العراق، تعلّم أن يأخذ الأُمور بالتي هي أحسن. أن يطرّيها ويسير على هوى السّائرين. وكانت أحوال البلد المضطربة تقلقه فيضطر لمداراة هذا وذاك من الممرّضين وصغار الموظّفين. شيوعيّون وقوميّون ونزاعات لا تنتهي. يداريهم بالكلام المُنمّق ويخبئ في صدره قائمة طويلة من المسبّات المقذعة. لزوم الشيئ. شتائم ورثها من الجبليين الذين تحدّر منهم. يجتهد فيها، أحيانًا، فينقح ويزيد. ينسى أناقته وتهذيبه الفطريّ ويتحوّل إلى حوذيّ وابن زقاق. إمكم على إمّ اللي خلّفكم... ع شو نافشين صدوركم؟ بدكن تشتغلوا سياسة؟ إي روحوا ورجونا مراجلكم بفلسطين. يغلي

صدره وهو يمشي ويصفّق ويهتف غضبًا عنه. يخرج البخار من عينيه وفمه. لا يجاهر بالشتائم لكنّ ورديّة تقرؤها مثلما يقرأ الصُمّ المعاني على شفاه المتكلّمين. تضيع العبارات الفاحشة في خضمّ السعير الجماعيّ ويتحوّل الهتاف إلى هياج. تقترب أكثر من رئيس الصحّة، لا تبعد عنه أكثر من شبر، مرتاحة لاحتمائها به ولأنّه يتلفّت باحثًا عنها.

ـ وينك يا ورديّي؟

يعجبها اسمها على لسانه. ورديّي. مثل البنت الشلبيّي عيونها لوزيّي. تغذّ السير وراءه وهي تهتف ولا تدري ما تقول. تسبح فوق موجة من الرضا لأنّ هناك من يهتم بها ويدرأ عنها تدافع المتظاهرين. ماذا سيقول سُليمان لو سمع أنها مشت في مسيرة الابتهاج بنجاة الزعيم؟ كان صديقه ورفيقه في الجيش لكن الميول باعدت بينهما. جاء التقدميّون واعتبروا شقيقها رجعيًّا. من أهل العهد البائد. وطردوه من الجيش. تبهت حماستها وتتوقّف يداها عن التصفيق ويحتبس الصوت في حنجرتها.

وصل الدكتور فرنجيّة إلى العراق مع بداية الخمسينيات وتنقّل في عدّة مواقع، شمالًا وجنوبًا. اشتغل طبيبًا في العماديّة والسماوة والكوت حتى انتهى به المطاف في الديوانيّة. سبقته، قبل وصوله إليها، سمعته بأنه خوش آدمي. شديد لكنّه يخاف الله. وتناقلت الممرّضات واقعةً تقول بأنّ الدكتور

اللبنانيّ عاقب أحد الفرّاشين بقطع ثلاثة أيام من مرتّبه. كان ذلك حين كان رئيسًا لصحّة الكوت. ولما جاء آخر الشهر دسّ في جيب الفرّاش مبلغًا يزيد على الأجر المخصوم. قالوا إنه لم يبق طويلًا في منصبه هناك لأنّ عديل عبد الإله، الوصي على العرش، أراد أن يكون رئيسًا لصحّة الكوت. نقلوا فرنجيّة إلى الديوانيّة.

تحدّثت الممرضات، أيضًا، عن زوجة رئيس الصحّة الجديد وما سمعنه عن أناقتها وحسن ذوقها. ينتظرن مجيئها ويتشوّقن لسماع لهجتها الممطوطة ورؤية حركات بنات الدلال. ستأتي وسيطالعن ثيابها المنتقاة من أسواق بيروت ويتنشّقن عطرًا يشبه نفحات الجنّة. يتابعن أخبارها ويتناقلن الحكايات.

ـ بيضا مثل الجمّار، جابت ويّاها قفص عصافير ملونة وغرامافون وسبع جنط هدوم.

حياة الممرّضات في المستشفى رتيبة. بين بؤس المرضى وتعالي الأطباء. وقد كان مجيء الدكتور اللبناني الأنيق وزوجته المدلّلة حدثًا يستحقّ أن يعاش ليُروى للأبناء والأحفاد.

لم يطل الانتظار. وصلا واستأجرا بيتًا من مساكن الأطباء، على الشط. وبعد فترة قصيرة من تأثيث البيت دعيا الدكتورة ورديّة إلى العشاء عندهما. زيارة أُولى ثم صارت من أهل البيت. تمضي مساءاتها مع الضيوف الذين يتردّدون عليهما، يجلسون في الحديقة المشبعة بأنسام نهر الديوانيّة الهادئ المتفرّع من الفرات. منزل عاديّ من البيوت التي

تُخصّص للموظّفين، لكنّ الست لوريس، أُم أرزة، جعلت منه متحفًا فنيًّا صغيرًا. أوصت على رقعة مخطوطة من الكاشي الكربلائي وألصقتها على جدار المدخل. فيلّا فرنجيّة، مثل الطريقة الغربيّة في تسمية المنازل التي يقطنها بشر مرفّهون.

طلبت ساكنة الفيلّا مُحوّلة تنقل كهرباء المنطقة من نظام "دي. سي" إلى "أي. سي" من أجل أن تغمر الموسيقى بيتها. ونصبت خيمة في الحديقة تستقبل فيها ضيفاتها وزملاء زوجها وكبار موظفي اللواء. فرشت أرائك الخَيزران ببساط محلي مزركش بهيج. وضعت قفص طيور الحبّ في الطارمة. علّقت على شجرة صوندة يتدفّق منها الماء لتبريد الجو. إبتكرت شلّالًا يتداخل خريره مع الأنغام الآتية من الغرامافون. أسطوانات كبيرة وسمفونيّات وفيروز ووديع الصافي وأُم كلثوم. أُمسيات طويلة مع أُم كلثوم. ووردّية تراجع محفوظاتها العشوائيّة من أُغانيها وتتعلم كيف تُصغي إلى اللحن. تنتبه إلى الكلمات وتلحظ الشغف المدسوس فيها. تدور أسطوانة دليلي احتار ويبدو لها أنها تسمعها للمرّة الأُولى. كيف فاتها، من قبل، ما يرسمه الصوت الجبّار للعشق من صور؟ تسحب المواليد في النهار وتحفظ في المساء الصبّ تفضحه عيونه. لو عرف شقيقها في بغداد أنها تسهر وتطرب على نهر الديوانيّة لما تركها تبيت ليلة إضافية هناك. كانت سعيدة وهي تأتي بالأجنّة إلى الحياة ثم تمسح عرقها وتترك أُم كلثوم تسحبها

إلى حياة موازية. تسهر في الفردوس المفعم بعطور باريس وتعود لتنام في المستشفى مع الديتول والسبيرتو.

ثم وصل الدكتور جرجس واختبرت كيف يختار الدليل.

١٩

تتراكم السنوات وتمضغ معها من تختار من الأحبّة. لا تعود الذاكرة قادرة على اقتناص صورهم. ووردية تتسابق مع عمرها لكي تسترجع ما فات. تخاف أن تخونها مدّخراتها. أسماء وروائح ومذاقات وأغاني وقهقهات ونوبات غضب وأوجاع وابتهالات. تتجمّع كلّها في صندوق عقلها الذي ما زال يعي ويُسيطر. ومن بين أكداس الصور تستلّ صورته. تحاول أن تنضوَ الشيخوخة عن خفقة ولدت في مستشفى الديوانيّة ونمت تحت نخلات فيللا فرنجيّة. إنه ما زال شابًا ووسيمًا في الصورة وتكاد ضحكته تغادر الورق المقوّى، مثلما كان يوم وضعت رأسها بجوار رأسه وناما على وسادة واحدة. أربعون عامًا الرأس جنب الرأس. لكنّه تخلّف في آخر الشوط وراح وخلّاها قبل الأوان.

- جرجس، أشّر على أي بنت من بنات ملّتنا وأنا آتيك بها.

تلحّ عليه نانا أن يتزوج. والدته التي يناديها باللقب التركي، على عادة أهل الموصل وما ورثوه من تسميات

عثمانية. تلاحقه لكي يوافق على الفكرة، أن يقول نعم وهي تتكفّل بالباقي. لكن الطبيب الشاب العائد من حرب فلسطين لا يعجبه العجب. يجول في الردهات بقامته الطويلة فنارًا يُهتدى به. تجلجل ضحكاته مع المرضى فتتنهّد الممرّضات. رأته ورديّة وفهمت أنّه جاء من مستشفى السماوة. من المدينة القريبة التي كانت تتبع لواءهم. ثم تعرّفت إليه وتعاملت معه وتباسطا في الحديث. لكن شيئًا فيه يقلب حالها ويغيّر ألوانها. لا تجد الشجاعة لتعترف لنفسها بأنّها معجبة به، إن عينيه الزرقاوين تربكانها. تراه يهتم بها ولا يغيب عن استراحات القهوة التي تجمع الأطباء في غرفتها. هي القدمى بينهم. توصي على البنّ من دكّان هاكوب في بغداد وتهدي كل بيت تتردّد عليه كيسًا منه. تشرب قهواها المفضّلة حيثما كانت. يأتي الزملاء إلى غرفتها ويأتي الدكتور جرجس معهم. كان جريئًا مع الجميع ومتحفّظًا معها. ولمّا حاول التلميح لها بشيء مما لديه تزبطلت مثل السمكة وهربت ولم تشجّعه.

ثم تكفّلت ضفاف شط الديوانيّة بتذليل ما تعطّل من كلام. كانت أكثر حدبًا على حكايات الحب من غرف المستشفى وأنين ردهة التوليد. النخلات لاهية في عليائها والنسمات تُموّه الزفرات والضفادع تنقّ بلُغتها ولا تفشي الأسرار.

ذهب الطبيب العاشق إلى رئيس الصحة وأخبره برغبته في

خطبة الدكتورة ورديّة. ولـم يتفاجأ فرنجيّة لأنّه تابع تشكّل اللوحة أمام ناظريه. قام وعانق جرجس ووعده خيرًا. إنه قليل الصبر ولـم يتعوّد تأجيل عمل اليوم إلى غد. صرف الدكتور من عنده وأرسل الفرّاشة تستدعي الدكتورة وطلب لها مشروبًا باردًا وراح يسألها عن أحوالها. ماذا يريد؟ كأنه لا يعرف دقائق نهاراتها وثواني لياليها. إنّ الديوانيّة صغيرة وهي لا تخرج إلا قليلًا. تعمل وتأكل وتنام في المستشفى. هذه هي أحوالها. تنتظر إجازاتها لكي تقلب الروتين وتذهب إلى بغداد.

ـ خير؟

ـ طبعًا خير... ولو؟

إنه لا يجيد اللّف والدوران لكنّها تقرأ على ملامحه كلامًا مقبلًا. يتنحنح ويُعدّل من وضع كرشه الذي يواريه، ببراعة، خلف السترات الأنيقة، ويبدو عليه الحرج. توقّعتُ أن يعيد فتح موضوع طبيب الأشعة الذي حاول أن يتودّد إليها. كان قد طلب من رئيس الصحة أن يجسّ نبضها قبل أن يطلبها للزواج. إنه من أُسرة ميسورة من كركوك لكنه قميئ ولا تطيقه. وقبل أن يتفوه فرنجية بكلمة سبقته ورفعت صوتها قليلًا. نادرًا ما كان يرتفع لمدى يتجاوز حافّة أُذن المستمع.

ـ اسمعني دكتور، قلت لك من قبل إنّني غير موافقة.

صعد الدم إلى وجنتيها وتعجّبت لماذا يلحّ في موضوع مستحيل. إنه رجل كيّس ويعرف الأُصول، يرعاها مثل أُخت صغيرة ويفتح لها بيته. هل يقبل لأخته زوجًا مثل ذاك؟ إن

لقب دكتور لا يكفي لأن يغطّي على عيوبه ويجعل منه عريسًا مقبولًا.

نفضت ما في قلبها وقامت لتخرج وهي تطلب نسيان الموضوع.

ـ حسنًا، وإذا قلت لكِ إن الدكتور جرجس هو الذي يريد التقدم لكِ؟

كأنّ يدًا دفعتها ففقدت توازنها وسقطت جالسة على الكرسي. هدأت فورة دمها وسار الخدر فيها كمن يتلقّى حقنة بنج. جرجرت تنّورتها حول ركبتيها وخفضت رأسها بينما كانت روحها تحلّق. تكمّم انفعالها وتجهد ألا تفضح عيناها الصعّادات الناريّة التي انطلقت في صدرها. عيب. لا يجوز. عليها أن تتلملم وتحتفظ بوقار بنات الناس. قطّبت ما بين حاجبيها وزمّت فمها وهمست:

ـ الأمر أمر أهلي.

بعد أُسبوع، سار وفد من الديوانيّة برئاسة أُم جرجسٍ وعضويّة الدكتور فرنجيّة وزوجته السيدة لوريس ومعهم أُم يعقوب زوجة صديقهم صاحب معمل الطابوق، وأم جلال زوجة قريبهم مُركّب الأسنان وقصد منزل أهلها في بغداد. ولم يذهب العريس معهم بل جلس يشرب القهوة تلو القهوة في مكتب ورديّة، وهما ينتظران هاتفًا بالخبر. هي تقضم أظفارها حتى تدميها وهو يقهقه، كعادته، واثقًا من النتيجة.

بدأت والدته مهمّتها بإلقاء المحفوظات المعتادة. نتشرّف بمناسبتكم. الدكتورة بنتكم وردة. نِعْمَ ما ربّيتم. سمعتها عَطرة. الكلّ في الديوانيّة يحبها ويمتدحها. ماكو عروس أحسن منها. ثم انتقلت للثناء على ولدها الدكتور. أطالت في ذكر صفاته الحميدة. خلوق ومجتهد ويخاف الله وما عنده مكسّرات. ولم يكن العقيد سُليمان محتاجًا لتوصيف. لقد قادته مهمات الجيش إلى السماوة، مرات عديدة، لحضور جلسات تقاض أو للنظر في نزاعات حول أراض عائدة للجيش. وهو كان قد التقى الدكتور جرجس، ابن مدينته، في نادي الموظّفين. المكان التقليدي لاجتماع الرجال في المدن الصغيرة، مع حلول المساء. يشربون ويلعبون الورق.

ـ أما محاسن ولدك الدكتور، يا أُختي الكريمة، فأنا أعرفها بالتفصيل. إنّه أشهر قمارجي بين الأطباء وأحسن شرّاب عرق وأكبر مدخن جكاير... وأنا موافق عليه.

بعد الخطبة، صار مسموحًا لها أن تأخذ الدكتور جرجس في سيارتها ليتنزها على الشط في الأُمسيات. تترك له المقود وتجلس أميرة بجانبه. ينزلان من أوّل الطريق الترابيّة التي تبدأ من المستشفى ويمرّان بمحاذاة النهر وفيللا فرنجيّة. تصلهما من الحديقة آهات سعاد محمد ولور دكاش. يصلان إلى نادي الموظّفين، في آخر الدرب، ويسمعان فرقعات أحجار النّرد وأصداء ضحكات النّدامى وهم يتعازمون على كؤوس العرق... جريو.

٢٠

قادت ورديّة الأوبل في شوارع المدينة بدون إجازة سياقة ولم تجد شرطيًّا يستوقفها. السيارات قلائل وعربات الخيل أكثر منها. والمرأة التي تجلس وراء المقود عجب عجاب. والنقيب كاظم، مدير المرور ذو النجمات الثلاث، يتسامح ويغضّ النظر. يمرّ، أحيانًا، بالمستشفى ويراها غارقة في بحر النساء ويقدّر انشغالها. ولتبرئة الضمير، يكتفي بالسؤال التقليدي.

ـ دكتورة متى تشرّفينا لنمتحنك؟

ـ قريبًا إن شاء الله... بس يصير عندي وقت.

ولم يتوفّر الوقت. وساقت بدون رخصة لعدّة أشهر. حتى ذلك المساء الذي كانت عائدة فيه من العيادة، مرهقة وجائعة. لمحت النقيب كاظم يجلس أمام مبنى المتصرفيّة، على الشطّ، يشرب الشاي. توقفت عند مبنى المحكمة ورجعت بالسيارة إليه.

ـ أنا جاهزة للامتحان، الآن.

ـ هسّة، في الليل؟

ـ إما الآن أو أن تبعث لي الإجازة بدون امتحان.

نهض مدير المرور من جلسته المستريحة وركب بجوارها في السيارة. طلب منها أن تسير أمامًا وأن تستدير يمنة. ثم ترجع إلى الخلف وتتوقف بمحاذاة الرصيف. سألها عما يجب أن تفعله قبل التوقّف. متى تخرج ذراعها لتعطي الإشارة.

كيف تخفف من قوة الضوء الكاشف عندما تقابلها سيارة أُخرى. وفي ربع ساعة تعلّمت منه ما كانت تجهله من أُصول القيادة. نجحت في الاختبار وعادت سعيدة إلى المستشفى. وحال وصولها توجهت إلى الهاتف وكلّمتْ كمالة في بغداد لتزفّ لها الخبر. شقيقتها الشجاعة كمالة، أوّل فتاة في العائلة تسوق سيارة. تذهب بها من بيتهم في شارع الهندي إلى عملها في مدرسة الكرّادة الابتدائيّة فتأتي البنات لتلميع سيارة الست بالمناديل النظيفة التي تدسّها الأُمهات في جيوبهن.

لم يسمح سُليمان لكمالة بشراء سيارة لولا ذلك الشاب قليل الأدب الذي طاردها حتى كرهت الخروج إلى الشارع. كان قد راقبها وحفظ أوقات خروجها من المدرسة. تسير لوحدها عائدة إلى البيت ويتبعها على درّاجة هوائية ويجرحها بعبارات لا تليق. والكرّادة، آنذاك، منطقة بساتين. والظهيرة تطرد الناس من الشوارع إلى السراديب الباردة فتخفّ حركة السيارات في الشارع ويغيب المارّة.

يلحق بها صاحب الدرّاجة كلّ يوم. يحاذيها ويتلفّت حوله ثم يرسل لها قبلة طنّانة وغزلًا بذيئًا. تسمع كمالة صوته وتشيح بوجهها وهي ترتعد قهرًا. لا تسمح تربية بنات العائلات بأن ترفع صوتها وتفضحه. أن تخلع فردة حذائها وترميها في وجهه. أن تصرخ وتلمّ عليه أهل المروءة. البنت العاقلة لا تفعل ذلك. وإذا استنجدت برجال العائلة تقوم معركة يسيل فيها الدم.

قرّرت كمالة أن تنهي الأمر بنفسها. تسلّحت بالشمسيّة التي تحملها البغداديّات لاتقاء الحرارة. غادرت المدرسة وسلّمت على تلميذاتها وزميلاتها المعلّمات وسارت في الطريق العام، كالعادة، وانعطفت إلى الشارع الترابيّ المؤدّي إلى بيتهم. لحقت الدراجة بها فطوت الشمسيّة وأمسكت بها بالمقلوب واستعدّت وهي تعضّ بأسنانها على شفتها السفلى. ولّما حاذاها لم تبتعد بل رفعت سلاحها وهوت بالمقبض الخشبي على رأس السرسري.

ـ آآآخ.

صاح وطار فوق درّاجته هاربًا وهو يسبّ ويتوعّد. ولم تره في اليوم التالي، ولا الذي بعده. لكنّها ظلّت قلقة من انتقامه منها وذهبت وروت لأخيها ما حصل. إجتمع رجال العائلة وتباحثوا في الموضوع. لن يبلّغوا الشرطة، لا ضرورة لتكبير القضيّة. قرروا أن يرافقوا كمالة في رواحها وعودتها من المدرسة ولا يتركوها تسير وحيدة. نفّذوا الحراسة لعدة أيام، لكلٍّ منهم يومه المحدّد، ثم ملّوا وانصرفوا إلى مشاغلهم. الأفضل ألا تشتغل. أن تبقى في البيت حتى تتزوج ويتحمّل زوجها عبأها. لكنّ شقيقها سُليمان لم يكن يرضى لها ذلك.

- أريد سيّارة. دعني أشتريها بالتقسيط وأسوقها مثل غيري من النساء.

- ومن هؤلاء؟

- الست معزّز والست فكتوريا ومسز هوبز.

دافعت عن قضيّتها وحقّقت ما تريد. حملت قصب السبق وقادت السيّارة في عائلة تُنجب من البنات أكثر مما تُرزق به من الذكور. كان يومًا مشهودًا، نزل فيه الجيران يتفرّجون عليها وهي تشغّل سيّارتها الدي سوتو الضخمة التي كان أبناء البلد يسمّونها الديزطّة. تسير بها بضعة أمتار ثم تضغط على البوق، تحيّيهم، فيصفّق لها الصبية الصغار وتهلّل النساء. وفيما بعد، كانت كلّ بنت في عائلة اسكندر تمسك بمفاتيح سيّارتها حال تخرجها من الجامعة. تبدأ توفير المبلغ قبل سنوات وتذهب لتتعلّم السياقة في مدرسة عبدالستار البغدادي. تشتري سيّارتها وتسدّد باقي المبلغ بأقساط من مرتبها.

وحده سُليمان ظلّ بلا سيّارة. وكان قد أقسم ألا يمسك بالمقود منذ حادث تعرض له في شبابه وكاد يودي بحياة طفل في الطريق. كان هناك الجيب العسكري تحت تصرفه وهو ضابط. يأتيه السائق في الصباح لينقله إلى وزارة الدفاع في باب المعظّم ويعود به في آخر الدوام. ولما أحالوه على التقاعد المبكّر واشتغل في المحاماة، صارت شقيقاته، ومن بعدهن بناته، سائقات في خدمته. من البيت إلى المحكمة ومِن المحكمة إلى البيت. ثم تزوّجنَ وانشغلت كل منهنّ بأُسرتها. وتشجّعت زوجته وطلبت أن تتعلّم السّياقة وتسوق سيارة ولدها. إنّ سيارته تقف جديدة في المرأب، لم يستخدمها. أوصوا عليها حين أنهى الجامعة. ولمّا وصلت كان قد ذهب إلى الخدمة العسكريّة وألحقوه باللواء العشرين.

قامت حرب حزيران وتحرّك لواؤه إلى الجبهة الأُردنيّة. نامت والدته وعمّاته ثلاث ليال في كنيسة القدّيسة حنّة في الكرّادة وهنّ في بكاء وابتهال. حارب الجيش ببسالة لكنه هُزم. وظلّت الوحدات العراقية زمنًا وهي ترابط في مدينة الزرقاء.

تتفرّج أُمه على سيارته الجديدة وتغسلها كل يوم وتنتظر عودته. سيأتي ويدشّنها وتعلّق له فيها خرزة زرقاء. ستركب معه ويذهبان لكازينو صدر القناة، سيأخذها إلى أراكسي الخياطة وإلى كنيسة مار يوسف ودير الزعفرانيّة. تذبح الذبائح وتأخذها لتوفّي نذورها على نيّة سلامته. إلى أن تسرّح من الجيش وعاد سالمًا. صرّفت مئة دينار بالدراهم وطشت حفناتها على رأسه وهو ينزل من الشاحنة العسكريّة، بوجهه المحروق بالشمس وبزّته المتربة. تهلهل وتبكي وترمي الدراهم في الطريق والصّغار يتلاقفون. لكن فرحتها بعودته لم تدم طويلًا. والسبب مجاري الجيران.

كان قد خطب فتاة من عائلة سوريّة معروفة. جاءت مع والدتها لزيارة بغداد والتعرّف على المدينة التي ستعيش فيها بعد الزواج. واستعد آل اسكندر للحفاوة بهما بالأريحيّة المعهودة. دعوات غداء وعشاء وسمك مسكوف وسفرات إلى سلمان باك وجولات نهريّة وهدايا مع كل خطوة. تونّست الضيفتان كثيرًا لكنّ الخيانة جاءت من الجيران. طفحت المجاري في البيت الذي على اليمين وجيء بالصهريج الذي ينزح الطهائر. رائحة لا تطاق. لم تحتملها الحماة المرفّهة ما

بين منزلها الأثريّ في باب توما ومزرعتها في بلودان. تمدّدت على الأُرجوحة في الحديقة ولوّحت بمروحتها الحرير أمام وجهها وانخطف لونها.

ـ يا لطيف شو هاد؟ إلحأوني غط عا ألبي.

لم تنفع قوارير الكولونيا ولا مزاهر ماء الورد في إعادة الصفاء إليها. أصدرت فرمانها وانتهى الأمر. لا قعود لابنتها في بغداد. والفيلم الهندي ما زال يدور. الولد يحب البنت منى ويغنّي لها أمونة بعتلها جواب ولا يطيق فراقها. يعوف بلده وأهله ويلحق بها إلى دمشق ويتزوّجان وتنتظم حياته هناك. تبقى سيّارته الجديدة واقفة في المرأب، مغطاة بشرشف أبيض يحميها من الشمس ومفتاحها في جيب سُليمان، لا يجود به على البنات ولا على أزواجهن. إنّ متطلبات البيت كثيرة. والسيّارة تحتاج لسائق. وقد قالت زوجته كلمتها فاقتنع بها. سمح لها بأن تذهب وتتعلم القيادة عند البغدادي، بعد أن تجاوزت الخمسين، وتسوق الهولدن السوداء التي تشبه سيّارات شرطة النجدة.

٢١

تدور الأزمنة في رأسورديّة وهي متلفّعة بوشاحها الصوفيّ، تطالع الأفق الرماديّ من النافذة وتفكّر في ما كان وما سيكون. تبحث عيناها عن بجعات البحيرة البعيدة فلا تراهنّ بسبب الغَبَش الشفيف. إنّ بصرها ما زال قويًا لكنّ سمعها

بفخذها وركبتيها تتأرجحان مثل الرقّاص تحت ثقل جسمها. تطلع من صدرها زفرة ذات صفير وتُقرّ بأنها اختارت أن تجيء إلى هنا بملء إرادتها. ليس صحيحًا أنها هجرت الوطن الملعون بسبب تراجع البابا عن الذهاب إلى أُور. تلك حجّة تافهة. مَرْهم مُسكّن مثل عجينة الأوكاليبتوس الصينيّة النفّاذة، تفرك بها ضميرها لتخفف من دبيبه. تعرف أنّ الأوطان ليست تطريزات في جبب البابوات. وحتى تلك الوريقة المجعّدة الملفوفة على حصاة كبيرة والملقاة في حديقة الدار كانت أتفه من أن تخيفها. إنّ ما أخذها إلى فرنسا هو اليأس والكثير من القرف. القرف ذاته الذي دفع بياسمين إلى القبول بزوجٍ جاءها بالمراسلة. خطبها من شقيقها بالتلفون وبعث لها الخاتم مع أرامكس وتسلّمها في مطار دبي مثل طرد بالبريد المضمون. هرّبوها من البلد بعد رسائل التهديد التي كانت تُرمى من فوق السياج. يجدونها في الصباح مثل طائر ميّت ملقى على الثيّل الأخضر المعتنى به.

"السلام على من اتبّع الهدى، أما بعد، فعندكم عشر أيام لتنفيذ هذه الفتوى وإعطائنا بنتكم زوجة حلالًا لأمير جماعتنا أو أن نذبحكم كلّكم ونأخذ بيتكم يا كفّار وإلى جهنم وبأس المصير".

عثر غسّان الفلسطيني على الورقة وسلّمها إلى ورديّة وهو يفتعل الضحك. يريد أن يغطيَ على قلقه فلا يتسرّب إليها. قرأتها وانعقد جبينها وطلبت منه ألا يخبر ياسمين بالأمر.

أخذت رسالة التهديد وتوكّأت على عكّازها، وذهبت إلى بيت جارهم الشيخ داؤود ووضعتها في يده وهي ساكتة. قرأ الرجل، الذي يؤمّ الصلاة في المسجد القريب، الورقة واكفهرّ وجهه. شتم الزعاطيط وأدعياء الدين والطمّاعين والمتعصّبين وكلّ الذين يريدون ترويع كرام الناس. قام وقعد وتحدّث في الهاتف وعاد ليقرأ الرسالة ثانية، بصوتٍ عالٍ، ويسخر من ركاكتها ويؤشّر على الأخطاء الواردة فيها. ووردّية تصغي ولا تعلّق.

ـ دكتورة، لا تخافي، نحميكم بعيوننا.

لم تخفْ. فهي رأت في حياتها الكثير ولم تعد تخاف سوى ربّها. أمّا غسّان فقد أخذ الوريقة وراح لمركز الشرطة للإبلاغ عن التهديد. لكنّ الضابط تردّد في تسجيل البلاغ وحاول ابتزازه. فحص الرسالة المجعّدة وألقى بها جانبًا وكأن لديه أُمورًا أهمّ من تلك الخزعبلات. وفي النهاية رضخ للإلحاح وكتب بضعة أسطر في الدفتر ووقّع عليها مع صاحب الشكوى وأعطاه نسخة منها.

غسّان، الذي كان قد شاخ بينهم وتزوج وأنجب خمس بنات وفتح بيتًا في حيّ الأمين، عاد بنسخة من المحضر وهو يفرّ يمناه عجبًا من أحوال الشرطة، يتغدون على حساب المشتكين ويكدّسون الدفاتر والأقلام في الجوارير ويأخذون عمولة من بائع القرطاسيّة ومن صاحب مطعم الكباب. ما زالوا على عادات حليمة. رأته وردّية من شبّاك المطبخ وفهمت أنّه عاد مثلما ذهب.

ـ خير... الشرطة راح تحمينا؟

ـ أيّ شرطة وأيّ بلّوط... الجماعة ورق ما عندهم.

تفلح، بعد طول ترصّد، في رؤية بطّة سوداء تعبر مياه البحيرة. تتفاءل خيرًا ولا يقلقها اللون الأسود بعد أن عاشرته حدادًا بعد حداد. تفتح دولاب ثيابها فلا ترى سواه. لكنّ ابنتها ياسمين ضاقت بالسواد فما عادت تحتمله. من مأتم لمأتم ومن جنازة لجنازة. جدّتها أُم جرجس، ثمّ العم شمعون زوج كمالة، ثم أبوها، ثم الخال سُليمان وزوجته والعم أُولمبي والخالة كمالة. وكان ولدا كمالة قد هاجرا إلى نيوزيلندا وأرسلا بطلب جولي التي بقيت وحيدة في الدار. لكنّها ماتت في الشام قبل أن تركب الطائرة. وعادت ياسمين إلى ثيابها السود والوجه المغسول من الزينة. أصبحت، على صغر سنّها، خبيرة في إخراج الجنازات وترتيب متطلبّات المآتم. تتحرّك مع شقيقها برّاق، حالما يأتي الخبر. يقسّمان المهمات بينهما. يتكفّل هو بإصدار شهادة الوفاة والاتصال بالمقبرة وشراء التابوت وتتفق هي مع الكاهن وتجهّز أكاليل الورد وقماش لافتات النعي التي حلّت محل الإعلان في الجرائد. يحجزان قاعة الكنيسة لمراسم التعزية ويوصيان على القوازي وصواني البقلاوة من المطاعم القريبة.

لا يلتقي الأقارب إلا في الجنازات. النزهات غير مأمونة والمناطق مقسّمة والزيارات تبعث على القلق وحتى حضور القدّاس في الكنيسة يمكن أن ينتهي بفاجعة. لم تعد هناك نواد ولا حلقات دبكة ولا احتفالات برأس السنة وبطقوس

درب الصليب وعيد السيّدة وخضر الياس. تخلّت ياسمين عن وظيفتها في الجامعة، مُتنفّسها الوحيد، لأن الخروج من البيت صار مغامرة غير آمنة. سئمت من الوقوف بالسيّارة في الدور الطويل أمام محطة الوقود. يرسلها أخوها لتعبئة الخزّان لأن طابور النساء أهون من طابور الرجال.

ـ أُختي، أنتِ موافقة؟

سألها برّاق فهزّت رأسها وهي تتحاشى النظر في عينيه.

ـ إي.

وافقت على قريبها الذي يعمل في دبي. زوج تعرفه ولا تعرفه فقد كانت في الثالثة عشرة عندما رأته لآخر مرّة. مضت إليه بدون أن تلتفت لتتأسّف على بغداد. أحسن من أمير الجماعة. ورغم شدّة تعلّقها بوالدتها فإنها لم تبك عند الوداع. نفد خزّان الدموع مثلما ينفد البنزين من السيّارة وتصبح حديدة ثابتة في الكراج.

خرجت ياسمين إلى حياة طبيعيّة من مدينة مختنقة ببخور الموتى.

٢٢

في الحادية عشرة تمامًا، يطرق سوادي، طبّاخ المستشفى باب مكتب الدكتور فرنجيّة. يحمل، كالعادة، صينيّة عليها طبق الأرز وطاسة المرق.

في العادة، لا يتناول رئيس الصحّة وجباته في المستشفى. لكنّه يحرص على أن يتذوق الطعام، كلّ يوم، ليتأكّد من طعمه وصلاحيّته. يوافق عليه قبل تقديمه للمرضى الراقدين في الردهات. يتناول ملعقة من هذا الطبق وملعقة من الآخر. يهزّ رأسه علامة الرضا ويثني على مواهب سوادي أو يدفع الصينيّة ويطلب تقليل الملح أو إضافة المزيد من معجون الطماطة. يتأكّد أنّ حصّة كلّ مريض من الدجاج كافية واللحم مقطّع بالتساوي.

حاولت الست لوريس أن تضبط طعامه. كانت توصي طبّاختها ثريّا بأن تلجم يدها وهي تصبّ الزيت على صحون الحمّص والتبّولة والكبّة النيّة. لكنّ يد ثريا لا تعرف الشحّ، لاسيما مع جرن الكبّة فخر نساء زغرتا. تدقّها وتعجنها بعد أن تنقع كفّها بالماء المثلّج وتخلطها بالمطيّبات. يشمّ ضيوف رئيس الصحة الروائح الشهيّة للثوم والنعناع والمردكوش ثم يقلبون شفاههم. تعاف أنفسهم اللحم النيء. لا أمل مع هؤلاء العراقيين. ولا معورديّة التي تحتكر طبق التبّولة وتُعرض عن الكبّة. حاولت لوريس، عدّة مرات أن تقنعها بتذوّق ملعقة صغيرة لكنّها فشلت. تهزّ الطبيبة الشابّة رأسها وترفض أن تجرّب. لقد تربّت على الكبّة الموصليّة ولا تعترف بغيرها. أكلة فخمة تسفّه كلّ ما يشاع عن تقتير أهل مدينتها. أقراص كبيرة مستوية بحجم طبق، لها كفكير خاصّ بها. معدن ثقيل واسع ذو ذراع طويلة وثقوب كبيرة لتنقيط ماء السّلق. يخرج

الكفكير مع كل موصليّة في جهاز عرسها. تمدّه في القدر الفوّار وتنتشل به الكبّة باحتراس فلا تتفتّت وتفقد حشوتها من اللحم والليّة واللوز والكشمش.

ـ ما هو الكشمش؟

تسأل الست لوريس متعجّبة من اختلاف المسمّيات بين المناطق. إنّ ضيفاتها من نساء الديوانيّة لا يعرفن ما هو الكشمش. معقولة؟ تقول لهنّورديّة إنّ الكشمش هو الزبيب. لكنّها لا تحبّه في الكبّة وتلتقط حبّاته من الحشوة وتدفعها جانبًا. كان ذلك عندما كانت في بيت العائلة. تتدّلل وتتأفّف وتتعامل مع الطعام بالملقط، لا بالملعقة. لماذا يسمّونها في الموصل معلقة؟ أما الآن فإنّها تأكل طبيخ المرضى وتمسح الصحن مسحًا.

يرسم سُليمان إشارة الصليب على الخبز قبل أن يقطّعه ويوزّعه عليهم. تتوسّط كبّة القرزنكي مائدة عيد الفصح. تسكب الأم لورديّة حصّتها فتمدّ يدها إلى طبقها وتعبث فيه. تأكل خبزًا وكرّاثًا وفجلًا وتهمل الكبّة. تفتعل الحجج لكي لا تأكل ما فيه. ترفض خلطة الحلو مع المالح وتأنف من الأرزّ المطحون والمحشو باللحم المبهّر والمطبوخ بالدبس مع المشمش المجفف والتمر والتين. يلاحظ شقيقها ما تفعل فينتظر حتّى ينتهون جميعًا ويقومون عن المائدة. يأمرها بأن تجلس وتكمل طعامها. تطيعه وتغصب نفسها على ازدراد قطع الكبّة بالكشمش الحلو. لا يجوز أن تكون جاحدة

للنعمة. ثم نزل طعام المستشفى عقابًا فُرض عليها بعد أن تحرّرت من سطوة الأخ الكبير. تجوع وتقبل به، مكرهة، وتشتاق إلى كلّ ما كانت تستنكف منه من طبيخ والدتها. القرزنكي والبمبارات وكرشة الخروف. تتوق للطعام المحضّر بكثير من الأنفاس الطيّبة لكنّها ترفض إغراءات لوريس وثريّا ولا تقرّب الكبّة النيئة.

تبدو الست لوريس، التي كان أبوها طبيبًا وكلّ أشقّائها من الأطباء، تفاحة مستوردة لا تشبه التفاح المحليّ الأبيض الصغير. فاكهة ذات رائحة تفوح حولها حيثما تحرّكت. يثير عطرها الاستفهام في أعين ضيفاتها. له جاذبية تحرّض على الدنو منها لتنشق العبق العجيب.

- إنه شاليمار... من باريز.

تتكلم الفرنسيّة مع ولديها وزوجها والعربيّة مع ثريّا. ثريّا التي لم تكن طبّاخة ومربّية فحسب بل كاتمة الأسرار ومديرة المنزل وسيدّته عندما تغيب ربّة الدار. تمضي الست لوريس الشتاء في الديوانيّة ثم تسافر إلى لبنان مع اقتراب الربيع. لا تحتمل فوران طلع النخيل وزهيرات أشجار النارنج. تهاجمها الحساسيّة وتفسد ملامحها المنمنمة. تحمرّ عيناها وتنتفخ أجفانها وتعطس طوال الوقت. تظهر بقع حمر على جلدها الذي يوهم بأنها لا تأكل سوى القشدة.

تسافر إلى بيروت للتسوّق وتصعد إلى الشمال لتصيّف في زغرتا. وعندما تعود إلى الديوانيّة تذهب الطبيبات

والممرّضات وزوجات موظفي الصحّة للسلام عليها. لياقات معتادة وفرصة لرؤية الثياب الأنيقة وأدوات الزينة التي جاءت بها من هناك. تدور ثريّا عليهنّ بفناجين القهوة وصحون المعمول بالفستق الحلبيّ. يتفرّجن على ملابسها وكأنها مجلّة للموضة. تغمز الست لوريس لورديّة، صديقتها الأقرب إليها، وتناديها إلى غرفتها. تعرض عليها أطقم الثياب الداخليّة التي اشترتها من زهّار في سوق الطويلة. تنبهر الدكتورة الخجول وتودّ لو تتلمّس حرير القطع الصغيرة الملوّنة التي تحمل كلّها علامة وارنر. أرواب ناعمة وقصيرة وسوتيانات من الدانتيل ومشدّات لضبّ القوام تنتهي، عند منتصف الفخذين، بلاقطات للجوارب النايلون.

تفوح رائحة القرنفل والورد البلدي في أرجاء فيلّا فرنجيّة. تطفو تويجات الرازقي المقطوفة حديثًا فوق الطبق الخزفي. تشرئب أزهار بنت القنصل في المزهريّات الكريستال وتترك نثارها على المفارش المشغولة بالكروشيه. تزيح ثريا الستائر المصنوعة من طبقة مخمليّة وأُخرى شفّافة والمضمومة بحبال حريريّة مفتولة ومزركشة عند الجوانب. تفتعل الزائرات سببًا للدخول إلى الحمّام الذي لا يشبه مكانًا للاغتسال. لا طشت هنا ولا أباريق وطاسات وقباقيب بل مغطس تنتشر على حوافّه قناني الشامبو وقطع الصابون المعطّر. قوالب زهريّة وفستقيّة، بلون الستارة النايلون الشفافة. بانتوفات مخمليّة ومناشف مطرّزة ونجوم وقلوب وأهلّة وبطّات وأرانب.

يغضضنَ البصر، خفرًا، عندما يكشف باب غرفة النوم عن لوحة لامرأة عارية الظهر تأخذ مكانها على الجدار فوق السرير. تعود النساء إلى بيوتهن ويروين ما شاهدن من أفانين، في منزل اللبنانيّة، ويصفن طاولة البينغ بونغ الموجودة في الشرفة.

يدرس فادي وأرزة في مدرسة داخليّة في طرابلس ويأتيان إلى الديوانيّة لقضاء عيد الميلاد مع والديهما. يركبان الخَيل في مزارع الشيوخ ويلعبان البينغ بونغ أو يذهبان لصيد السمك في الشط ويعودان بزنبيل ليس فيه سوى الشص. تنفض ثريّا البيت وتخزّن المشروبات وأنواع المكسّرات استعدادًا لحفلة رأس السنة. تشتغل في البيت مثل أميرة لا خادمة، مرتدية الثياب الغالية التي ضاقت على السّت لوريس. إنها الحبّ الأول لغسّان. صارحها بما في قلبه وكان جزاؤه قسوة لم يتصوّرها فيها.

ـ بدّك ياني إتجوز خادم عبد؟

كرهها وكره نفسه وعيشته كلّها. لم يحدث أن عيّره أحد بسواد جلده. صعد إلى غرفته فوق السطح واعتصم فيها وامتنع عن الأكل. تصوّرتهورديّة مريضًا وصاحت عليه لكي تعطيه دواء. جلس على أرض المطبخ، بين يديّ أم جرجس، وانفجر بركانه.

ـ إفتهمنا أنّ الدكتور يتزوّج دكتورة. والمعلم يتزوج معلمة. ليش الخانم ما تريدني وهي خادمة مثلي؟

تصبّ له العجوز الفاهمة رزًّا وبامية وتضع الصينيّة أمامه على الأرض. تخشى أن تقول له إن ثريّا غير شكل. فلو كان هناك ملكة للخادمات لكانت هي صاحبة التّاج. ينكسر قلبها عليه وتحاول أن تخفّف عنه وتُطيّب خاطره.

ـ والله لأخطب لك بنت هيلاسي لاسي وأسوّيلك زفّة ما صارت.

وثريّا لا تعرف وجع غسّان. تلفّ شعرها بالرولات وتشوي الباذنجان على المنقل. تهرس الحمّص وتفرم البقدونس وتنقع الفسيفس بالنبيذ. تلقي نظرة على المزهريّات وتطمئن على الصحون والكؤوس والفضيّات قبل الحفلة. تضفّر جدائل أرزة وتساعدها في ارتداء فستانها. تدقّ التاسعة ويبدأ توافد المدعوين. لغط رجاليّ وضحكات نسائيّة وموسيقى ناعمة. يدور الغرامافون ويفتتح رئيس الصحّة حلبة الرقص مع السّت لوريس. ثم يتبعهم آخرون. تترك ثريّا المطبخ، بعد العشاء، لتستمع إلى أرزة وهي تعزف على البيانو. يقوم الصيدلاني المتصابي ويرفع كأسه في صحّة الموجودين ثم يغطس في مقعده وتداهمه غفوة. تراقب ورديّة الراقصين وتتبادل نظرات التواطؤ مع خطيبها ولا تقوم للرقص. بنات الموصل لا يرقصن مع الرجال. ينتشي أبو يعقوب بالعرق الزحلاوي ويسحب زوجته من ذراعها ويجبرها على مسايرة خطواته الثملى. يرقصان ويتشجع الأزواج والزوجات ويدخلون الحلبة الضيّقة. تدوس الأحذية الرجاليّة الروغان على

السكربينات العالية وتدور صواني المارون غلاسيه على المدعوين.

تتلاعب ريح كانون بسعفات النخل في الحديقة وتذهب لتمسح على صفحة الفرات.

تضمّد الخمسينيات بقايا جروحها وما سال فيها من دماء ملوك وثوريين.

يشرب المحتفلون نخب ١٩٦٠. إن دماءً جديدة آتية، لن تتأخر في الطريق.

٢٣

ذهبت ورديّة إلى بغداد لتهيئة لوازم جهازها ورافقتها مستشارتها لشؤون الأناقة الست لوريس. استقبلتهما كمالة ومضين بسيارتها إلى مخزن العروسة. تفرّجن على ما فيه واخترن قماش فستان العرس. ساتان دو شيز لؤلؤي اللّون مطرز بخيوط الكلبدون. تحفة لا يجوز أن تعبث بها يدان سوى أنامل شوشانيك، أحسن خيّاطة في بغداد. تمسك المقص مثلما يستلّ العازف قوس الكمان وتعزف ألحانها الخاصّة. تبدع الأرمنيّة فستانًا مطرّزًا في قسمه الأعلى ومقرنصًا كعش الدبور في نصفه الأسفل، متوسّط الطول من الأمام وطويلًا من الخلف، ذا ذيل يسحل على الأرض. وكانت طرحة ورديّة ثورة في الموضة النسائيّة لأنّها استبدلت بالتاج قبعة مستطيلة من

الساتان، مثل السدارة، ينسدل منها شلّال من التول. أما باقة العروس فمن القرنفل الأبيض الطبيعي.

طلبت شوشانيك ثلاثين دينارًا، أجرًا لم يسبق لخيّاطة أن تقاضته، آنذاك. إنه يساوي مرتّبورديّة في أوّل تعيينها. لكنّ أُمّ سُليمان قالت حلال عليها، وحكّت راحة كفّها اليمنى بأظفار اليسرى، على أمل أن تستعيد ما دفعوا. وتحدّد موعد الإكليل في كنيسة السريان في بغداد وحفل الزفاف في نادي الرفق بالفقير. حملت بطاقات الدعوة تاريخ الرابع والعشرين من شباط وتوزّعت المئات منها ما بين الموصل وبغداد والديوانيّة والبصرة. فرحة لا تكتمل بدون منغّصات.

ـ ماكو إجازة.

جنّت ورديّة حين رفض وزير الصحّة طلب الإجازة الذي تقدّمت به للزواج والسفر في رحلة شهر العسل. رفض الوزير، أيضًا، طلب جرجس واتصل بنفسه برئيس صحّة الديوانيّة وأبلغه بقراره. كتب أن المستشفى يحتاج لهما في تلك الفترة. سرت همهمات هنا وهناك لتفسير الرفض. وزير شيوعي ينتقم من طبيبة تقود منظّمة النساء المحسوبة على القوميين ومن خطيبها الناصريّ الهوى.

دموع ورديّة لا تنتظر حجة. تقف جاهزة عند المآقي. وضحكات جرجس لم تعد تجلجل في الردهات. يتحرّك غاضبًا ويتّصل بهذا وذاك من الكبار طالبًا التوسّط لدى الوزير. وكان قائد الفرقة الأُولى قد تلقّى، مثل الآخرين، بطاقة الدعوة

ولم يصدّق موقف الوزير. ثار وقال للعروس:

- ستتزوّجين في الموعد المحدّد ولو تطلّب الأمر تحريك الدبابات.

خافتورديّة أكثر وسفحت مزيدًا من الدموع. إنها تريد حفلة عرس لا انقلابًا عسكريًّا. تستنجد بشقيقها في بغداد لكي يتدخّل لدى معارفه الكثر. لكن المعارف يتوارون ولا يلبّون. الكلّ مُتوجّس وأحوال البلد غير آمنة. قاد العقيد الشوّاف انتفاضة في الموصل وفشلت. ما زالت رائحة الدم مقيمة في ساحة الإعدام في أُم الطبول. الصدور تغلي والفتنة تتجوّل بين الناس وسُليمان خلع البزّة العسكريّة وفقد هيبتها. أُحيل على التقاعد المبكّر مع رفاقه من الضبّاط المواصلة.

تستنجد ورديّة به فيقوم ويرتدي بدلة مدنية لا يألفها. يتناول واحدة من بطاقات الدعوة للعرس ويذهب لمقابلة وزير الصحّة. كان الوزير طبيبًا في الجيش وتربطه به معرفة سابقة، يُعلّق على باب مكتبه لوحة تقول" لا رشوة ولا وساطة ولا محسوبيّة". قرأها سُليمان ودخل عليه وبدأ زيارته باستهلال جميل. إنّ الكلمة الطيبة يمكن تفكّ أعتى العقد وورديّة لن تتزوّج بدبابات آمر الفرقة الأولى، بل بالتفاهم. قدّم بطاقة الدعوة للوزير واعتذر منه لأنّه لم يزره لتهنئته بالمنصب. إنه يعرف كثرة مشاغله ويقدّر أن لا وقت لجنابه للمجاملات. رجاه أن يشرّفهم بحضوره لاسيما وأن العريسين من موظّفي وزارته. يبتسم الوزير ويُرحّب ويصلان إلى لبّ الكلام:

ـ أبا فلان، ما جئتك لوساطة أو محسوبيّة أو رشوة. جئت أطلب حقًّا.

يلقي سُليمان مرافعته كما يليق بمحامٍ يمسك بمقاليد اللغة. إن من حقّ شقيقته أن تنال إجازة تتزوج فيها وتسافر لقضاء شهر العسل بعد سنوات من العمل المضني في المستشفى. يصغي الوزير ولا يعلّق. يتناول المظروف ويلقي نظرة على بطاقة الدعوة. ترتدي ملامحه سيماء الجدّ ويرفض أن يتراجع عن قراره.

ـ لا يمكن لمستشفى الديوانيّة أن يستغني عن طبيبين في وقت واحد.

ينهض سُليمان ويتمتم بإنه لا يجد أمامه، في هذه الحال، سوى التوجه للصحف لنشر إعلانات عاجلة. لابد من تبليغ الأقارب والمدعوين بتأجيل موعد الزواج لأنّ وزير الصحّة رفض منح إجازة للعروسين. يبدو الحرج على الوزير فيقوم ويمنع صاحبه من المغادرة. إنه يعرف أنّ الرجل لا يهدّد من طرف اللسان. عنيد هو ويفعلها. يضحك ويمدّ يده ويصافح ضيفه:

ـ مبروك، إجازة لمدة شهر لا تزيد يومًا واحدًا.

تزوّجت ورديّة وطارت مع جرجس إلى أُوروبا. نزلا في فيينا وفرانكفورت وجنيف ولندن وروما وأنهيا شهر العسل في

بيروت. أرادت العروس التمتّع بأول وآخر سفرة متاحة لها قبل أن تعود إلى الردهات والعيادة، إلى رائحة الدّيتول والمعقّمات. إنها ترتدي، لأول مرّة، قفازات من الدّانتيل والقطيفة بدل كفوف البلاستيك التي تجوس بها في كهوف مريضاتها. لكنّها لم تحقّق حلمها برؤية باريس ولا حقّق جرجس حلمه بزيارة القاهرة، موطن جمال عبدالناصر، لأنّ سفر العراقيين كان ممنوعًا إلى فرنسا ومصر.

عادا إلى الديوانيّة واستأجرا عيادتين متقابلتين في حوش منزل قديم. وكان باب عيادته مشرعًا دائمًا للأصدقاء والزوّار وباب عيادتها مغلقًا على ما خلفه من أسرار النساء.

٢٤

منديل ورقيّ يصلح لتجفيف الدموع. هكذا جاءت هندة.

فرحتورديّة بالطفلة لأنها أُنثى، مثلما طلبتها من العذراء وحدّدت جنسها في صلواتها.

ـ أريدها منكِ بنيّة يا قديسة مريم، لا أُريد ولدًا ولا حسدًا.

خافت أن تتكرّر تجربة بكرها سرمد الذي ولد قمرًا مكتملًا ثم مات وهو في شهره الثالث. تسرّب من بين يديها دونما أيّة علّة. وقف والداه الطبيبان عاجزين عن إنقاذه.

جنّتورديّة وفقدت ثقتها بنفسها كأُم وكطبيبة. جاءت العلويّة شذرة وكتبت لها الأحجبة وألحّت عليها أن تتشجّع وتحبل مجدّدًا.

ـ الجاي يعوّض الّلي راح.

لا ولد يعوّض ولدًا. كانت تخشى العين ولا ترغب في إنجاب الذكور. إلى أن جاءت البنت. سمّوها هندة لشعرها الحالك الكثيف المنسدل على جبهتها الضيّقة. وبخلاف سرمد الذي كان مربربًا وولد بقيصريّة، خرجت مثل ضرطة مفاجئة. برطة في الحمّام. رأس صغير وجسم هزيل وحساسيّة شديدة لأيّ حليب اصطناعيّ. أرضعتها ورديّة حتى انتهت إجازتها وحان وقت عودتها إلى الدوام. جرّبت أن تسقيها حليب البودرة لكن الطفلة تقيأته. أصابها الإسهال وارتفعت حرارتها وخافوا عليها. واللي تعضّه الحيّة يخاف من جرّة الحبل.

أسرعوا بها إلى بغداد وعرضوها على الدكتور علّاوي. فحصها وقال:

ـ لا يناسبها سوى الحليب الطبيعي أو حليب الأتان.

ـ الأتان؟

ـ أُنثى الزمال، يعني يلزمها حليب حمارة.

تذكرت ورديّة أن والدتها، حين بلغت سن اليأس، كانت تختنق بهبّات الحرارة. ثم نصحتها امرأة ألقوشيّة بأن تذهب

إلى باب الجسر العتيق في الموصل، وهناك تحلب لها إحدى الفلاحات حمارة وتسقيها من حليبها. اختفت الهبّات ولم يعد العرق ينسّح من جبهتها ويتحوّل وجهها إلى لون الدم.

ـ شلون أسقي الطفلة حليب زمالة؟

ـ وهل أنتِ أحسن من السفير الفرنسي؟

قال لها علّاوي إن الطفل نجل السفير كان مصابًا بحساسية مماثلة. ولما عرضوه عليه وصف له حليب الأتان. وصفة أسعدت المدام، حرم السفير، وأعفتها من الرضاعة التي ستشوّه ثدييها. وبالفعل، جيء بزمالة سمينة وعينوا لها في السفارة راعيًا خصوصيًّا، مسؤولًا عن نظافتها وعلفها. ولمّا انتهت مهمة السفير في بغداد وعاد إلى بلاده شحن الأتان معه في الطائرة إلى باريس.

لم تطمئنورديّة لنصيحة الطبيب المعروف، ولم تلتزم بها. وبدأت في الديوانيّة حملة للبحث عن مُرضِع لهندة، تتولّاها حين تذهب والدتها إلى المستشفى والعيادة. وحلّ الفرج من حيث لا تدري ولا تتوقّع. جاءتها إحدى مريضاتها السابقات ومعها ابنتها المتزوّجة. قالت إنها نذرت أن تقوم ابنتها شرارة بخدمة الدكتورة لمدّة شهرين. إنها مستعدّة لإرضاع الطفلة. وكانت ورديّة تعرف شرارة. شابّة فارعة الطول تزوّجت وتأخّر حملها وأجهضت ثلاث مرات قبل أن تلد الطفل المُنتظر. جاء هزيلًا عليلًا وأُصيب باليرقان وهو في شهره الرابع. وصل إلى الموت.

ـ لولا الرحمن ويدكِ المباركة يا دختورة لما عاش الولد.

وجدت نفسها حائرة أمام المُرضع المتطوّعة. إنها ليست خادمة ولا فقيرة تحتاج لبيع حليبها. ووالدتها أشهر بائعات القيمر في الديوانيّة. لديها قطيع من الجاموس تحلبه وتعيش من خيره. ورغم طيبة الزائرتين وإصرارهما على رد الجميل، ترددت ورديّة في القبول. لا يجوز أن تنذر امرأة نذرًا مثل هذا. لكنّها كانت في أمسّ الحاجة إلى شرارة، وخشيت أن تتحمّل وزر النذر إذا لم يُوفّ، في حال امتناعها عن قبول الخدمة. وقد يحصل للطفل مكروه وتلوم نفسها.

سألت جرجس فقال إن المرضع ووالدتها تحلبان الجاموس وتخالطان الروث وقمل المواشي. إنّ عليها أن تتأكّد، أولًا، من سلامتها من أيّ مرض يمكن أن ينتقل إلى هندة، وهي أصلًا ضعيفة ومضعضعة الصحة. ولكي لا تحرج شرارة، أصرّت ورديّة أن تجريا، سوية، فحصًا للدم للتأكّد من صلاحيّة الحليب لهندة. وذهبتا إلى المختبر وتمّ سحب الدم منهما، في وقت واحد، وجاءت النتيجة سليمة.

اشترت للمرضع دشداشة جديدة وأعدّت لها حمّامًا خاصًّا في بيتها. تذهب شرارة لتسديد النذر وتأخذ ابنها معها. تدخل حمّامها وتغتسل وترتدي دشداشة الرضاعة. يأتي لها غسّان بطاسة من محلول البوريك لتعقّم صدرها. وكان الاتفاق أن تُخصّص ثدي اليمين لولدها وثدي اليسار لإرضاع هندة.

يحدث، أحيانًا، أن يمرّ الخادم من أمام الغرفة المطلّة على

الحديقة. يقرّب رأسه ويتطلّع من الشباك. يرى هندة غافية والـمُرضع تُلقم ولدها النهم حلمتها اليسرى، فيصيح:

ـ شرارة لا تزاغلين... هذا ديسنا.

ـ نزول عليك غسّان... فزّزتني وراح يشوط حليبي من وراك.

إنقضى شهرا النذر ورفضت أُمّ شرارة تمديد المهلة. لن يحلّ المشكلة سوى العلويّة شذرة. ذهبت إليها ورديّة لتساعدها في العثور على مُرضع جديدة. إنها موسوعة معارف جامعة شاملة في ما يخصّ نساء البلدة والنواحي. وبفضلها عرفوا بستانة. دخلت إلى بيتهم وصارت فردًا جديدًا في الأُسرة، أُمًّا ثانية لهندة. أرضعتها، وحنّت عليها، حتى بعد أن فطمت الطفلة وكبرت وذهبت إلى المدرسة. وحدث أن عانت ورديّة من حمل، خارج الرحم، وسافرت إلى بغداد لإجراء جراحة عاجلة. وبقيت بستانة في بيتهم طوال غيابها، رغم أن لها بيتًا وزوجًا وطفلة في الرابعة. تفرش معهم وتنام في غرفة أُم جرجس، أو على السطح، ومهد هندة بجانبها. ولم يعد غسّان يستوقف لها عربة الربل التي تعود بها في المساء إلى بيتها. ولـمّا عادت ورديّة، كان حليبها قد نشف في صدرها بعد العمليّة. ما عادت قادرة على تأمين رضعتي الليل والفجر لطفلتها، فأقامت المُرضع عندهم ليل نهار.

تذهب بستانة إلى بيتها لساعتين في اليوم، تعتني بزوجها وابنتها وتتلقّى تلميحات حماتها التي تلحّ عليها بأن تحبل، قبل

فوات الأوان. أن تأتي بشقيق للبنت. تقول العجوز إنّ كنّتها لن تقدر على الحمل طالما أنها مستمرة في الإرضاع. رأي صحيح طبيًّا تؤيدها ورديّة فيه وتقرّر أنّ الوقت قد حان لفطم هندة. لقد بلغت سنتها الأُولى وصارت قادرة على المضغ وهضم طعام الكبار.

حملت بستانة بعد الفطام بفترة قصيرة. فرحت ورفعت رأسها أمام حماتها. لكنّها، نكاية بها، بقيت في بيت الدكتورة طوال أشهر الحمل التسعة إلى أن أحسّت بآلام الوضع. صرخت من سطح الدار في منتصف ليلة صيفيّة حارّة؛ سمعتها وردية التي تنام في غرفتها تاركة المُبرّدة تدور حتى الصباح. قامت وأخذتها في سيّارتها وذهبتا إلى المستشفى وأنجزت المطلوب؛ وفي الخامسة صباحًا، بعد استراحةٍ وجيزة، نهضت النفساء من سريرها وعانقت الدكتورة وودّعتها. جاء زوجها وأخذها مع وليدها وغادرت المستشفى.

عادت المرضع إلى بيتها، نهائيًّا، فاضطربت هندة ولم تتقبّل غيابها. تدور في الغرف وتناديها و تبكي حين لا تجدها. ترفض الطعام وتطلب بستانة. أخذت وردية إجازة وذهبت مع الطّفلة إلى بغداد. أمضتا أيامًا في البيت الكبير، لعلّ هندة تنسى. لم تكن تفارق حضن بستانة. تشمشم شيلتها السوداء وفساتينها الريفيّة المشجّرة وتمصمص قلادتها ولا تأكل إلا من يدها. ولما سجّلوها في روضة الأطفال، توسّط الدكتور جرجس لكي تشتغل بستانة فرّاشة في الروضة نفسها. تجلس

الطفلة قرب الشبّاك وتقف الفرّاشة في الخارج، تحت نظرها. وحالما يدق جرس الفسحة، تخرج راكضة لتجد مرضعتها مقرفصة عند باب الصف فتجلس في حضنها.

صدّق كلُّ الأطفال أن هندة هي ابنة بستانة.

٢٥

لولا تلك المجنونة لما تغيّر إيقاع حياتها.

لولا الكوابيس لما أغوتها باريس ولا حواضر العالم كلّه. حتى شوقها للولد والبنتين أصبح واقع حال. تداويه بدمعة خرساء وبحبّتين من المنوّم المغشوش المستورد من الأُردنّ. ظلّت تأمل أن يجتمع شملهم في مكان واحد، بلد واحد أو حتى قارة واحدة، ودحضت كوابيس الليل آمال النهار. وهي قويّة وحكيمة ومُجرّبة، لكنها أضعف من أن تضبط عقلها اللاواعي. لا يمكنها أن تبرمج الأحلام والمنامات.

تطفئ ورديّة التلفزيون وتغمض عينيها لتنام. كانت قد نقلت مبيتها من الطابق العلوي إلى المكتبة المطلّة على الحديقة. لا البيت مُكتظ ولا أوجاع الرّكبتين تسمح بالصعود والنزول. والسّرير الكبير في غرفة النوم يُذكّرها بجرجس. فيه نام وفيه لفظ النفس الأخير. أفلت يدها وراح. ولما شعرت بأنّه ذاهب نزعت عن أنفه كمّامة الأُوكسجين وسقته حفنة من ماء بارد. لن يموت ناشف الريق بعد ستة أشهر من العطش.

في الغرفة الشرقيّة، قرب النخلة الراسخة بين زيتونتين، تحسّ بالأمان وبالكثير من الدّعة. وهي لا تخاف اللّصوص، رغم أنّ العصابات تسرح في طول بغداد وعرضها. باعت السجّاد العجميّ وملاعق الفضّة وثريّات الكريستال ولم يعد لها سوى خاتم زواجها. السمّاعة الطبيّة وأكوام الأدوية المكدّسة في الجوارير، كُتُب زوجها ومُجلدات مجلّاته مصفوفة فوق أرفف المكتبة. تتسلّى بمسح الغبار عنها كلّ يوم. لم تُرد التفريط فيها لأنّها كانت عزيزة عليه. يسمّيها كنزه. ولآن لا أحد بات يريدها، حتّى اللصوص يعافونها. توافه لا تغري الحراميّة. إنّهم قادرون على أن يمسحوا المنازل بأجهزة كشف المعادن ويصنّفونها حسب الأولويّة. بيت يبيّض ذهبًا ويستحق الزيارة وآخر يفقّس تنكًا ولا يستاهل التشريف.

تغمض عينيها وتنام فتبدأ قناة الكوابيس بثّها، على الهواء، في رأسها. وقد جرّبت التفكير بالعذراء مريم، قبل النوم، عسى أن تحضر لها في المنام. هذا ما كانت تفعله المرحومة جولي كلّ ليلة. وكانت مريم تقف وراء الستار، جاهزة للدخول إلى مسرح الحلم. جرّبت، أيضًا، أن تتفرّج على صور أحفادها الثلاثة البعيدين في كندا، لعلّهم يزورونها وهي غافية. لكنّ العذراء سادرة عنها والأحبّة مشغولون بحياتهم وليس من يهتدي إليها سوى ذلك الكابوس اللجوج الرهيب. تقرّر أن تقفل باب عقلها في وجهه، لكنّه يمتلك المفتاح الذي يدور في كلّ الأقفال.

تقدّرون وتضحك الأقدار. تستعين بالعبارة التي كان يرددها سُليمان وهو يواجه تقلّبات دُنياه وأحوال أبنائه وبناته. لقد حفظوا العبارة عن ظهر قلب وآمنوا بها. لكنّ صغراهن أرادت أن تتمرّد على ما كان مُقرّرًا ومكتوبًا، وطلبت منه في لحظة طيش طلبًا جريئًا.

ـ بابا، هل تأخذني إلى لندن في حال حصلت على معدّل ثمانين في الثانويّة؟

ـ هل تعرفين أن جدّك اسكندر عاش سبعًا وستين سنة دون أن يمدّ قدمه خارج الموصل؟

ـ إحنا وين وجدّي وين؟

ـ كافي استهتار.

صرخ صرخته فازدردت البنت لسانها ولم تكرر ما يعتبره الأب استهتارًا. يتلفّظ بالكلمة، على مهل، بعد أن يفرزها إلى ثلاثة مقاطع. إس... تِه... تار. ترسخ المفردة في الذهن لا تبارحه. لعلّه كان يشكّ في أن تكون لندن مسجّلة في دفتر أقدار ابنته الصغرى. لعلّه كان يعاند الغيب. غيب أعشى عصيّ على القراءة، جعل البنت تتزوج، بعد سنوات، شابًا موفدًا للدراسة في لندن، ترافقه وتكمل دراستها هناك وتعود لتعمل في الحكومة وتُفصَل من عملها لأنّها غير حزبيّة وتهاجر إلى ما هو أبعد.

طشّاري. هذا ما تكتبه ابنة شقيقها الحبّابة. تنظم شعرًا عن

الأعزاء الذين تفرّقوا وما عاد يمكن لشملهم أن يجتمع إلّا في أطلس الخرائط. شاعرة رومانسيّة تختلف عنها. وهي لا تريد أن تنزلق وراءها إلى فخّ الحنين. إنه مرض نفسيّ يهاجم أهل الهشاشة ويصيب المهزومين. لا تميل ورديّة إلى تذكارات ما يسمّونه زمن الخير. الخير في ما اختاره الله. هكذا لقّنوها منذ يفاعتها فسارت على الدرب لا تتلفّت ولا تحتجّ. وقد كان الغيب ماكرًا معها ودفع بها إلى أقصى التّخوم. إعتادت ألاعيبه وما عادت تتعجّب من أيّ طارئ يقرع عليها باب شيخوختها.

أخذها الغيب خارج حدود الموصل وسمح لها بأن تدرس في بغداد. ألبسها الصدريّة والقناع الأبيض وانتزعها من حضن العائلة المحافظة. زرعها في الديوانيّة فرأت دنيا أُخرى واختلطت اللهجات على لسانها. سمح لها الغيب المحتال بأن تطوف مع عريسها في مدن أُوروبا ومنحها فرصة نادرة لم تحصل على ما يشبهها. كانت إجازاتها الوحيدة هي تلك التي ترقد فيها لتضع مواليدها ثم تنهض قبل أن يجفّ دمها. تلد في المستشفى نفسه الذي تعمل فيه كلّ يوم. مبنى يختصر دوامها واستراحاتها وأوجاعها وحبّها. تألفه وتتنفّس فيه ملء رئتيها، تستنشق عبق العباءات الكثيرة الواقفة والجالسة أمامها والأعناق الممدودة من كلّ صوب. لا تتضايق من روائح الأجساد والأفواه والآباط. ترفع الأثداء والبطون المترهّلة وتمسح طيّات الجلد بالقطن والمُطهّرات. كانت مثل

الشرطيّ الذي يذهب إلى المخفر، حتى في يوم عطلته، لأنه المكان الوحيد الذي يشعر بقيمته فيه. ولولا تلك الشابّة المفخّخة التي تزورها في الكوابيس لما تركت ورديّة العمل في العيادة حتى يأتيها عزرائيل. سيأتي ويفاجئها منكبّة على سرير الفحص، ترتدي الكفوف المعقّمة وتعبث بالفروج. أو لعل الحياء كان يمنعه فيتأخّر. يفسح لها في الوقت لكي تنتقل إلى بغداد وتتقاعد من الوظيفة وتفتح عيادة أُخرى. تعمل ولا تتذكّر سنوات عمرها.

تراها في المنام داخلة إلى العيادة وهي ترتعد. تلمّ عباءتها على جسمها وتدفع المريضات لكي تدخل قبلهنّ إلى غرفة الفحص. تردعها الفرّاشة وتطلب منها الجلوس في غرفة الانتظار حتى يأتي دورها. تنتفض بعصبيّة:

ـ ضمّوني عندكم... راح أموت.

تفكّر ورديّة أنّ الفتاة يمكن أن تكون حاملًا بدون زواج. تستعدّ لكي تصرفها من العيادة. لا تنصرف المريضة بل تزداد رعشتها وتقلب عينيها وتوشك أن تتهاوى على الأرض. تتلقاها الفرّاشة وتساعدها على بلوغ سرير الفحص. وجهها شاحب وحالتها غريبة. تضع الطبيبة السمّاعة على صدرها فتصطدم بطبقة قاسية. تحاول أن تزيح ثوب المريضة لكنها تنتفض وتدفعها. تفتح جفنيها وتقبض على ذراعيَ الطبيبة. دموعها تجري وشفتاها مزرقّتان:

ـ ما أريد أموت... ما أريد أموّتكم وأموت.

ترفع فستانها فترى ورديّة صدرها محزّمًا بحشوات بيضاء وبنيّة وخضراء. لفائف مرصوصة بشريط لاصق مثل نطاق الذخيرة الذي يرتديه الجنود. تتجمّد فلا تستطيع الإبتعاد. ترى الذراعين تعاودان التشبّث بها وكأن صاحبتهما تطالبها بأن تقيدهما فلا تفعلا ما عليهما أن تفعلا. تتقابل الأعين الأربع ويتشابك الرعب فيها. فزع الحيوان أمام بندقيّة الصيّاد. تحفّز الصيّاد في مواجهة الطريدة. تهرب الفرّاشة إلى الخارج وهي تصرخ:

ـ حزام. مفخخة. يبووو.

ينتقل المسّ الكهربائيّ إلى النساء في غرفة الانتظار. يتركن عباءاتهن ونعالهنّ وأكياسهنّ وعربات أطفالهنّ ويتدافعن للخروج إلى الشارع. لا يبقى في العيادة سواهما. تفكّ ورديّة نفسها من القبضتين المتشنّجتين وترجع إلى الخلف. تتعثّر بالكرسيّ وتتهاوى أمام المكتب الحديديّ. تحاول النهوض فلا تسعفها ركبتاها. تلفّ رأسها بذراعيها وتنتظر أن تسمع الدويّ. ثوان تمرّ دهورًا. تصلّي أن ينتهي الأمر بسرعة وتلمع في ما تبقّى من وعيها صورة جرجس على فراش موته. تريد أن تحتمي به وتعطيه يدها ليسحبها إليه لكنّ ذراعها لا تستجيب. تغيم الدنيا فتتصوّر أنّ الكهرباء قد انقطعت. يدور رأسها فتسلّم نفسها للفراغ الخفيف. وقبل أن تغيب تسمع اصطكاك أسنان الفتاة.

ـ ممما أريدددد أممموت.

ـ سلامات دكتورة. كل شيئ انتهى.

تتعرّف على الصوت الأجش لصاحب الصيدليّة المجاورة. تفتح عينيها وتحاول أن تتحرّك. تجد نفسها ممدّدة على الأرض، بين أرفف الأدوية، مغطّاة بعباءة رجاليّة ورائحة كولونيا تفوح قرب أنفها. نفير سيّارات الشرطة يصدّع رأسها. تلمح وجوهًا كثيرة مُنكبّة فوقها، تعرف أصحابها أو لا تعرفهم. عشرات الأفواه التي تحمدل والأكف التي تطشّ الماء. تتبلّل ثيابها. في رقادها أم في الكابوس؟ ترى ضابطين يبعدان الحشد عنها. ينهران الموجودين فيهدأ المكان. يبركان بجوارها على الأرض.

ـ هل تعرفينها... هل هي من مريضاتك.

تحتاج لأن يأتي أحد لها بكرسيّ ويساعدها على النهوض. تخجل من وضعيّتها على الأرضيّة الباردة. تتلمّس وجهها وتحاول أن تتفقّد حقيبتها. تفكّر بياسمين وتخاف عليها من وقع الخبر.

ـ ما أعرفها... ما شايفتها... شصار؟

ـ جبنت وما فجّرت حزامها. ذبيناها جوة. لا تخافي.

يمرّ الموت سهلًا بمحاذاتها. يمضي دون أن يطلبها لمرافقته. يترك لها صورة تلك الحبلى بحزام ناسف وشريطًا مسجّلًا مدسوسًا في أُذنيها لصكيك أسنانها. لا يمكنها أن تمحوَ من عقلها مشهد الفتاة المذعورة ذات العينين

المقلوبتين، تمدّ أصابع متخشّبة لتتشبث بحلاوة الروح، تتمرّد على موت مبرمج.

٣٦

كلّ شيئ في الحياة ينمو ويزدهر، حتّى الموت. حتّى عمّتي. أنظر إليها فأراها تتراجع في العمر وتقترض شيئًا من ألق الصبا بدل أن تتقدّم في الشيخوخة. كأن جسمها خفّ منذ أن جاءت إلى باريس ووضعت رأسها على وسادة الطمأنينة. دبّت أطياف حمرة في خديها واستقرّ اللون الرماديّ في شعرها، لا يريد أن يتقدم ويجتاح بقيّة الرأس. إكتفى البياض بما غنم وترك لها الباقي تتباهى به. تمويه لطيف يفيد ولا يضرّ.

تركت العمارة القذرة إلى شقّة صغيرة خصّصوها لها في طابق أرضيّ، يناسب ذوي الكراسي المتحرّكة. تقوم وتقعد وتدبّر أُمورها بنفسها. تعتني بنظافتها وثيابها مستعينة بالمماسك المعدنيّة المثبتة في الجدران. تمدّ يدها إلى المقبض الفضيّ فيساعدها على النهوض من الفراش والوقوف تحت الدوش. ترتاح للمكان الجديد في كريتاي، قريبة مني، لكنّها تفتقد النافذة الشاهقة المطلّة على بحيرة غرينبي.

لا يأتي ساركوزي بالضيوف ليتركهم تائهين في الطبيعة. يطلب مركز قبول اللاجئين أن يعودوا إلى المدرسة ويتعلّموا

لغة البلاد. يخصّصون لعمّتي راهبةً تزورها في أيّام محدّدة لكي تعلّمها الفرنسيّة؛ معلّمة عجوزًا مثلها، تجيد بعض الإنكليزية فتتفاهمان بها. جاءت لها بقاموس صغير صار تسليتها في الليالي. إنّ نظرها ما زال حادًّا ولا تحتاج، مثلي، للعوينات المكبّرة التي تباع في الصيدليّات والبسطات الشعبيّة. تتمنّى لو أن سمعها لا يخذلها لكي تعمل متطوّعة في المستوصف القريب الذي تتردّد عليه نساء مهاجرات.

ـ عمّة... تعبتِ بما فيه الكفاية.

ـ أتمنّى لو أشتغل طبيبة هنا ولو لشهر واحد.

تدهشني رغبتها في العمل وفي أن تقود سيّارة في شوارع باريس. كأن السّياقة هنا أرفع من السّياقة هناك. إنجاز رياضيّ تسعى لإضافته إلى صفحتها. تركب معي وأتردد في أن أترك لها المقود. نذهب إلى المرأب الواسع المفتوح أمام المجمّع التجاريّ ونتبادل المقاعد. تفرح مثل طفلة وهي تسوق وتلفّ بين صفوف السيّارات المتوقّفة. تضجر من الوحدة لأن لا زائرة لها غيري وتترقّب ساعة حضور الراهبة معلّمة الفرنسيّة. تستعد لها بإبريق الشاي والمكسرات. تستحضر مهاراتها وتحاول أن تعد لضيفتها كبابًا بالطاوة وحلاوة الطحين بالدهن. تنجح في المحاولة أو تفشل والراهبة تلتهم كلّ شيئ وعمّتي تفرح بضيفتها.

ـ بليز تيك مور.

كفّاها بارعتان في مهارات النساء إلّا الطبخ، وقد تولّت

حماتها المهمّة وتركتها للقضيّة الكبرى، التطبيب. تجمع المنشورات الصحيّة من العيادات، التي نذهب إليها، وتحاول أن تفكّ رموزها. تنتهز فرصة مجيء المعلّمة فتدخل معها في حوار حول العالم. لا تعترض الراهبة الطيبة وتجد في الحديث مع الدكتورة العراقيّة فرصةً لتوسيع معلوماتها وتقوية لغتها الإنكليزيّة.

أطمئنّ عليها لأنّها تقيم في شقّة عصريّة، كل شيئ حولها يأتمر بالأزرار. مصابيح الإضاءة وستارة النافذة وقنوات التلفزيون والهاتف المضخمّ للصوت، كبير اللمسات مُبرمج على رقمي وعلى أرقام أبنائها في هايتي وتورنتو ودبي. هواتف الطوارئ والجيران. نصحتها ألّا تخابر الأولاد كلّ يوم بل تنتظر أن يتصلوا بها. الكلفة عالية والإعانة محسوبة بالسنتيم، على قدر الضروري من لوازم العيش. أعود إلى بيتي، بعد الإطمئنان عليها، وأتخيّلها تمضي نهاراتها جالسة أمام التلفزيون، في كرسيّها الرماديّ ذي المسندين، تمدّ ساقيها على التختة القماشيّة وترمق الهاتف. تنتظر أن يطلبوها بعد أن يعودوا من أشغالهم. يجمح شوقها إليهم، في الأيام الغائمة، ولا يعود الدمع نافعًا. الأيّام غائمة في ثلاثة أرباع السنة. تأخذ السمّاعة وتطلبهم. تتطلّع إلى ساعتها وتحسب فوارق التوقيت بينها وبينهم.

كلٌّ شيئ حولها ينمو ويزدهر.

حتى المقبرة الإلكترونيّة التي ابتدعها لها اسكندر نمت وتفرّعت وتعدّد نزلاؤها.

إزدهر، أيضًا، التواطؤ الجميل بين ولدي الوحيد وعمّتي. إنّها الأخيرة الباقية من الجيل القديم لنساء العائلة. فيها رائحة بيت جدّي في الموصل. أحبّها وأرتاح حين أرى اسكندر يتفاهم معها ويترقّب زياراتها. أخشى أن ينشغل بمشروعهما الخرافي ويهمل دراسته. إن الدائرة تكبر وتتّسع وتأتي طلبات جديدة للإنضمام إلى المقبرة وتجميع عظام العائلات. سمع المهاجرون بها من الأخبار التي يتناقلونها في الكنيسة، بعد القدّاس. إعترض بعضهم وعربد واعتبرها مخالفة للإيمان. وتحمّس لها الشباب. وجدوا في مقبرة العراقيين الإلكترونية حلًّا سحريًا ولطيفًا لمواجهة الشتات. هؤلاء مثلي، أصغر مني لكنهم يعيشون حسرة طير اليباديد الذي جعل قبور آبائهم وأهاليهم شذَرَ مذَرَ. طلقة طشّارية في بلاد الله الواسعة.

كانت سهيلة يونان أوّل من اتصل بي. إنها تريد قبرًا لإبنها رعد بجوار قبر والده الذي استشهد في حرب الكويت. ظلّت جثته في العراء طعامًا للصقور ثم جيء لها برفات رمزيّة دفنتها في قبر رمزيّ لا يشفي الغليل. تروي الحكاية وكأنها تحفظ صلاة. فقدت الزوج وكرّست عمرها لوحيدها رعد. رعته حتى صار رجلًا يرعاها. لكنّهم خطفوه من شارع فلسطين راتصلوا بها، من هاتفه، يطلبون فدية .

ـ بعت حالي ومالي ودفعت لهم... وما رجع رعّودي.

إنتهى بطلقة رعناء. وخرجت تبحث عنه وتنبش تراب العراق لتعثر عليه. أنقل طلب سهيلة إلى اسكندر لكنّه يتمنّع

لضيق الوقت. يهدّدني بأنّه سيسقط في الإمتحان ولا يستطيع أن يفتح مقبرته لكلّ القتلى المبثوثين في البلاد. إنّ ألف مساعد لا يمكنهم إنجاز المهمّة.

ـ ماما... قولي لمعارفك إنّنا لن نقبل سوى أصحاب الميتات الاستثنائية.

قالها بالفرنسيّة. اكسترا أوردينير. يدهشني أن أتطلّع إلى ولد حملته في بطني ولا أعرفه بما يكفي. تفاجئني مواقفه العمليّة والباردة وأجتهد لكي يكون عطوفًا وذا حنان. أشعر أنّ أباه كان على حق حين اعترض على الفكرة، منذ البداية. عاتبني أولًا، ثم أنّبني وغضب لأنني رضيت بأن يتحوّل الولد إلى دفّان موتى. يصمّم القبور بدل أن يدرس ويصبح مهندسًا متخصّصًا في البرمجة المعلوماتيّة. لكنّ اسكندر لم يكن دفّانًا في نظر عمّتيورديّة، بل فنّان موهوب، يرسم الأضرحة وينحت الشواهد ويزرع حولها الأزهار التي تختارها العائلة. يطلب صورهم القديمة ويزيّن بها قبورهم. يُرفق الصور بالموسيقى والأُغنيات التي كان المرحومون يحبّونها والمرحومات. يغلق باب غرفته ويستغرق في إبحاره داخل الشّاشة. ينقر ويطبع ويبحث ويتفرّج ويطوف عكّا ومكّة، كما كانت والدتي تصف من يذهب إلى أقاصي الدنيا. تلك كانت حدود عالمها. لا حدود لعالم هذا الولد.

جاءت سهيلة يونان تزورنا ومعها مغلّف سميك جمعت فيه كلّ متعلّقات ابنها المغدور: صوره، دفتر الخدمة العسكرية،

شهادة الجنسية، وثيقة التخرّج في معهد النفط، وشهادتيّ ميلاده ووفاته. ورقتان مدعوكتان بينهما خمسة وثلاثون عامًا. وحين عاد اسكندر إلى البيت فتحت حقيبتها الكبيرة وأخرجت منها كأسًا فضيّة من التي تُوزع للرياضيين. قالت:

ـ كان رعّودي بطل المعهد في الشطرنج ثم... كش مات.

تهيّأتُ لحفلة من النحيب لكنّ سهيلة لم تبكِ. إرتاحت وشربت العصير وطلبت من اسكندر أن يسمع القصّة الاستثنائيّة التي ستؤهّل ابنها لدخول المقبرة الإلكترونيّة.

٢٧

وقفت العباءات السود الثلاث في باب عيادتها في الديوانيّة. إمرأتان وفتاة ترتدي دشداشة واسعة وتشبك يديها على بطن منتفخ. كانت دون العشرين، عزباء وحلوة وغير هيّابة. تكحُل عينيها وتتلاعب بهما في كلّ الإتجاهات. كانت قد أقنعت أُمها وخالتها بأنها تعاني من سوائل محتبسة في معدتها. راحت الوالدة تتوسّل وهي تطلب من الدكتورة أن تنقذ ابنتها. أن تسحب الماء من بطنها قبل أن يطقّ.

فحصتها ورديّة فحصًا خارجيًا وهبط قلبها. مدّت يدها باحتراس في المهبل فوجدته سالكًا. راحت كفّها اليمنى تتحسّس جوف الفتاة بينما اليسرى تضغط على أحشائها. إنّ

يمناها لا تخونها والحالة لا تقبل الشك. أصعب موقف تمرّ به. إلتفتت إلى المرأتين:

ـ هل معكما أحد من رجال العائلة؟

ـ لا...

ـ من أهل وين؟

ـ من الرميثة.

يعني عشائر وشرف وخناجر تنحر المارقات. قامت وأغلقت الباب لكي لا تسمع الفرّاشة الحديث وهمست للأمّ أن البنيّة حامل في شهرها الثامن وستلد طفلًا صحيحًا خلال شهر. كأنما المرأتين كانتا تنتظران النّطق بالحكم لكي يبدأ الندب ولطم الصدور وتخميش الوجوه والتمرّغ على الأرض. تنتحبان بلا صوت وتخنقان الغصّات. تزحف وقد تشبثت بساقيّ ورديّة:

ـ إستري علينا دختورة ألله يستر عليج.

نجّنا يا يسوع. كلّ شيئ إلا هذا. ترعبها الكلمة فتهرب منها وتتحاشى التلفّظ بها. تدرك أن القدر يضحك عليها ويسخر من خوفها. يلفّ ويراوغ ليضعها في الموقف الذي تخشاه. يزدريها لأنّها لا تجرؤ على مواجهة حقائق الحياة وترفض الإقرار بالشّطط والنزوات وسطوة الغريزة. طبيبة تنكر أبسط ألغاز التكوين. تلتزم بالقوانين والمقدّسات وتشيح بوجهها عن الطبيعيّ والبديهيّ. ذكر يلتقي بأُنثى وتندلع

الشرارة وتحرق محاذير العقل والأخلاق والدين. تتعجّب زميلاتها اللواتي سبقنها إلى المهنة من قلقها. يقلن إنّه روتين يصادف كلّ أطباء أمراض النساء. لكنّ ما فيها ليس قلقًا بل قناعة راسخة. أمر لا علاقة له بقَسَم الأطباء أو الخوف من المساءلة القانونيّة. إنها تخاف ربّها، تصوم وتصلّي وتلتزم بوصايا الله والكنيسة. وقد جاء في الوصايا العشر: "لا تقتل". لن تجهض حبلى ولن تقتل طفلًا. كلام سليم في العموم. لكنّها، في تلك اللحظة، أمام روحين معرّضتين للموت وواجبها أن تنقذ الأمُ والجنين معًا.

- دخيلج وكعيه... نبوس رجليج.

نزلت المرأتان جاثيتين على قدميها وهي لا تعي ما تفعلان. لا تدري كيف تتصرّف. يدور عقلها للعثور على حلّ آمن. تطلب من السّماء أن تلهمها ولا تخذلها. تفكّر بسرعة وتتخذ قرارها. ستُدخل الحامل إلى ردهة الباطنيّة وتكتب في ملفّها الطبي أنّها تعاني من الاستسقاء. لن ينكشف أمرها لبقيّة المريضات. تتذكر أنّ المسيح غفر لمريم المجدليّة وتحدّى من كان بلا خطيئة أن يرميَها بحجر.

أخبرت المرأتين بالحلّ ووافقتا على الفور. قالت للأمُ:

- بعد الولادة تأخذين ابنتك وتهربين بها ونحن نتكفّل بالطفل.

شمّرتورديّة عن ساعديها واستعدت لما سيأتي. تستلّ من الضعف قوّة. تقترب من الحياة الحقّة بخطى وجلة فتجد ألوانًا

شتّى من الخطايا والعقابيل والدموع والتوسّلات. مواقف شجاعة قد تتحوّل إلى فِخاخ لأصحابها. لكنها اتخذت القرار وعليها تنفيذه. صرفت مريضاتها وأقفلت عيادتها قبل الموعد ونقلت في سيّارتها ثلاث نساء متورّمات العيون، مخمّشات الوجوه، إلى المستشفى. تفكّر، في الطريق، أنها ستتفاهم مع الطبيب المقيم وتخبره بأنّ الأمر كذا وكذا. وهو قد يرفض أو يتواطأ. كان شابًا طيبًا ومن دفعتها في الكلية فتشجعت وصارحته ووافق على قرارها. استدعت إحدى الممرّضات واستحلفتها أن تكتم السر عن بقيّة زميلاتها. خافت أن يفاجئ البنت المخاض، ليلًا، وهي خارج الدوام.

ليلة ليلاء. لو كان سُليمان هنا لقال إن تلك كانت ليلة ليلاء. صعدت إلى غرفتها لتنام ولم يغمض لها جفن رغم تعبها. ظلّ عقلها صاحيًا وقلقها يتزايد. قامت وأوقدت شمعة أمام صورة العذراء مريم ثم حاولت أن تغفو. وحالما شقّ الفجر ركبت سيّارتها ومضت إلى فيلّا فرنجيّة، تريد أن تلحق برئيس الصحّة وهو في بيته. الموضوع لا يحتمل الكلام في المكتب.

ـ أدخلتُ حالة حمل غير شرعيّ إلى ردهة الباطنيّة.

ـ يحرق دينك... بدّك تكلبشينا؟

دافعت عن قرارها وأخبرته أنّ الفتاة في شهرها الثامن. لو أخذوها إلى قابلة لتجهضها فأنّها ستموت ويموت طفلها معها. وإذا لم تمت على يد القابلة فعلى يد الأب أو الأخ.

في المستشفى جرت الأُمور بشكلها المعتاد وكأنّ المريضة تتعالج من الاستسقاء. كانت سفيهة وعلى وقاحة. تقفز من سريرها حين ترىورديّة تقوم بجولتها الصباحيّة في الردهة. تتخصّر على بطنها المنفوخ وتطلق صوتها عاليًا وتطلب أن تخرج لتذهب إلى أقارب لها في البصرة.

- ليش دخلتيني المستشفى؟ يعني على التمّنات والمرقة؟

يفور دم ورديّة فتقرصها لكي تسكت وتلزم سريرها. تهدّدها بأنّها ستستدعي لها الشرطة إذا سمعت منها حسًّا. لكنّ البنت كانت جسورةً لا تبالي. ترفض أن تقمع شبابها وأن تعترف بخطيئتها. تنتظر انتهاء فترة الحمل لتعود إلى حبيبها، غير عابئة بالطفل الذي ستتخلّى عنه منذ الصرخة الأُولى. تحمّلت رقودها في المستشفى وكأنّها في السجن. وبعد شهرٍ وثلاثة أيام جاءها الطلق ووضعت مولودًا ذكرًا. وجاءت الأُم والخالة وأخذتاها وهربن ثلاثتهن. وذهبت ورديّة إلى رئيس الصحّة وأبلغته بأن القضيّة انتهت. كأن عبئًا قد انزاح عن كاهلها وكاهله.

ليت القضيّة انتهت.

صار المولود مُدلّل الممرّضات ومحبوب الفرّاشات. يشفقن عليه ويطعمنه ويمشّطن شعره الناعم بأصابعهن. يقطعن القماش السميك لشراشف المستشفى ويصنعن له ثيابًا تقيه البرد. كان شتاء ذلك العام زمهريرًا. جاءت له ورديّة بطاقيّة

صوفيّة من عندها وحليب البودرة ممّا توزّعه الشركات على عيادات الأطباء. حان الوقت لإرساله إلى دار اللّقطاء في بغداد. ولم يعرفوا كيف يسمّونه. بقي بدون اسم لحين انتهاء إجراءات النقل. يقولون الولد فيفهم كل من في المستشفى من المقصود. فكّر الدكتور فرنجيّة أنّ من المناسب الاتصال بالحاكم لتسجيل الطفل ومنحه اسمًا. وبعد أقلّ من ساعة حلّ في المستشفى ضابط ومحقق عدليّ ومعهما كاتب من النيابة. طلبوا استجواب الطبيبة المسؤولة.

ـ كيف تدخلين مريضة بهذه الحالة من غير إبلاغ الشرطة؟

ردّت أنها أدخلتها لإنقاذ حياتها وحياة الطفل. ولو أخبرت الشرطة لفتحوا تحقيقًا وانفضح أمرها. وهي قامت بما يفرضه الواجب عليها وأبلغت المسؤول الوظيفيّ الذي هو رئيس الصحّة.

ـ أين المريضة؟

ـ هربت بعد الولادة ولا علم لي بمكان سكنها.

ـ كيف تمّ الاتفاق بينك وبين أهلها؟

صعد الدم إلى وجه ورديّة لأنّ السؤال ينطوي على شبهة مستترة. لعلّ المحقّق يشكّ في أنها تلقّت رشوة مقابل ما قامت به. حزّ في نفسها أنها في موضع الاتّهام بعدما عانت الأمرّين من صلافة تلك المريضة ومن محاولاتها اليوميّة للهرب. كانت تتردد على ردهتها عدة مرات في النهار لكي

تطمئن عليها . تخشى أن يأتي أحد من أهلها ويضع طلقة في رأسها وثانية في رأس الطبيبة التي تتسترّ عليها.

ـ إسمع جناب الضابط. لقد قمت بواجبي كطبيبة وأنت تريد تحويلي إلى مجرمة.

تداول المحققون فيما بينهم وتباحثوا مع مدير المستشفى ثم لملموا دفاترهم وذهبوا. لا تدري ما كتبوا. وبقيت على قلق، تنتظر اكتمال معاملة نقل الوليد إلى العاصمة. لكنّ الإجراءات تأخُرت لأكثر من شهر، وراح جسمه الصغير يمتلئ بالدمامل والقروح. أخيرًا اتصل الدكتور فرنجيّة ليقول لها إنّ الأوراق قد اكتملت وقد خصّص سيارة وممرّضة ترافق الولد إلى بغداد.

كان الطفل قد مات في الصباح نفسه ودفن مجهولًا بلا اسم.

٢٨

لا يرفع اسكندر عينيه وينظر إلى وجه سهيلة وهي تروي له حكاية رعد. لا يريد أن يقترب من الموضوع ولا أن يتعاطف مع المواجع. إنّ مهمّته هي أن يستمع إلى ما ينفع من تفاصيل لكي يعرف هويّة المرحوم وأذواق العائلة. أيّ أزهار يفضلون وما نوع التراتيل والموسيقى. عود منير بشير أو سليمة باشا؟ تعرّف عليها من كثرة دوران الأشرطة الممطوطة

في المسجّل القديم. تستمع إليها أُمه وهي جالسة في المطبخ، تشرب شاي العصر، أو في الغرفة تنتف حاجبيها، أو في الصالة تكوي الشراشف والقمصان. تتنقّل والمسجّل يلحق بخطواتها. مثل المصل المغذي السيّار أو المكنسة الكهربائيّة ذات العجلات. وحتى عندما تنزوي لتكتب أشعارًا، تدعو الأصوات الصّادحة معها إلى غرفتها. إضمحلّت الكاسيتات من كثرة الترداد وصار عليه أن ينزّل لها تلك الأغاني من الإنترنت. حفظ أسماء محبوباتها جميعًا. سليمة وعفيفة ووحيدة ومائدة وأنوار. أصواتهن في كفّة وزهور حسين في كفّة. يسمعها ويفكر أنّ صوتها برهان على وجود القهر في الطبيعة. بحث عن صورتها في غوغل وفرح لعثوره عليها. دقّق فيها فلم يجد صلة بين الصوت والصورة. وجه حلو وأنف مرفوع وحاجبان ثخينان وشعر داكن مفروق عند المنتصف. يطبع الصورة ويعرضها على العمّة ورديّة. يسألها:

ـ أكلّ تلك البحّة من هاتين الشفتين الرفيعتين؟

يقول لها إن صوت زهور حسين سيكسي؛ فتنهره وتقول: عيب. كل شيئ عندها عيب. تقترح عليه أن يفاجئ أُمه ويضمّ مطربتها المفضّلة إلى نزلاء مقبرته. ماتت شابّة في اصطدام سيارة وهي ذاهبة لزيارة أخيها في السجن. حكاية جديرة بأن ترشّحها للعضويّة. لكنّ اسكندر لا يصدّق عمّة ورديّة حين تخبره أنّ حادث السيارة وقع على الطريق إلى سجن الديوانيّة. إنها تريد أن تحتكر كلّ الأحداث الكبرى

لمدينة قلبها. وهو لا يملك الوقت لاستقبال جنازة إضافيّة. الإمتحان قريب وعليه أن يكمل تصميم قبر رعد.

ـ رعّودي راح وما رجع. دوّرنا عليه بكل مكان وماكو جارة.

بحثت سهيلة عنه في مراكز الشرطة والمستشفيات ومشرحة الطب العدلي بلا "جارة". ما معناها يا عمّة؟ يعني بلا جدوى. يتقدّم اسكندر في تعلّم العربيّة وهو يخالط عائلات زبائن مقبرته. يستغرب وهو يسمع مفردات فارسيّة وتركيّة وحتى هنديّة تتناثر من أفواههم. يتأكّد من لفظها ويسجلها مع تفاصيل الأموات في دفتر صغير. يكتب أنّهم ينزّلون "كبنكات" الدكاكين ليعلنوا الحداد. يسحبون "البردات" عن الشبابيك ويغطّون بها الجثث. يعرفون الميت من "البازبند" المربوط حول رسغه. يخرجون قطع "الكزيز" من جسمه. يمسحون الدماء حول ثقوب "الجيلات" في صدره. يتفرّجون على الأشلاء التي صارت "نبديد". يحشرون جرحى التفجيرات في سيّارات الإسعاف بـ "الكرتة"، كما الأقدام في الأحذية. لهجات متعدّدة وخلطة بهارات شرقيّة تؤجّج رغبته في اكتشاف تلك العوالم. يحسّ لذعها على لسانه رغم المسافات.

لم يجدوه. مرّت ثلاثة أسابيع بعد دفع الفدية ولم يظهر أثر لرعد ابن سهيلة. وبدأ الأقارب يهيئون والدته لكي تتقبّل حقيقة أنّه غاب وانتهى. لكنّها ظلت تتشبّث ببصيص خافت.

ـ قلبي يعلمني أنّه حيّ.

قلوب الأمُهات مزوّدة ببوصلات دالّة. كلّهن يردّدن هذه العبارة. لا طاقة لهنّ على مواجهة اللحظة التي تتمنى فيها الواحدة منهن لو تموت ولا تعيشها. ليت القضيّة تبقى عند القلوب العليمة والفهيمة. ذهب جار وطرق باب سهيلة، ذات ظهيرة، ليقول إنه رأى صورة المخطوف، توًّا، في قوائم الجثث المجهولة في مشرحة مستشفى الكاظميّة. نزل قلبها بين ساقيها فلم تعد تعرف أين تتّجه. تدخلِ البيت أم تجري بدشداشتها في الشارع. أوقف الجار سيارة أُجرة وأخذها إلى هناك. لطمت وولولت وبحّ صوتها وهي تتعرّف على الصورة. يمسك المضمّدون ساعديها لكي تتوقّف عن ضرب صدرها. تفلت يديها وتضرب رأسها. تمسح الدموع وتفتح عينيها وتعاود التدقيق في الصورة.

ـ وينه، ببخت الله وينه؟

ـ لم يأت أحد ليطلب القتيل فأخذوه ودفنوه في النجف.

لا أحد من أقاربها يجازف بالسّفر إلى هناك. لم يبق كثيرون منهم أصلًا في بغداد. ذهبوا إلى الشمال. شالوا الجتري وعلّكوا. والطريق إلى النجف طريق موت. حواجز وسيطرات وتفتيش طائفي والطلقة بفلس. والسنيّ يخشى أن يدخل النجف فكيف بالمسيحي. حتى اسكندر، إكتشف المذاهب وبدأ يطرح الأسئلة ويسجّل في الدفتر الصغير ويجتهد لكي يفهم. ووردية تنتهز الفرصة وتقاطع المتحدّثة وتفتح قوسًا في الكلام لتشرح للولد أنّ الأمُور لم تكن كذلك في السابق.

تعيد عليه معزوفة أنهم كانوا جميعًا أخوة وأحبابًا وأبناء وطن واحد. يحاول أن يقتنع بما تقول وهي تروي له كيف كانت، وهي المؤمنة بيسوع وبشفاعة مريم، تحضر القرّايات على الحسين في عاشوراء. كان الأمر طبيعيًّا في الديوانيّة لصداقتها مع العلويّات. وحتى حين انتقلت إلى بغداد، ظلّت تتردّد على الموالد التي تقيمها أُم محمد، جارتها في شارع ٥٢، وعلى القرّايات في الكرّادة، حيث بيت الأهل وجيران العمر. مات الكبار وهاجر الشباب وبقي من بقي. يخرجون لسقي الحدائق ويقفون عند أبواب الحديد الصدِئ يشطفون الرصيف ويتبادلون السلام. يتعرّف كل واحد وواحدة منهم على همومه في وجوه الآخرين.

تأخذورديّة ابنتها وتذهبان لتجدا مكانهما محجوزًا في الصدر، أمام المنشدات وبجوار بنات أُم محمد المتزوّجات اللواتي يأتين من مناطق بعيدة. تجلس مع ياسمين على الأرض وسْط النساء. يزدحم بهنّ المنزل الكبير وينحشرن حتّى في الفسحة الصغيرة تحت الدرج. يبدأ ضرب الدفوف والصلاة والسلام على النبيّ. تتلو في قلبها صلاتها وتبتهل لنبيّها. تسحب مناديل الكلينكس من العُلب الموزّعة في المكان، وتدمع عيناها من الرهبة. تأخذها الإيقاعات والأصوات وتسمو بها فتنسى تحوّلات البلد والناس. ينتهي المولد وتدور استكانات الشاي في الصواني المُذهّبة وصحون خبز العروق. تتحادث الحاضرات وتتعرّفن على الدكتورة وتبدأ الاستشارات

الطبيّة على استحياء. تصعد الأجساد السّمينة والهزيلة لتتمدّد على طاولة الطعام، بالتّتابع، تسترها العباءات. تُمسك ياسمين بمصباح البطارية وتساعد أُمها. تصوّبّ النور إلى المكان المخبوء. ترتدي الدكتورة قفّازات شفّافة مستلّة من علب صبغ الشعر. تجوس كفّها الأرحام التي تشكو عقمًا أو نزفًا أو فتقًا أو حملًا كاذبًا.

في القرّايات، تنساب دموع ورديّة بدون أزجال أو مُحفّزات. تتذكّر موتاها وتبكي مع اللاطمات على الحسين. لكنّ دموعها صارت زجاجًا، في آخر مناسبة حضرتها، ولم تبك على جرجس وسُليمان وكمالة، ولا من فرط شوقها إلى أحفادها في كندا. أرادت أن تنوح على البلد كلّه وتحجّرت عيناها. ذهبت مع ياسمين فوجدتا المنزل شبه خال. إنقبض قلبها وهي ترى المذاهب تفصل بين الجارات ونساء الحي وتباعد بين العشائر والعائلات. وحتى شقيقات صاحبة البيت لم يتمكنّ من الحضور بسبب الحواجز المقامة حول مناطقهن.

تعلّم اسكندر "طائفيّة" بالعربي ورأى أُمه تكرهها فكرهها. يتحمّس عندما يسمعها تتحدّث مع عمتّها عن شجاعة القس فرنسيس الذي تطوّع لمرافقة سهيلة إلى النجف. انطلقا عند الفجر من بغداد وذهبا وبحثا عن رعّودي وعادا بجثمانه. إستعارت عباءة سوداء من الجيران وخلع أبونا فرنسيس الجبّة السوداء وارتدى دشداشة وعقالًا. تخدع سحنته الوقور ومهابة لحيته، الواقفينَ على الحواجز فينادونه مولانا. ما

معنى مولانا يا عمّة؟ وما هو الكفن والمغيسل؟ تتفتّح أمام الشاب اليافع مشاهد تفوق بهولها ما يراه في أفلام الرعب. قصص كانت تشعره بالنفور، ثم بالفرادة والتميّز عن زملاء الدراسة. يطلّ على بئر للأسرار التي لا يعرفها سواه. يسعفه الإنترنت بتفاصيل ومعلومات وخرائط إضافيّة. تدخل العمةّ ورديّة إلى صندوق الساحر ويغلق عليها الباب. يؤشّر بعصاه السحريّة على الصندوق ويفتح الضلفتين فإذا بها وقد انقلبت من عجوز مسنّة عاجزة عن المشي إلى رفيقة مغامرات تقود اسكندر إلى أماكن لا يمكن لأحد من أقرانه الفرنسيين أن يبلغها.

ـ وبعدين... هل عثروا على رعّودي؟

ـ تعرف شنو يعني البحث عن إبرة تحت جبل من القش؟

في القبور والشواهد الممتدّة على مدّ البصر في وادي السلام، فتّشت سهيلة عن الحفرة التي أسجى ساعدان غريبان فيها جسد ولدها الغريب. سارت مع القسّ فرنسيس ودليل من أهل المنطقة في الأتربة وتعثّرت بالعباءة وسحّت عرقًا غزيرًا. دارت وتوقّفت عند الشواهد وقرأت وبكت. تستفتي قلبها فيعجز عن أن يدلّها على الحفرة التي ينام فيها رعد. توجّهوا إلى بقعة ما زالت قبورها طريّة. وجدت ترابًا مسوّى وكل مستطيل يشبه ما يجاوره. إنّ الشمس تضرب رأسها، وقدميها تؤلمانها، لكنها تواصل المشي. قوّة خفيّة تحرّك ساقيها فتتبع الدليل إلى فُسحة لا تحمل شواهد. عصيّ

مغروسة في التراب، وفوق كل عصا، ربطت صورة مستنسخة بالفوتوكوبي، تلعب بها الريح.

ـ هذا هو.

إرتمت على التراب الناشف وصرخت ومرّغت وجهها فيه. يسحبها الكاهن ويوصيها بالصبر. تتربّع جانبًا وقد نشف ريقها ودمعها وتتابع الدليل وهو ينبش القبر مع القس العجوز. يكمّمان أنفيهما ويخرجان جثّة مكفّنة ومترّبة. يتعاونان على نقلها إلى السيارة. تهبّ سهيلة وتحتضن ابنها. تريد أن تشقّ الكفن وترى وجهه. الرائحة تملأ المكان وهي تلثم وتصيح:

ـ أُفَيش. ريحتك طيبة حبيبي.

عند مدخل العاصمة، وقف شمّاس الكنيسة ينتظر الجثمان وقد هيّأ صندوقًا يحمل صليبًا. نقلوا المغدور من التاكسي إلى البيك آب وساروا به نحو مرأب في حي زيّونة. إقترب موعد منع التجول ولا يمكن إجراء مراسم الدفن قبل الصباح. ذهب القس فرنسيس لينام ويرتاح وبقيت سهيلة جالسة في مقدّمة البيك آب، تناجي وحيدها وتهنئ نفسها باستعادته. كأنّها استرجعته من بين فكي الموت وعادت به حيًّا. وفي الصباح جاءت ثلاث من قريباتها وحضر القس فرنسيس وقد اغتسل ومشّط لحيته وارتدى جبّة الكهنوت. توجهوا إلى مقبرة الكلدان، قرب ساحة الطيران، وأمام قبر مرتجل تمتم القسّ صلاة الجنّاز، على عجل، وتولّى راعي المقبرة دفن الجثمان الوافد من وادي السلام في النجف، دفنة ثانية.

إنتهت غربة ابن سهيلة وبات ليلته بين أهل ملّته. لكنّ روحها لم تطمئن وتستقر. الولد في مكان وأبوه في مكان. كانت قد دفنت عظام زوجها الشهيد في مقابر المسيحيين الجديدة، في خان بني سعد، بعد أن وضعت الحكومة يدها على المقبرة القديمة. والمتر المربّع في ساحة الطيران يساوي ما يساوي. ويمكن تحصيل الملايين من بيع الأرض الواسعة لمستثمر من أهل الحكم يبني عليها فندقًا أو لمرتشٍ منافق يشيّد مسجدًا. كانت الحجّة الرسميّة أن الشروط الصحيّة لا تسمح بوجود مقبرة تلّوث البيئة في قلب بغداد. وأذاع الراديو نداءً للأهالي لكي يذهبوا وينبشوا قبور أهاليهم وينقلوها إلى خان بني سعد، خارج المدينة. هناك خصّصت الدولة لكلّ طائفة مقبرتها.

سُليمان، الذي كان قد أصبح محاميًا للكنيسة منذ أن ترك الجيش، تشاور مع البطريرك وتقدّم بدعوى قضائيّة ضد تحريك جثامين الآباء والأجداد من تربتها في المقبرة التاريخيّة. ضاعت أكثر من عشر سنوات ما بين محكمة الابتداء ومحكمة الاستئناف ثم النقض. تنعقد الجلسات أو تؤجل أو تُعرقل وكلدان العراق كلّهم يتابعون القضيّة. ولم يكن سُليمان يترافع مدافعًا عن طائفته بل عن حقٍّ من حقوقه. أن يُدفن بجوار والديه، وأن يرقد الأبناء معه، كلّ حين تحين ساعته. الأبناء الذين لم يعرف أنّهم سيمضون إلى البلاد الغريبة وسيدفنون في مقابر الفرنسيين والكنديين والأمريكان.

رد القاضي الدعوى ومضت الحكومة في قرارها. وذهب برّاق ابن ورديّة مع ابنيّ خالته كمالة ونقلوا جثماني الجد اسكندر وزوجته إلى المقابر الحديثة في خان بني سعد. مربّعات باردة وعارية من النخل وشجر السنديان، وممرّات مبلّطة بالكونكريت، وسراديب مخصّصة لكلّ عائلة على حدة، لها أدراج نازلة وتعلوها شبابيك زجاجيّة متربة. وأثقل على سُليمان، أن يخسر قضيّة العمر، وامتنع عن زيارة قبر والديه في سرداب الكونكريت. لكنّه دُفن فيه عندما مات. وبعد سنتين لحقت به زوجته ثم شقيقته كمالة. وجولي التي نذرت نفسها راهبة مدنيّة ولم تتزوج، أرادت اللحاق بابنيّ كمالة إلى القارّة البعيدة وماتت في الشام ودفنت في صيدنايا.

إنّ سهيلة لا تصدّق ما ترى. تحضن اسكندر وتغمر بالقبلات جبينه وخديه ورأسه. تدعو له بالتوفيق وتلهج بالإمتنان، لأنّه جمع رفاتي زوجها وولدها على الشاشة، كما هيأ لها مرقدًا بقربهما.

٢٩

جاء برّاق بعد سنتين من ولادة هندة. وكان بعينيه الفاتحتين وشعره الذهبي نسخة من جرجس.

لم تعتبره ورديّة بدلًا عن ضائع رغم أنه فكّ عقدتها وداوى جرح قلبها. لا يعوّض ولد عن ولد ولا تمحو صورة ما سبقها

من صور. ولما جاءت العلويّة شذرة لتبارك بالمولود الجديد سحرتها زرقة عينيه فاستعاذت من إبليس ولعنته عدّة مرّات وهي تبصق وراء ظهرها وتصيح:

ـ كان لازم تسمّوه زرّوق طردًا لعين الحسود.

دسّت في قماطه ليرة ذهبيّة ووضعت كفّها على جبينه وقرأت عليه الآيات وسوّرته بالأولياء الصالحين بينما كانت أُم جرجس تلقي السلام على العذراء مريم وتستحضر كلّ القديسين. تتسابقان في رفع الأيدي مشرعة إلى فوق والتضرّع لصاحب الملك. تتنافسان في معادلة كفتيّ الإيمان. صلوات بالعربيّة والآراميّة وبلهجات شماليّة وجنوبيّة، مدينيّة وريفيّة، تصعد سويّة لتقرع باب السماء بقبضة واحدة.

لم يزحزح مجيء بزّاق عرش هندة المحجوز لها في حضن بستانة. أمّا غسّان الفلسطيني فقد أُعفي من مهمّاته المطبخيّة والحدائقيّة والسطحيّة. لم يعد يقشّر البطاطا ويفرم البصل ويسقي شتلات الورد وينشر الغسيل ويطعم الدجاجات السارحات فوق سطح الدار. صارت مهمّته الوحيدة أن يتفرّغ للولد ولا يسهو عنه لحظة. يجلس عند مهده فيسمع صوت أُم جرجس يلاحقه من المطبخ:

ـ غسّان عينك على الولد... لا تروح يمنة ولا يسرة.

كانتورديّة في أوّل تعيينها في الديوانيّة حين رأته مع معلّمة من مريضاتها، طفل ذو بشرة سوداء لامعة ورأس حليق نمرة صفر وابتسامة طيّبة. كان غسّان لعبة منصوبة

دائبة الحركة، ولمّا نطق تعجّبت من لهجته الشاميّة.

ـ منين ها الولد؟

ـ خطيّة يتيم... كل أهله ماتوا.

قالت المعلّمة إن زوجها الضابط جاء به معه من فلسطين حين عاد من الحرب، وهو يعيش عندهم. أخذته ورديّة معها إلى البائع على الرصيف واشترت له شربتًا وسميطًا. تمنّت لو تأخذه وتربّيه ويصبح ابنها. لكنها لم تكن قد تزوّجت بعد، تنام في المستشفى ولا بيت لديها، لا تعرف لمن تتركه وهي في العمل.

ذهب ولم تره إلا بعد سنوات. وصلت إلى العيادة فوجدت صبيًّا أسود عملاقًا يقف في انتظارها. فتح لها باب السيّارة فتذكّرته. جاء يبحث عن عمل. أرسلته المعلّمة إليها لأنّ بناتها قد شببن وما عاد يمكن لغسّان أن يبقى في بيتهم. لا شك أنّ القدر أرسله لها. لقد تزوّجت وولدت هندة وتحتاج لمن يساعد حماتها العجوز في أشغال البيت. لكنّها لم تردّ عليه بل فكّرت باستئذان زوجها، أولًا. ولم يعترض جرجس.

وصل غسّان إلى العراق وهو طفل في السابعة. يسألونه عن أهله فيقول إنهم في رام الله وسيأتون ليأخذوه. كان جرجس قد قرأ ويعرف بأنّ عائلات من مالي والسنغال ونيجيريا استقرّت في فلسطين منذ زمن بعيد. كانوا يسافرون للحج في مكّة ثم يمرون بفلسطين لإداء الحجّة المقدسيّة. وبينهم من ظلّ فيها للدفاع عن المقدّسات الإسلاميّة في زمن

الانتداب البريطاني، ثم ضد عصابات الصهاينة. هل يكون غسّان سليل أولئك الحجّاج؟

صار فردًا من الأُسرة، له غرفته الخاصّة وحمّامه فوق السطح وإجازته الأُسبوعيّة التي يمضيها في السينما الصيفيّة، يشاهد فيلم الكاوبوي الواحد عدّة مرات ويحفظ حركات البطل. يشتري صور الممثّلات الشقراوات والسمراوات مرتديات السّاري ويعود ليروي حكاية الفيلم الهندي لأُم جرجس. يقلّد الأغاني ويفرد كفيه ويهزّ رأسه. ولما أطال شعره، على الموضة، كبر الرأس وتشكّلت هالة إسفنجيّة قاتمة وأحاطت به.

لم يسمع اسمه إلا متبوعًا بالفلسطينيّ. كأنّ موطنه كنية له. تضع هندة كفّها الصغيرة البيضاء في كفّه وتسأله، مرّة بعد مرّة:

ـ ليش لونك أسود؟

ـ نسيتني أُمي في التنور وتحمّص جلدي.

يقهقه وهو يحملها عاليًا ويرميها ويتلقّفها. تصرخ أُم جرجس وتنهره فيقول للطفلة إنّ جدّتها تغار منها وتريد أن يشمرها أيضًا.

عاش غسّان بينهم قانعًا راضيًا. لكنّ أحواله تغيّرت بعد ظهور فتح وانتشار صور ياسر عرفات في الجرائد. بدأ يضيق بعمله في الخدمة ومن عيشته في الديوانيّة ويعتبر حياته بلا

معنى. يريد أن يلتحق بالفدائيين ويصبح مناضلًا مثل أجداده. وحتى السينما هجرها ولم يعد يجد فيها ما يثيره. وكانت أفلام الكاوبوي قد اختفت بسبب مقاطعة أمريكا بعد حرب السبعة وستين.

أبو عمّار معلّق على الحائط في غرفة السطح. وغسّان يلوب لكي يلبّي النداء. ولمّا سمع باعتقال فاطمة برناوي، المناضلة الإفريقيّة الأصل مثله، هاج وماج وحمل متاعًا خفيفًا ومضى إلى بغداد لكي يلتحق، من هناك، بمعسكرات الفدائيين.

٣٠

مثل رمية نرد، قدّمت هندة وزوجها أوراقهما إلى سفارة كندا في عمّان. كان صيدليّ من رفاق سلام قد اتصل به من بغداد ورجاه أن يذهب إلى السّفارة ويسأل. هل تقبل كندا هجرة الصيادلة من العراق. ذهب وسأل وردوا عليه أنهم يستقبلون الصيادلة والمهندسين. عاد وأخبر هندة فرنّت العبارة في أُذنها وجافاها النوم. تفتح عينيها في العتمة وتحلم بحياة مختلفة. تلتصق بسلام وتحسّ دفأه يتسرّب إليها. إنه ليس زوجها وحسب بل ابن عمّتها وحبيب الصّبا. تحزن وهي تراه مهمومًا يبحث عن فرصة في الإمارات أو وظيفة في ليبيا ولا يتلقّى ردًا. كان مهندسًا ناجحًا في بغداد وشارك في تشييد

المطار الدولي. وهي كانت طبيبة تبني حياتها معه وتعرف إلى أين تمضي بهما الأيام. لكنّ الحرب، بل الحربان، شوشّتا الصورة وقذفتا بهما إلى الأُردن.

يومَ استدعوه للخدمة العسكريّة، مرّة ثانية، بعد احتلال الكويت، جُنّت وتشبثت به لكي لا يخرج من البيت.

ـ نموت هنا كلّنا ولا تموت هناك.

راح وخلّاها مع مريم. طفلتها البكر التي كانت قد ولدت قبل الحرب بعشرين يومًا. جاءت بعد حالتي إجهاض أليمتين. لقد طلبتها هندة من العذراء مريم، مثلما كانت أُمها قد فعلت من قبل. صعدت إلى دير مار متّى في الموصل ودارت اثنتين وثلاثين دورة في الطريق الجبليّ الضيّق ونذرت النذور. كانت بستانة قد نذرت لمقام الحمزة على نيّة أن تحبل هندة ولا تطرح الجنين. حوصر الأولياء والقدّيسون من كلّ جانب وتحقّق المراد. إكتملت أشهر الحمل التسعة على خير.

بدأت الحرب وانفتحت نار جهنّم. لفلفت هندة طفلتها وذهبت تحتمي عند أهلها في البيت الكبير. توالت الأحداث بأسرع من قدرتها على الاستيعاب. سقط صاروخ على المنزل المقابل لهم في شارع ٥٢ ومات كلّ من فيه. أصابتها هبطة وخافت وقلّ الحليب في ثدييها. ما عادت قادرة على إرضاع مريم. يأكلها القلق على زوجها وتتصوّر أن أحدًا لن يبقى على قيد الحياة بعد تلك الغارات. والجنود أوّل من

سيباد. سلام والآلاف من رفاقه المنسحبين من الكويت يتيهون في الصحراء تحت رحمة القنابل والعطش. تبكي وتصلي وتسأل ربّها:

ـ إلهي... هل أعطيتني طفلة لتأخذ زوجي؟

الإعدام عقاب من يهرب من المعركة. أُمّهات يخفين أبناءهنّ في الرازونة على السطح ولا يعرف أحد من الجيران أنّهم هناك. يصعدن لهم بالأكل والماء، خلسة، بعد حلول الظلام. قتامة الظلام حاضرة حتى في النهارات. القصف عاتٍ والأهالي يتركون بيوتهم ويلتجئون إلى المقابر. يأخذ سُليمان عائلته ويتجهون إلى أقرباء لهم في كرمليس. يجدون ثلاث عائلات قد سبقتهم إلى الدار. يفرشون على الأرض وينامون مثل السّردين. لم تتعوّد امرأته على المرحاض الشرقيّ. تتعب وتصرّ على العودة إلى بغداد ولو ماتوا تحت أنقاض بيتهم.

أصاب التلفزيون الخرس وتعطّل كل ما يشتغل بالكهرباء. تتدّفأ العائلات على الصوبة والنساء يطبخن الطعام عليها. يكوين الثياب ويهيّئن تنكات الماء المغلي للاستحمام. ينشّفن شعورهن على الصوبة وينتظرن عودة المحاربين. يخرج الأهالي إلى الأسواق لقنص ما يأكلونه. تخرج هندة تجول على الدكاكين بحثًا عن حليب البودرة. ترى أناسًا يدورون على أنفسهم مثل الدراويش، شعبًا يسير في غيمة من الذهول، مطرًا يسقط سخامًا على السطوح. تتحوّل الجدران إلى الأسود

وتختنق أنفاس العجزة ويهمد الأطفال خوفًا من النّظرات الفارغة في أعين الكبار.

إنتهى القتال ووقع البلد في قبضة الشيطان. لم تكن قادرة على العودة إلى المستشفى ولا على التأقلم مع الشظف الذي احتلّ الأرصفة. تذبحها أناشيد النصر وقصائد الشعراء التي تفرقع من راديو السيّارة. لا شيئ في الأخبار عمّا يحدث خارج بغداد. مجرّد اضطرابات يقوم بها الغوغاء. شكرًا لراديو السيّارة ولجهاز التدفئة فيها وللعجلات التي تدوس على الزجاج المهشّم والمعادن والمسامير المدبّبة. تكاثرت دكاكين البنجرجيّة وصاروا في أهميّة مسعفي الطوارئ ومجبّري الكسور. ثم انتهى الوقود في محطّات البنزين وتحولّت السيّارات إلى تماثيل جامدة من حديد. والحاجة كانت دائمًا أُمّ الاختراع. يجد المراهقون مصدر رزق لهم في قناني الغاز الفارغة. يقلّبونها ويقومون بتنفيسها بالمسامير الرفيعة فتقطر منها ثمالة سائلة، يجمعونها في طاسات ويبيعونها وقودًا للسائقين. تشبّ حرائق وتتلف سيارات ويفشل الاختراع.

يصل سلام أشعث أغبر مرتديًا دشداشة متّسخة وقد انسلخ لحم بطنه. زحف مع رفاقه على الرمل الحارق في طريق الموت. سقط الجيش وفرّ القادة وجاع الجنود وخلعوا بزّاتهم للتمويه وتفادي الأسر. لم يهربوا بل تمرّدوا على الموت المجانيّ في خنادق تدوسها الدبابات. حرب خاسرة سلفًا ويريدون من البطل أن يموت ليحتفلوا به شهيدًا. لا

اعتبار للناجين. يسمع أخبار النّصر من الترانزستور ويضرب قبضته في الجدار. يأخذ عائلته، حال تسريحه من الجيش، ويخرج مع جموع الخارجين إلى الأُردن. سيتنفّسون هواءً طبيعيًا ويعودون بعد أسابيع. ظلوا هناك خمس سنوات. كلّ سنة يقولون إنها الأخيرة وفي الغد سنعود إلى بغداد. وفي عمّان وضعت هندة طفلها الثاني وسمّته سرمد، على اسم شقيقها الذي مات قبل أن ترى عيناها النور. وبينما كان الولدان يكبران ظلّ العراق يتدهور ويختنق بأيدي أهله والأجانب. حوصر الشعب وجاع ومرض وباع ما تحته وما فوقه. تسلّطت عليه قسوتان جبّارتان.

تعافت هندة من الولادة وعادت إلى العمل في عيادة مشتركة مع أطبّاء مهاجرين، عراقيين مثلها خرجوا قبل الحريق الكبير. وكانت الأُمور معقولة إلى أن ذهب زوجها سلام إلى القنصليّة الكنديّة وسأل وعاد بالخبر الملغوم. تحريض سافر على القفز نحو المجهول. عادت إلى أرقها المزمن. تستيقظ وتتطلّع إلى زوجها وإلى طفليهما. تراهم نائمَين وتفكّر بما يمكن أن يحلّ بهم لو عادوا إلى العراق. ثم تعود وتفكّر بما يمكن أن ينتظر الصغيرين، من مستقبل، في حال درسوا وعاشوا في كندا.

حصل سلام على عقد عمل موقّت في لبنان. وقبل سفره ملأ استمارات الهجرة إلى كندا وقدّمها إلى السفارة. لم يكن يعرف أحدًا في ذلك البلد. يفعل مثل العراقيين الذين يراهم

حوله في الأُردن. يتدافعون لتقديم أوراقهم إلى كلّ سفارات الدنيا. ولم تكن هندة موقنة بأنها ستهاجر. إنه مجرّد ملف وسْط آلاف الملفات. وسوف يُرفض طلبهم وترتاح من الترقّب والقلق. يشقّ عليها أن ترحل وتدير ظهرها للمرضى الذين أقسمت أن تعالجهم في الوطن الذي علّمها وأنفق عليها وأوقفها على قدميها. "وطني لو شغلت بالخلد عنه...". أحبّت الطبّ ولم تدرسه مُرغمة وبأوامر عائليّة مثل والدتها. ثم بهُت الحلم الورديّ بعد فترة من دخولها كليّة الطبّ، وقامت حرب إيران وهي في السّنة الثانية. لم يشعروا، في البداية، بضراوة المعارك التي كانت تجري في جبهات بعيدة، إلى أن أنهى شقيقها برّاق دراسته وارتدى الخاكي.

برّاق، الابن الوحيد ذو العينين الملوّنتين، كان شعره الذهبي السرح أُعجوبة يتحدّث بها الأهل والجيران، يكبر ويذهب إلى الحرب ويحلقون له رأسه. كانت جدّته قد نذرت ألا يمسّ المقص شعر الطفل قبل بلوغه الخامسة. ومنذ أن وقف ومشى على قدميه، صارت مهمّة الفلسطينيّ مرافقته وحمايته من البوسات والقرصات في الشارع. الكبار ينذرون النّذور والصغار يضرسون.

تشتاق له هندة وهي تتأمل صورته بالشعر الطويل والخصلات التي تغطي جبينه مثل البيتلز. تأتي بستانة وتحاصره وتغنّي له "والكذلة ست طيّات وما أندل فرقها" فيبكي ويهرب منها. صوتها أجشّ لا يصلح للغناء. وهي

تضحك ولا تهتم، تلتفت إلى هندة وتغمز لها:

ـ أنت أحلى ميت مرّة. الشعر الأسود أقوى من الأصفر.

لم تشعر بالغيرة من برّاق واعتبرته دمية تتسلّى بحملها والجري بها في ممرات البيت. يتبعها غسّان ويخشى أن يسقط من بين يديها فتقوم عليه قيامة أُم جرجس.

ـ صدّقنا صار عندنا ولد؟

من بين الصّور التي أخذتها هندة معها إلى كندا، واحدة تحمل توقيع ستوديو أنور للتصوير في الديوانيّة. أخذه غسّان الملعون إلى المصور لأنّ المناسبة غير عاديّة. لقطة مدهشة لكنها مستحيلة اليوم.

يبدو برّاق في الصورة مرتديًا دشداشة سوداء وبيده سلسال صغير من الحديد، وقد تعمّد المصور أن يوقفه في وضعيّة جانبيّة تتيح رؤية الشقّ في ظهر الدشداشة. غادرا دكان المصور وسارا ليلتحقا بموكب عاشوراء في الديوانيّة. أفسح الرجال مكانًا للطّفل، ابن الدكتورة النصرانية، وحاذروا من أن يصيبه أذىً. يمشي على إيقاع الأصوات وقرع الصدور وتشير له أيدي النّساء الواقفات على الرصيف... شوفوا شوفوا... ولد بشعر أشقر طويل، يتدلّى من عنقه صليب ذهبيّ، يمشي مع ضاربي القامات وأصحاب الرؤوس المدمّاة في الموكب الحسينيّ.

وضعت هندة الصورة في برواز وعلّقتها في بيتها في تورنتو.

سحبتها من الألبومات الثقيلة التي خلّفتها وراءها في بيت العائلة. إختارتها لأنّها تلخّص أجمل ما غاب عن حياتهم. وحتى ياسمين أخذت معها نسخة من تلك الصورة وهي تمضي إلى دبي.

تحبّ هندة أن تتذكّر البيوت الكثيرة التي عاشت فيها، ما بين الديوانيّة وبغداد وعمّان ومانيتوبا وتورنتو. كم ميلًا يبعد العراق عن أقصى شمال العالم؟ تستدعي بيت الديوانيّة إليها وتحدّد موقعه أمام مستشفى الصّدرية. ترى ممشى طويلًا يخترق الحديقة ويقود إلى الباب الداخلي. ينفتح على الحجرات التي تردّدت فيها أنفاسهم. تهبّ عليها نسمة حارّة رغم الثلج الذي يتجمّع أمام بابها في كندا. تحاول أن تؤرشف في ذاكرتها البيوت وكأنها تلضم فصول حياتها في خيط قويّ واحد.

لا شيئ يمضي وينتهي.

لا ذكرى تخبو وتمّحي.

تواظب على سقي شجرة الصّور حتى ولو كانت تربة المهجر عصيّة على إنباتها. وعندما صارت الهجرة حقيقة واقعة، خافت أن يسيح الوطن مثل قالب ثلج في تموز وتنقّط مياهه على الغلاف الأخضر الشمعيّ لجواز السفر.

بعد أسبوعين من تقديم الأوراق إلى السفارة جاءت الموافقة سريعة ومباغتة، مثل سكتة قلبيّة. لم تعرف هندة هل تفرح أم تبكي. إتصلت بزوجها في لبنان لكي يعود قبل الموعد المحدّد للمقابلة. وجاء سلام وعاش معها أسابيع

تشبه النفير أو "الإنذار جيم" حسب تعبيره. توتّرات ومراجعات ومواعيد وأسئلة وأوراق مستنسخة وتصاوير وبصمات أصابع وفحوص طبيّة. وبعد أربعة أشهر كانت التأشيرة جاهزة.

أخذاها وبقيا يتفرّجان عليها لشهرين كاملين وهما يفكّران ولا يجرؤان على القرار.

لن يعودا إلى بغداد. سيقفزان في المجهول.

٣١

لم يغيّر مجيء عمّتي من بغداد إيقاع حياتي المستقرّ لكنّه بعثر رتابته.

"قوبجتني" مثل المقامرين الذين يخلطون ورق اللّعب بخفّة وهم يبتسمون زهوًا ببراعتهم. يوزّعون العشرات والآحاد والملوك ثم يحاول كلّ واحد من الجالسين حول الطاولة أن يقرأ في وجوه رفاقه مخابئ الجواكر. وقد كانت كلّها في يدها. إنّ من تحمل ثمانين عامًا على كتفيها لا تتنقل وحيدة خفيفة بدون ماضيها. وقد جاءت عمّتي وألقت به في حجري.

صارت حكاياتها القديمة فصلًا من حكاياتي الخاصّة، قد يسبق ولادتي ولا يتوقّف عند يومي الراهن. إنّها تؤرجحني بين ما فات وما سيأتي. تعيدني إلى أصلي وفصلي وتضع لي عنوانًا

واضحًا بعد أن كانت سنوات الاغتراب قد مسحت حروفه. أُناديها عمّة وتناديني عمّة. مثل الأُم التي تدلّل وحيدها بمناداته "يا أُمّي". مثل الأب الذي ينادي طفله "بابا". إنّ خروجنا من بين قَوْسي الوطن قد وضعنا في خانتين متعاكستين من العقوق. لم أكن بارّة به لأنني أفلتُّ من فكّيه المفترسين، باكرًا، ومضيت بدون رجعة. وكان الوطن عاقًّا بها، نبذها وهي في آخر العمر ولم يشملها بخيمة حمايته. هل يعوّض تفانيها عن تقصيري فتتعادل كفّتا الضمير؟

لم يغيّرني حلولها في باريس كثيرًا، لكنّه نقل اسكندر من المراهقة إلى البلوغ. صار رجلًا يجلس بيننا ويشاركنا الحديث بلغتنا ويطرح الأسئلة المحدّدة والعشوائيّة ولا يكتفي بطرف الخيط. إن ابني يريد الشليلة كلّها. يسحبها من صدر العمّة. المخبأ الذي لم تصله موسوعة غوغل ولا كاميراته العملاقة التي تمسح البلدان والقارات. وهي بدورها تنساق وراء الدنيا التي يفتحها أمام عينيها حين يدعوها إلى غرفته ويجول بها في المواقع الخلّابة وأفلام اليوتيوب. يُسمعها الأغنيات التي تطلبها ويطبع لها المقالات التي ترغب.

حاولت، مرّة، أن أتلصص على أحاديثهما فنلت ما لا يرضيني. سمعتها تسأله:

ـ شنو أكثر شي تحبه بالدنيا؟

ـ كلثوم. أحب كلثوم.

أبهذه السهولة باعني الولد؟ كان، في بداية تعرّفه على

التونسيّة، يناديها كلسوم، مثلما ينطق الفرنسيّون اسمها. لكنّني صحّحت له اللفظ وشرحت له معنى الاسم. لقد استولت على عقله. عينان داكنتان وكفشة من شعر مموّج طويل. حتّى أنا أحببتها وتعوّدت وجودها عندنا. وعندما بدأت تتغيّب لأيّام طوال لم أُفكّر في السؤال عنها. كانت نهاراتي ماراثونًا متواصلًا مثل كلّ أهل هذه البلاد. من يعمل منهم ومن لا يعمل. فهناك دائمًا موعد ما، في دائرة أو بنك ما، أو مراجعة طبيّة، أو فواتير متأخّرة، حتى صرت مثل أهل هذه البلاد، أتذمّر وأتأفّف وأنتقد ولا يرضيني شيئ.

ـ ماما... لازم تجيبي سكرتيرة.

تعجبني ملاحظاته الملعونة وهوايته في تحليل طباعنا وتشخيص نواقصنا وإطلاق تسمية فكاهيّة على كل منّا. وهو اختار لعمّتي ورديّة لقب "أواكس". إنّها قويّة الملاحظة، لا تفوتها لفتة ولا همسة، رغم أنها نصف طرشاء. والغريب أنّها تعرف لقبها الذي أنعمه عليها اسكندر ولا تضيق به. وهو بدوره ينتظر زياراتها ويمضي معها أوقاتًا طويلة ويتعلم منها أمورًا تقليديّة لم يتعلّمها منّي. إنّه ينتظرها حين تكمل نوبة ضحكها ليقول لها: "ربّي اجعله خيرًا". وهو حين يخبرها بأنّه رأى منامًا سيئًا تطالبه بأن يدخل ليروي المنام في بيت الخلاء، وهو يقضي حاجته، كي لا يتحقق الكابوس.

أسمعه يغنّي معها "أرد أسافر للهند وأشوف حبيبي" وألاحظ أنه يلفظ الهند بكسر النون، مثلها، ولا أدري هل

أبتئس أم أغتبط وهي تلقّنه تراثًا قد لا ينفعه في شيء. إنّها تلجّ في الكلام وتتوقّف كثيرًا عند التفاصيل لكنّه لا يملّ منها. إسكندر الملول اللّاهي عنّا بهاتفه الذكيّ ومسّجاته وشاشة حاسوبه ونفوره من معارفنا وأصدقائنا، عاد إلينا وغرز رايته في سهول العمّة ورديّة. سهولها غابات نخيل قاتمة مفتوحة على كلّ الإحتمالات، لا تخلو من وعورة وتصلح مسرحًا مثاليًا لمقبرة بيتيّة الصنع، مشغولة باليد.

تؤرقني تلك المقبرة وبدأت أخشى منها على الولد وألوم نفسي لأنني شجعته عليها. حتى جارتنا التونسيّة أخذتني جانبًا، في السوق الشعبي، وقالت لي إنّها قلقة على ابنتها كلثوم منذ أن عرفت أن اسكندر خصّص لها قبرًا صغيرًا نحيفًا يلائم قامتها الضئيلة. وهي لن تمنع البنت من التردّد علينا، لأننا "ناس ملاح" لكنّها تتشاءم وترجوني أن أتدخّل لكي يهدم قبر كلثوم. كأنّه بُني، بالفعل، ليُهدم. ماذا أقول لهذه المشخوطة؟ سأتحوّل، بدوري، إلى مشخوطة مثلها إذا واصلت عمّتي بثّها في اتجاه ولدي. لعلّ أباه كان على حق ويجب ألا ينشغل عن دراسته بالعمل دفّانًا يحفر في تربة الغيب، يلملم العظام من مقابر الخليج والشام وديترويت ونيوزيلندا وضواحي لندن وينفخ فيها من موهبته لتستريح في أرض محايدة. يجمع شمل الرجال والنساء الذين وضعوا الرؤوس على مخدّة واحدة لعقود من الزمان ثمّ تفرّقوا، وهم أموات، في الترب الغريبة. طواهم طير اليباديد الذي حلّق فوق العراق ورماهم في بلاد الله الواسعة.

ـ ما حكاية قبر كلثوم؟

ـ لا شيئ... هي التي طلبته.

يتحوّل وجهه إلى ليمونة صفراء وهو يخبرني عن مرضٍ نادرٍ تعاني منه البنت. يسمّونها في فرنسا أمراضًا يتيمة. تمنعها أُمّها من أن تبوح به. تخاف عليها من ابتعاد الأصدقاء عنها. ألّا يقبل بها أحد زوجة عندما تكبر. وكانت الأعراض قد بدأت تظهر عليها منذ سنّ السابعة. جموح في جهاز المناعة يفسد كريّات الدم ويهاجم المفاصل ويترك كلثوم تئنّ من الأذى. تتناول عقّارًا يجتمع فيه العلاج والسمّ. يحجز المياه في جسمها وينفخ وجنتيها فتصبحان كرتين مستديرتين. يسمّون المريض "وجه القمر".

تتقلّص شفتا اسكندر وهو يخبرني بأنّه رآها تعجز عن المشي وتتعكز على صاحباتها في المدرسة حين تهاجمها النوبة. لقد دخل معها على الإنترنت وعرفا كلّ شيئ عن مرضها، حتى الجوانب التي أخفاها الطبيب. داء يصيب الكليتين بالعجز، مع الوقت، ويضعف القلب وقد يصل إلى الدماغ. لذلك ينتحر بعض المصابين به، قبل بلوغ مرحلة الجنون.

ـ أرادت قبرًا ملونًا عندي لكي أرعاها.

حاول أن يشجّعها ويبثّ فيها الأمل. جرّب أن يصلّي لها واكتشف أنّه لا يعرف الصلاة. وقف أمام الصّليب وتمتم بأُغنية لسيلين ديون، مثلما تتمتم العمّةورديّة في حضرة

الإيقونات. لن ينفع هذا. يجب أن يصلّي لكلثوم بالعربيّة لكنّه لا يحبّ الشاب خالد. إنّ سعاد ماسي أفضل. يهذي ولدي بالكلام ولا يحتمل فكرة أن يفقد صديقته التونسيّة. لبّى رغبتها وحجز لها مكانًا في مقبرته واطمأنّت إلى أنّه سيعتني بها. قال لي إنّه لن يخذلها.

كبر اسكندر بأسرع مما توقّعت. أخاف عليه أن يشيخ في غمضة عين بسبب صداقته الجديدة مع الموت. أن يصير مجايلًا لعمّتي ويقسو قلبه الغض مثل قلوب حفّاري القبور. أبحث في مكتبتي وأفرح حين أعثر على الأجنحة المتكسّرة. عشقت جبران في أوّل صباي وحفظت حوار البطل، في آخر الرواية، مع حفّار القبور. لقد ماتت حبيبته سلمى وهي تضع طفلها ودفنت مع أبيها. ينتظر العاشق انصراف المشيّعين ليدنوَ منه ويسأله عن قبر فارس سلامة.

ـ في هذه الحفرة قد مدّدت ابنته على صدره، وعلى صدر ابنته قد مدّدت طفلها، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا الرفش.

ـ وفي هذه الحفرة أيضًا قد دفنت قلبي أيّها الرجل، فما أقوى ساعديك.

يسكن الموقف الرومانسيّ الحزين ذاكرتي ويتنقّل معي. نأيت عن المكتبة الأولى وجمعت مكتبة ثانية من الكتب والدواوين التي أُحب. كان فراق المكتبة أفدح، لدى بعض أصدقائي، من فراق الأصحاب وسدرة الدار. سيمدّدنا اسكندر

واحدًا فوق صدر الآخر ويهيل علينا التراب برفشه الألكتروني، مثلما جاء في الرواية. فكرة مجنونة زرعتها لوعة عمّتي في رأسه وستسلبه عقله. إنّه يتبادل الإيميلات مع ابنها في هاييتي، وابنتيها في دبي وتورنتو. يجمع التفاصيل لكي يؤثث مرقد جرجس. يحجز مكانًا قربه لورديّة وربما لسلالتهما من بعدهما. يسبقنا إلى تلك اللحظة الرهيبة ويُدني موتنا منّا ويضع قبورنا طوع أناملنا. نقرة أو نقرتان على لوحة الحروف وتنطلق موسيقانا المفضّلة التي تهدهد رقادنا الأبديّ.

ناموا على رجاء القيامة.

٣٢

لا تشبه هندة والدتها من حيث الملامح، لكنّها "أُم دميعة" مثلها. هكذا كانوا يسمّون ورديّة وورثت إبنتها اللقب. إنّ دمعتها لم تتوقف منذ نزولها من الطائرة في تورنتو مع سلام والطفلين. لا تدري أيّ ريح قذفت بهم إلى هذه البلاد. لم يخطر في بالها أن تحلّق في طائرة فوق كندا. لكنّها رأت العراقيين في الأُردن يحزمون الحقائب الثّقال ويهرعون إلى طائرات تنقلهم إلى أُستراليا ونيوزيلندا والواق واق. يعتبرون أنفسهم محظوظين حين ترتفع الأكفّ المباركة لموظفي القنصليّات وتهبط بختم التأشيرات على جوازاتهم. حقائبهم كبيرة وعريضة يطوون فيها بيوتًا. لا يتغاضون عن المعاطف

والأحذية والبطّانيّات والشراشف وأكياس الشّاي والبهارات والجريش والأدوية والاستكانات وألبومات الصور والوثائق الرسميّة والأسطوانات وأشرطة الفيديو.

"شنط عراقيين". يعرفها الباعة الأُردنيّون في أسواق وسط البلد وأطراف الساحة الهاشميّة. متاعُ بشرٍ ذاهبين إلى مدنٍ لم يسمعوا بها ولا يعرفون لغاتها. تتلقفهم معسكرات ذات قوانين صارمة وموظّفات مكلّفات بتحقيق الاندماج. المهاجر الجيّد هو المهاجر المندمج. عبارة تذكّرهم بأنّ الموظف الجيّد هو البعثيّ الجيّد. يضحكون بمرارة ويحتسون الشّاي الليبتون الأصفر الذي لا يشبه نشارة الحصّة التموينيّة. يدخّنون كثيرًا ويبحثون عن بطاقات هاتفيّة رخيصة للتحدّث مع أهلهم هناك.

ـ وصلنا وحطّونا بالكمب.

ـ الحمد للّه. متى تسحبوننا؟

لم تسكن هندة وزوجها وطفلاهما في الكمب. كانا مهاجرين رسميين لا لاجئين. لم يدفعا المبالغ الباهظة للمهرّبين المحترفين ولم يضطرا لتمزيق الجواز واختلاق اسم جديد. استقبلهم في المطار صديق قديم لسلام وأخذهم إلى شقّته الصغيرة. أقسم أن يعطيهم غرفة النوم الوحيدة ونام مع زوجته في الصالون. فرحت هندة حين رأت زوجته حاملًا. كأنّ جنينها فأل خير. لم يشعروا بالضيق رغم صغر المكان. تفرض المنافي ضروراتها وتقاليدها وتطرد البطر. تجعل من

القليل والبسيط نعمة كبرى. وبعد ثلاثة أسابيع انتقلوا إلى شقّة مستأجرة.

وصلوا في أيلول والحرارة عالية والشمس تجلد الوجوه. لكن هندة خافت أن يفاجئهم الجليد. لم يهدأ بالها حتى اشترت للطفلين ثيابًا سميكة. سيسقط عليهم الثلج من حيث لا يدرون. تسمع العراقيين الذين سبقوها إلى كندا يقولون إنّ هناك أيامًا يتجمّد فيها الماء في العيون. نجّنا يا يسوع. ولمّا ذهبت لتسجيل ابنتها مريم في المدرسة قالوا لها إنها لن تحتاج لركوب حافلة نقل التلاميذ. إن المسافة ليست بعيدة ويمكن للطفلة أن تقطعها على القدمين.

ـ مستحيل، لن أدع عينيها تتجمّدان.

تسخر مديرة المدرسة منها فتشعر بالخجل. طبيبة تردّد خرافات الجهلة. ولمّا انقضى الصيف ونزلت درجات الحرارة تحت الصفر، سارت هندة تحت الثلج ولم تجمد مقلتاها ولا دموعها. كان ذلك هو مقياسها الخاص للحرارة. ما دامت عيناها سائلتين والدموع قادرة على الجريان فإن شتاء كندا ليس باردًا بشكل لا يطاق. سيمكنها احتماله.

عليها أن تقتصد في النّفقات لأنّ النقود التي بين يديها شحيحة. رفضت أن تبيع أيّ شيء تملكه في بغداد وتركت البيت على حاله. إنّ القرار ليس قرارها ولن تتصرّف بالنيابة عن الطفلين القاصرين. لا تريد أن تحرمهما من موطئ قدم في بلد سيبقى وطنًا ينتميان إليه مهما شرّقا وغرّبا. الوطن الأم.

تتلفظ بالكلمة فتلتمع العينان. فخرًا أم دموعًا؟ لعلّ سنواتها في الأُردن، بعيدة عن الأهل، منحتها حكمة مبكرة. تقول لسلام إنّ البيت ليس جدرانًا وسقفًا وحديقة وسطحًا بل معنى يختزل معاني شتّى. تتعدّد المنازل ويبقى البيت هناك. أما كندا فقد كان التأقلم معها مرهقًا. رفض زوجها أن تشتغل وفكّر بشكل عمليّ. يجب أن يعمل أحدهما وأن يواصل الثاني الدراسة. ومن سيختار الدراسة لابد وأن يضمن عملًا في مجال تخصّصه. طبّ أم هندسة؟ سيبحث هو عن أيّ عمل متوفّر وهي ستدرس. عليها أن تجتاز امتحانًا صعبًا لتعادل شهادتها وتتمكّن من ممارسة الطبّ في بلد الهجرة.

عثر سلام على عمل في مصنع لألواح الألومنيوم وبقيت هندة في البيت، ترعى الطفلين وتنكبّ على المجلّدات الطبيّة التي يستعيرها لها المعارف من المكتبة. لم تكن تعرف موقع المكتبة لكنّها تراسلت مع المجلس الطبي وأرسلوا لها الملف الخاص بامتحان معادلة الشهادات. طلبوا الكثير من الوثائق. إنّ توفيرها معركة لوحدها. يريدون منها شهادة التخرّج الأصليّة المخطوطة والمزركشة، تلك التي يضعها الخرّيج في إطار ويعلقها على الجدار. وهي لم تكن تملك واحدة بل ورقة مترجمة ومصدّقة تفيد أنها أنهت دراسة الطب ببغداد. أخذت طفليها وذهبت إلى مركز التسجيل وتكلمت بلطف شديد. شرحت للمسؤولة أنّ إرسال مواطن عراقي إلى القمر أسهل من حصول طبيب مهاجر على أيّ وثيقة رسميّة. المهاجر هو

مواطن هارب في عرف السلطة. تعاطفت معها الموظّفة وتغاضت عن طلب الشهادة الجداريّة.

في الليل، بعد أن ينام الولدان وتطفئ الأنوار، تستلقي على فراشها ويدور عقلها مثل جاروشة تطحن الهواجس والأفكار وشتّى الاحتمالات. تقلّب ما فات وما سيأتي وتجد في نفسها العزيمة للنهوض في الصباح وغسل أسنانها وتلوين شفتيها وفتح الكتب المقرّرة. لا تدري ما سيكون عليه حالها إذا فشلت في معادلة الشهادة. ستتخلّى عن المهنة التي ورثتها من والديها. ليكن. إنّها ما زالت شابّة قادرة على العمل في مجال آخر. تحبّ ممارسة العلاج الطبيعي ولديها خبرة محدودة فيه. لن تحلّ نهاية الكون إذا نقص عدد الأطباء في العالم واحدًا. كانت النكتة سلاح أبيها في مواجهة المحن. ما زالت ضحكته تجلجل في أُذنيها. تعجز أجهزة السكانر والدوبلر عن كشف الأشرطة التي تسجّل الأصوات العزيزة في الرؤوس. تعجبها الفكرة وتبتسم وتجرّ الغطاء السميك ليلفّ قدميها. لن تشعر سوى بالقليل من الغبن في حال تخلّت عن الطب. العاقلة وبنت الناس هي من ترضى بالخيارات الواقعيّة. تُضحّي في سبيل الزوج والأبناء. هل أنت عاقلة يا امرأة أم هوجاء؟ تغفو هندة وعقلها يتصارع مع عقلها.

عندما كانت صغيرة، نظرت إلى والدتها وأرادت أن تكون مثلها، بسمّاعة وصدريّة بيضاء ويدين يفوح منهما السبيرتو. عدّة بسيطة كافية لأن تتوّجها ملكة في عيادتها. تلهج باسمها

البطون المنتفخة وتهتف الحبالى: هلا بالدختورة.

ـ بنتي، إعملي بائعة ورد أو عازفة بيانو أو مصممة ديكور... ما لك ولشقاء مهنتنا؟

تحسد الأطفال الذين لم يكن آباؤهم وأُمهاتهم أطباء ولا تسمع النصيحة. يعودون من المدرسة فيجدون الأُم تنتظرهم في البيت والطعام جاهزًا. لا يأكلون من يد الشغّالات ولا ينامون بدون قبلة من الأب. تعود أُمها من المستشفى لتضع في فمها لقمة ثم تجري إلى العيادة. ستكون هذه حال أطفالها إذا نجحت في معادلة الشهادة.

يعود سلام مرهقًا ومنطفئاً، كلّ مساء، فتتمنّى لو تعمل وتساعده. لا يمكن أن تقوم حياة الأسرة على كتفيّ فرد واحد في بلد مثل كندا. إنّه لا يعمل مهندسًا ليعيشوا برخاء. وحتّى مصاريف امتحاناتها كثيرة. كل إمتحان بألف دولار وبعضها بخمسة. كان الأهمّ ألّا تحرم ولديها مما يشتهيان. تحمّلت وتسلّحت بروحها الجهاديّة وذهبت إلى الامتحان الأوّل. لم تكن إجابتها بالمستوى الذي تتمناه. إنّ هناك نصف ساعة قبل بدء الامتحان الثاني، وزوجها والولدان ينتظرون في الخارج وكأنّهم يمتحنون معها، وشجاعتها تنسحب من المشهد وتتركها وحيدة أمام دفتر ثان. أصعب من الأوّل. يا رب إنّ ظروفي لن تتغيّر وأنت تعرفها. لن أتمكّن من مراجعة الدروس بأفضل مما فعلت. إذا أردتني أن أنجح قف معي. وإذا لم ترد فإنّ الطبّ ليس من نصيبي.

تفتح الدّفتر الثاني وكأنّه عش زنابير. تخشى أن تكون الأسئلة من النوع الذي يطلب الاختيار من عدة إجابات مقترحة. فخّ يحتاج معرفةً عميقةً بالموضوع لتحديد الجواب الصحيح. لا زنابير في الصندوق، بل أسئلة عن حالات سريريّة، لا تحتاج سوى احتمال واحد. صور لأمراض جلديّة وكشوف لتخطيط القلب أو الأشعة. أُمور تعلّمتها بالممارسة قبل أن تراجعها في الكتب. كانت أحداث بلدها قد وفّرت للأطباء الجدد خبرات لا يحصّلها طبيب كنديّ في عمر كامل.

تشكر ربّها بصوتٍ عالٍ بعد أن تنتهي من الردّ على كلّ سؤال. يتصوّر الممتحنون أنها تعاني من خلل ما. أنها معتوهة تكلّم نفسها بلغة غامضة. تكمل الإجابات وتسلّم الدفتر وتمشي بخطوات راقصة. تقول للزميلة الجالسة بجوارها:

ـ الأسئلة سهلة... مو؟

تنتبه إلى أنها تخاطبها بالعربية، باللهجة العراقيّة، من شدّة الانخطاف. تعيد السؤال بالإنكليزيّة وتتلقى زجرًا من الطالبة الشابّة. تتوقّع أنّها خريجة جديدة بلا خبرة. حفظت الكتب ولم تشمّ قيء مريض.

تدفع بطنها وتسافر مع زوجها والطفلين إلى أُوتاوا. كانت قد نجحت في الامتحان الأوّل منذ المحاولة الأُولى، ونجحت في الامتحان الثاني، واستعدّت للأخير وهي حبلى بطفلها الثالث. يجري الامتحان، هذه المرّة، في العاصمة البعيدة. يقود سلام السيّارة لستّ ساعات ويصلون مع الليل. يبحثون عن

فندق لكي ترتاح هندة وتستعدّ للصباح التالي. لم تدخل أيّ امتحان وحيدة. أدّت أُسرتها معها كلّ الاختبارات ووقفت عند أبواب القاعات تدعو وتترقّب. والامتحان، هذه المرّة، عمليّ ويدور حول أربع عشرة حالة، بينها ما هو حديث وما هو مزمن. على الممتحن أن يتنقّل بين أكثر من محطّة بسبب تنوّع الحالات. ولابدّ من الإسراع للوصول قبل رنين الجرس. وهي تحمل حقيبتها بيد وتدعم بطنها باليد الأُخرى وتجري، على مدى نهار الامتحان، من محطّة لمحطّة. يلحق بها المشرف على الطلبة ويجري بجانبها. يصرخ بها أن تتمهّل ويمدّ ذراعه أمامها، يريد تسويرها لئلا تتعثّر وتسقط.

تحوّلت مكاتب الأساتذة في المركز التعليمي الجامعي إلى محطّات تشبه غرف المستشفيات، يستلقي في كلّ منها ممثل يقوم بدور النزيل. يئن ويتوجّع ويسعل ويحكّ ويرتجف ويدّعي ضيق النفس. تلقي هندة نظرة على المعلومات المتوفّرة عن الحالة قبل أن تدخل على المريض. إنّ عليها أن تتحدث معه وتفهم شكواه وتفحصه وتقترح العلاج المناسب. يجلس الأطبّاء الممتحنون يراقبون المشهد مثل جمهور في مسرح. خافت أن تجد صعوبة في اللّغة وفي فهم لهجات المرضى. ثم تفاهمت معهم بشكل طيب وارتفعت معنويّاتها. ينتهي التشخيص فيكفّون عن الأنين ويخلعون سحنة الوجع ويوجّهون لها عبارات التشجيع. تسألها الممثلات من النساء عن موعد الولادة ويتمنين لها حظًا سعيدًا. يحافظ الأطبّاء الممتحنون

على مظهر رصين، في العادة، أقرب إلى التجهّم. لكنّهم يبتسمون للطبيبة العراقيّة الشابّة ويقفون لمصافحتها مودّعين.

استغرقت معادلة الشهادة أربع سنوات إضافيّة من عمرها. وبجانبها استعدّت لخوض الإختبارات الأميركيّة، تحسّبًا للمستقبل. قد يجد سلام عملًا في تخصّصه هناك. لكنّهما اقتنعا، في النهاية، بأنّ كندا بلد هادئ يتيح لهما تربية الأولاد كما يريدان. هل تيقّنا، يومًا، من أنّ هذا الجو هو الأمثل؟ كان توفير الوطن المستقرّ فكرة رجراجة. لا أمان يدوم في أيّ مكان. تفاقمت الأُمور في العراق وصارت العودة مزحة مُرّة. ولمّا وصل الأمر بورديّة إلى ترك البلد، لم تعد المزحة تُضحك أحدًا. بدون الأُمّهات تفقد الأوطان ملحها.

وضعت هندة في رأسها أنّها ذاهبة إلى درب الصدّ. يقول الناس مجاهل أفريقيا ولا يطاوعهم اللسان على التلّفظ بمجاهل كندا. إنّ الصبر طيّب. وهي قد وجدت في تورنتو مجتمعًا عراقيًا عريضًا نشأ من تراكم الهجرات، ما زال يكبر ويتسع. عثرت على رفيقات لها من أيّام الدراسة، تحمّلن المرارات لكي يصلن بأطفالهنّ إلى برٍّ آمن، وفرح سلام بلقاء رفاق له من أيّام الدراسة والجيش. خرّيجون رأفت بهم ماكنة الحروب والملاحقات ولم تقصف شبابهم مع من قصفت. عشرات المهندسين الذين يعجنون البيتزا ويقودون الشاحنات على الطرق السريعة ويحرسون المرائب ويقنطون.

ولم تكن الحرب الكبرى على العراق قد وقعت بعد.

٣٣

ماما الحبيبة،

أنهيت هذا الصباح الامتحان الثالث والأخير لتقييم المستوى. وطوال سبع ساعات كنت مثل قطعة الثياب التي تدور في الغسّالة الكهربائيّة، يغرقونها بالماء والصابون ثم يشطفونها ويدورون بها كالمصراع ليعصروها المرّة تلو المرّة. وبعد ذلك يوجّهون عليها الهواء الساخن لتنشف. خرجت وأنا معصورة وناشفة. لكنّني كنت نظيفة ومرتاحة لأنّ المحنة انتهت. وأنت تعرفين كم تعبت طوال السنوات الماضية. كنتُ أدرس وأستعدّ على قدر ما يسمح به الوقت ومشاغل البيت والولدين. وطبعًا كان من الصعب أن أكمل مراجعة المادّة المقررة كلّها وذهبت إلى الامتحان معتمدة على ذكريات الجامعة، أي ما تعلّمته في الكلّيّة ومن تدريبي في مدينة الطبّ وعملي في مستشفى العزيزيّة. كنت، بخلاف زميلاتي، أسعى وراء الخفارات لكي يتاح لي أن أدخل صالة العمليّات وأتعلّم. ولم أكن أميل للجراحة لكنّني أردت اختبارها لكي تكتمل عدّتي. الآن صرتُ طبيبة تعترف بها كندا ويحقّ لي أن أجد عملاً في تخصّصي. ستأخذني المهنة من حفيديك الحلوين اللذين يسرقانني ويحتلّان كلّ دنياي. هل أنت مستعدّة لتكوني جدّة للمرّة الثالثة؟ أظن أن من الأفضل تأجيل

عملي إلى ما بعد الولادة. وسيكون شاقًّا عليّ أن أترك الصغار وألتزم بدوام المستشفى والخفّارات. لكنّني سأتعوّد، مثلما تعوّدتِ أنت من قبل.

تعوّدت هندة على الكثير من الأُمور إلّا الصقيع. ترتدي المعطف العازل للهواء وتضع قبّعة الصوف فوق رأسها وتتذكّر أنّ الحرارة المعلنة في أصياف بلدها كانت خمسين درجة. يسمع العراقيّون النشرة الجويّة في التلفزيون ويضيفون خمس درجات فوق ما هو معلن. يتصوّرون أنّ الحكومة تكذّب عليهم، دائمًا، وتقلّل من جحيم الطقس لكي يحتملوا جحيمها. لكلّ حدث هنا ذكرى موازية من هناك. لا مفرّ من تشبيه الشيء بالشيئ. تدسّ كفّيها في القفاز المبطّن بالوبر وتسمع في راديو السيارة أنّ درجة الحرارة ثلاثون تحت الصفر. تنظر إلى خدّيها في المرآة لتطمئنّ عليهما. بَشَرة جبّارة تحتمل ثمانين درجة، على المحرار، ما بين صيف الديوانيّة وشتاء تورنتو. ولم تكن قد جرّبت، بعد، لفح الريح الجليديّة في مانيتوبا.

كانت قد قدّمت طلبًا للعمل هناك قبل ذهابها إلى الامتحان في أُوتاوا. سألت طبيب العائلة ونصحها بالبحث عن وظيفة في تلك المنطقة التي يرفض الأطبّاء الذهاب إليها. بيئة بعيدة وقاسية وشبه بدائيّة. أملها الوحيد بعد أن قرأت شروط العمل في كل المحافظات الكنديّة. كتبت عشرات الطلبات

وتلقّت الخيبات. لم يكلفوا أنفسهم عناء الرد. تلاحقهم، أحيانًا، بالهاتف ويتعكّر مزاجها. تنفعل قبل الإتصال وبعده. تخرج منها عبارات عصبيّة لا تليق بمن كان في حاجة للآخر. تضع السمّاعة وتبكي لشعورها بالعجز. بالذلّ. كانت أميرة في بغداد وأصبحت عاطلة تبحث عن عمل في بلاد الغير. هي التي سعت إليهم ولم يذهبوا إليها ليبحثوا عنها ويقدّموا لها العقود المغرية.

ثم جاءت حكاية مانيتوبا. قرأت عن نظام "الرخصة المشروطة" هناك وتصوّرت أنّه ينطبق عليها. كان على المتقدّم أن يثبت نجاحه في الامتحانات الثلاثة لمعادلة الشهادة. إنّهم يستثنون الأطبّاء المتخرجين في الجامعات البريطانيّة من الشرط المسبق للمعادلة. يجرون لهم اختبارًا محليًّا بعد قبول طلب التعيين. أقنعت هندة نفسها بأنّ كلّيّة الطبّ في بغداد تعمل وفق المنهج الإنكليزي. تشجّعت وأرسلت أوراقها تطلب العمل طبيبة في مانيتوبا. واليائس يتعلّق بأيّ وهم. وجاء الجواب مخيّبًا. لابد من التسجيل لاجتياز الاختبار المحلي ودفع الرسوم المقرّرة، قبل النظر في أي طلب. رضينا بالضيم والضيم ما رضي بنا. حتى تلك المنطقة النائية المتخلّفة تتمنّع عليها، في حين يرفض الأطبّاء الكنديون الذهاب إليها والعمل وسط محميّات السكّان الأصليين، الهنود الحمر. تعكّزت على حاجتها وردّت برسالة تقول فيها إنها لن تتقدّم للاختبار طالما أنّهم لا يعيدون نفقات التسجيل في حال وجود نقص في

الشروط. لم تعد تملك ترف التنقل من امتحان لآخر وتبديد الفلوس التي يتعب زوجها ليكسبها. ألقت الرسالة في صندوق البريد وشطّبت على مانيتوبا. لكنّ الرد جاء مشجعًا: "لن تخسري نقودك. سننتظرك لحين انتهائك من امتحان المرحلة الثانية وبعدها سنحدّد لك موعدًا لاختبارنا الخاص".

لا تتبدّد الأدعية في الهواء مثل دخان السكائر. كان دعاءً مزدوجًا، مثل الكيمياوي المزدوج، قد انطلق من هندة في تورنتو وتعزّز بنذور ورديّة في بغداد وطار إلى فوق. طبيبتان تشتغلان بالعلم وتؤمنان بالغيب وتعوّلان على الشفاعات والقديسين والشموع والذبائح والنذور. جاءتها التلويحة الإيجابيّة من بقعة قاحلة. لكنّها تشتاق لها من قبل أن تراها. نجحت في امتحانات المعادلة ولم يبق سوى اكتمال أشهر الحمل. يسألها سلام:

ـ ألستِ خائفة؟

ـ من الولادة أم من مانيتوبا؟

سيأتي الطفل وستأخذه معها إلى هناك. كانت طفلة تشبه جدها جرجس. عينان تتماوجان ما بين الغيم والبحر. وسمّتها نرجس، تقرّبًا من اسم الجد. لمّا سمعت أمّ سلام أنّ كنّتها قد ولدت طفلة ثانية قالت بصوت خافت: "خطيّة ما تستاهل". وبعد ستة أشهر سافرت هندة لإجراء الاختبار في مانيتوبا. وكالعادة ذهب سلام معها. نزلا في مطار جيمس آرمسترونغ ريتشاردسون وهو يحمل الحقيبة وهي تحمل

رضيعتها. كان القلق رفيق الرحلة. تضطرب حين تسمع أنّ الامتحان صعب ولا يجتازه سوى المتقدّمين الهنود. إنّهم أصغر عمرًا. يعادلون شهاداتهم حال إنهائهم الدّراسة في جامعات بلدهم ويهاجرون إلى كندا. لا ارتباطات عائليّة لهم ولا أبناء. لا زوج يقف في الانتظار خارج المبنى. يدخل الأطباء الهنود خفافًا إلى الاختبارات في مانيتوبا ويسرقون فرص العمل.

يقتضي الاختبار الأوّل أن يقف أمام اللجنة طالبان. توقعت هندة أنّ الثاني سيكون هنديًا. وصلت ولم تجده.

ـ أين الممتحن الثاني؟

ـ سحب أوراقه في اللحظة الأخيرة.

حلوة. تغيّبت الهند والعراق وحده في الساحة. إنه الدعاء المزدوج يضرب ضربته الثانية. تجد نفسها أمام طبيبين يعاملانها كزميلة، لا كطالبة عليها أن تثبت جدارتها. يطرحان عليها سؤالين شفهيين وترضيهما الإجابة فلا يواصلان بقيّة الأسئلة. كانت فكرتهما سيئة عن مستوى الطب في بلد أفقرته النزاعات، لكنّ الممتحنة تجيب إجابة العارف المُدرّب. لا تكتفي بالرد على السؤال بل تشرح أدقّ التفاصيل. تقترح نوعيّة الطعام الذي يناسب المريض والأدوية التي عليه أن يتفاداها لأنّها تضرّه.

كالعادة، كان المرضى عشرة ممثلين وممثلات من كلّ الأعمار. يلقّنهم الأطباء أدوارهم ويتلقّون أجورًا على الساعة. سألت هندة أحدهم عن عارض معين يصاحب المرض

وذكرت له الاسم بالانكليزيّة. يسألها أحد الطبيبين عن معنى الكلمة فتتصوّره يسخر منها. يعود ويؤكد لها أنّه لا يعرف المفردة ويطلب منها أن تشرحها له. إنّه عارض يعني تغيّر حجم وريد الرقبة أثناء الشهيق والزفير، وهو تغيّر يصبح معكوسًا في حالات معينة، مثل وجود سائل في غشاء الجنب. يشكرها الممتحن ويقول إنّه يعرف الحالة لكن اسمها العلمي لم يمرّ عليه.

لما انتهى الاختبار، كانوا قد أمضوا ربع الوقت في حديث الطبّ وثلاثة أرباعه في حديث العراق والعراقيين والحرب وأحوال التعليم والمستشفيات فيه. وقبل أن تغادر القاعة، يعطيها الطبيبان رقميهما لكي تتصّل في حال عملت في مانيتوبا واحتاجت لأيّ مساعدة. يتصرفان معها وكأنّها أنهت الامتحان ونجحت فيه. يوجّهان لها الدعوة لشرب القهوة معهما من إبريق موجود في القاعة. تمدّ يدها إلى الترموس، بشكل طبيعيّ، لتصب لهما القهوة في قدحيهما. هي المرأة الشرقيّة المعتادة على الضيافة. يأخذان الإبريق منها ويصرّان على خدمتها. يغيبان لكتابة تقريرهما ويعودان ليعطياها نسخة منه. يصافحانها مهنئين بالنجاح. تفتح التقرير وتجد سطرين: متقدّمة ممتازة. منتبهة. مسترخية. عارفة بموضوعها. دقيقة في كلّ التفاصيل. نتمنى لها حظًا سعيدًا في المهنة. تخرج سعيدة ومشتاقة لطفلتها. تحملها وتذهب لتتناول العشاء مع زوجها. تختار مطعمًا هنديًا.

انتهزت هندة فرصة وجودها القصيرة في المنطقة واتصلت بثلاثة مستشفيات فيها للسؤال عن عمل. كان عليها أن تأخذ الطائرة لمقابلة طبيب يعمل في ونيبيغ، عاصمة المقاطعة. لكن من قابلها كانت طبيبة وليس طبيبًا، امرأة من أهالي المنطقة، نظرت الدكتورة دوبورجوا في عينيها وقالت لها، بشكل صريح، إنّهم يحتاجونها في ونيبيغ، لكنّ هناك مكانًا أفضل لها في فيشر ريفر. الفرصة جاهزة. لكن المنطقة لا تصلح للعائلة. سيكون عليها أن تترك الولدين الكبيرين مع أبيهما في تورنتو وأن تأخذ الصغيرة معها. ما زالت في سنّ الرضاعة. ستبحث عن شروط ومواعيد مناسبة للدوام. لا تأخير في المساء ولا نوبات ليليّة. لن تترك نرجس مع أيّ كان.

ـ هل في إمكانك التوقيع على عقد بالعمل عندنا لستّة أشهر؟

ـ لا أدري، أنا لم أُفارق زوجي وأولادي من قبل. دعوني أُجرّب.

بعد أُسبوعين يرنّ الهاتف في بيتها ليلًا. إنّها الدكتورة دوبورجوا. تسألها:

ـ هل حدث في العراق أن عالجت رجالًا؟

ـ نعم.

ـ هل خلعوا ثيابهم وفحصتهم كما يجب؟

ـ نعم.

ـ ألم يمنعك الخجل؟

ـ كانوا يضطرّون للمجيء عندي في حال غياب الطبيب، وكنت أقوم بعملي وأُعالجهم بدون التفكير في جنس المريض.

ـ إذن اعلمي أنّك حصلت على الوظيفة.

إعتبروا خبرتها العمليّة في بلدها كافية ولم يطالبوها بفترة تدريب. كانت ثقتهم بها شاقّة عليها. لقد أمضت السنوات الأربع الأخيرة بدون عمل، وأصابع الطبيب مثل أنامل عازف الموسيقى. تتصلّب إن لم تتمرّن. إنّها متهيّبة من النفي إلى منطقة نائية تبعد ساعتين ونصف الساعة عن ونيبيغ عاصمة مانيتوبا، وعلى ذراعها طفلة لم تبلغ السنة بعد، وليس معها طبيب آخر في المركز الطبي.

لكنّها فعلتها.

٣٤

ماما الحبيبة

أقبّل عينيك وأُبشّرك بأنّني نجحت في امتحان القبول للعمل طبيبة ممارسة. لقد وجدت مكانًا لي في مستشفى في مانيتوبا. إنّها منطقة بحيرات تقع وسط كندا وبعيدة عن مكان سكني في تورنتو، وبيننا عدة

ساعات سفر بالطائرة ثم بالسيارة. ألم تذهبي للعمل، عند تخرجك، في القرى والأرياف؟ أنا اليوم أحذو حذوك، مع الفارق في المكان. إنّ الديوانيّة أفضل من مانيتوبا. لقد اتفقت مع سلام على أن أُسافر وحدي إلى هناك، لن ننقل بيتنا ونربك دراسة الولدين. أذهب صباح الإثنين من كل أسبوع بالطائرة وأصطحب معي الصغيرة لأنّها ما زالت ترضع. ثم نعود إلى البيت في تورنتو مساء الجمعة. يعني كلّها أقل من سبع ساعات. أهون من طريق الجلجلة البرّي بين بغداد وعمّان أيام الحصار.

آسفة يا أُمي لأنّني غضبت منك لاتصالك بالبطريرك لكي يكلّم كاهن الكلدان في تورنتو. يوصيه بإيجاد عمل لي. هذا بلد لا يسير بالرشاوى والوساطات. تنجح بذراعك وتشتغل بعرق جبينك. ولو جاء كلّ البطاركة والكرادلة وحتى البابوات لما زحزحوا في قوانين كندا شعرة. مع هذا لن أنسى حنوّك ورغبتك في مساعدتي بما تصل إليه يدك. ولم تكن يدك المباركة تصل إلى أبعد من الكاهن، لكنّ دعاءك لي بلغ عتبات السماء.

كم أشعر بالخجل من تلك اللحظات الشيطانية التي كنت أنهرك فيها، منذ أن كنت طفلة وحتّى بعد أن تزوجتُ وصرت أمًا. كنت مدلّلتك التي استغلّت قلقك وبالغت في سطوتها العاطفيّة عليك. أضيق بكلامك

وأنهرك وأتأفّف من ملاحظاتك فلا أسمع منك سوى "زين بنتي... زين..." تقولينها بصوت رائق وكأنّ الجين المسؤول عن الغضب ليس بين جيناتك. كيف لم أشعر بجفوتي معك، من قبل؟ لقد تجمّعت الذنوب كلّها، مرّة واحدة، واصطفّت أمامي تؤنّبني منذ أن وصلت كندا وصرت خارج مدار حنانك. أشعر اليوم بفداحة نزقي معك عندما أوصي أولادي بالحذر من البرد وعدم خلع المعاطف والقبّعات في ساحة المدرسة. يزجرونني ويسخرون من حرصي وخشيتي. "أوف... افتهمنا... دوختينا".

لا يكفي الاعتذار بالكلمات. ليتني قادرة على العبث بقوانين كندا وتسريع معاملة هجرتك لكي آتي بك إلى هنا وأخلمك بالعينين. ليت الموظفين هنا يرتشون لكي نحلّ المشكلة. هل ستنهار خزانة هذا البلد إذا تكرّم بعملية لركبتيّ طبيبة عراقيّة؟

أشتاق لكِ وأوصيكِ بعدم الإجهاد وبأخذ دواء الضغط في مواعيده. لا تقلقي علينا حيثما كنّا. نحن بخير ولا ينقصنا سواك.

وصلت هندة إلى مانيتوبا وعملت في محميّة للهنود الحمر. لا تحب التسمية وتفضّل عليها السكان الأصليين. كانت سيليا ستيفنسون، مديرة العيادة الطبية، قد استقبلتها في المطار

وساعدتها في نقل حقيبتها ومهد نرجس إلى السيارة. نبّهتها إلى فارق التوقيت الذي يبلغ ساعة بين المدينتين، ثم ساقت السيارة لمسافة ساعتين ونصف الساعة إلى فيشر ريفر. إنّها من المناطق التي يسمّونها "خارج الخدمة"، أي لا تتوفّر فيها المستلزمات التحتيّة الكافية.

حالما أدارت عينيها في المكان، ابتسمت بأسى وتأكّدت أنّ الديوانيّة كانت أحسن مئة مرّة من هذه البقعة المنقطعة. "منكطعة" على قول العراقيين. لا شوارع ولا أبنية ولا بيوت متجاورة تشبه ما يوجد في المدن، بل فضاء تتناثر فيه منازل متباعدة. مرّت بها المديرة على السوق لكي تشتري لوازم البيت. منظّفات ومناديل ورقيّة وحفاضات للطفلة. سلّمتها مفاتيح العيادة وسيارة الجيب اللازمة لتنقّلاتها. تشير إلى البيت الذي سيكون مأواها. إنه تابع لمدرسة البلدة ولا يبعد عن العيادة كثيرًا.

لثلاث سنوات لاحقة، ستواصل سيليا انتظار هندة بالسيارة في مطار ونيبيغ. وعندما يمنعها أمر ما ترسل الصيدلي لاستقبال الطبيبة الغريبة الآتية من بغداد. تدخل البيت وتجده موحشًا. تقلق لأنّه بدون هاتف. لا أحد في العيادة وقد انتهى الدوام. لم يبق أحد هناك. تحتضن نرجس بقوّة لكي لا تشعر أنها وحيدة. تخاف بدون سبب وتفكّر كيف تتصرّف لو حصل لهما أيّ حادث. بمن تتصّل وأيّ باب تطرق. من سيخبر زوجها لو أصابهما مكروه. تترك المشتريات على

طاولة المطبخ ولا تفكر بوضع اللحوم والحليب في الثلّاجة. تحمل الطفلة وتقود الجيب وتذهب إلى العيادة. تريد أن تستخدم الهاتف وتحتاج أن تسمع صوت سلام. أن تتحدّث معه وتعطيه عنوانها الجديد. تدير المفتاح وتدخل المبنى الغريب. تبحث عن التلفون وتتصل بزوجها. يردّ عليها فلا تتكلّم. يمنعها البكاء.

- ارجعي فورًا. ملعون أبو الطّب. ما لازم تشتغلي طبيبة.

إنه مساء الاثنين، وحجز الطائرة لا يسمح بعودتها قبل مساء الجمعة. وقرّرت أن تصبر خلال الأيام الأربعة المتبقية وبعدها تعود إلى بيتها ولا تضع قدمًا في مانيتوبا. لقد هدأت بعد أن سمعت صوت زوجها وارتاحت لفكرة العودة. قفلت راجعةً إلى البيت الموقّت وتعشّت مع الصغيرة وأمضت سهرتها تستمع إلى شريط غنائي كانت قد حملته معها من بغداد. ولمّا نامت، استيقظت على شمس رائقة ومزاج مختلف ووضعت نرجس في مهدها النقّال وذهبت إلى الدّوام. وسرعان ما تلقّف العاملون مهد الصّغيرة وتعرّفت الممرّضات والمرضى عليها قبل أن يتعرّفوا على أُمها.

توجّست ألا تكون قادرة على العمل مع أُناس غرباء وفي منطقة غريبة. لقد نجحت في الامتحانات كلّها لكنّ أحدًا لم يدرّبها على أُسلوب هذه البلاد التي تختلف أمراض الناس فيها عن أمراض بلادها. إنّها لا تعرف الكثير عن طباعهم وتقاليدهم وثقافتهم ومعتقداتهم. وقد قرأت أنّ دينهم يقوم

على الإيمان بالأرض، أُم الجميع، وبالطبيعة التي تتغيّر مع الفصول، فكيف سينظرون إليها وإلى دينها، هي الآتية من بلد لم يسمع به أغلبهم؟ كانت تخشى ألا يفهموا لهجتها لكنّ الأمور سارت بشكل طيّب مع المريض الأوّل، وكذلك مع المريض الثاني، وقبل أن تستقبل الثالث اتّصلت بسلام:

ـ سأعود الجمعة لقضاء نهاية الأُسبوع معكم لكنني باقية في مانيتوبا.

٣٥

ليت بستانة كانت هنا لتهتم بنرجس في غيابها.

لم تنقطع علاقتها بالمرأة التي سقتها ماء الحياة. بقيت تعمل فرّاشة في روضة الديوانيّة حتى بعدما تخرّجت هندة وصارت طبيبة. قرّرت بعد التخرّج أن تذهب إلى هناك لتراها وتطمئن على أحوالها. لكن بستانة كانت خارج الديوانيّة في ذلك اليوم. تزور كربلاء. عادت ولم تشمّ رائحتها.

ظلّ الأمر يحزّ في نفس المرضع القديمة. وبعد شهرين أخذت إبنتها وركبت الحافلة الذاهبة إلى بغداد ودخلت على الدكتورةورديّة في عيادتها. كانت البنت، أُخت هندة في الرّضاعة، قد كبرت وأصبحت معلّمة وتزوجت وبدأت تعاني من أوحام الحمل الأوّل. فحصتها ورديّة ولم تتركهما تعودان أدراجهما. أخذتهما إلى بيتها وحلفت عليهما أن تبقيا عندها

أُسبوعًا. ولـمّا عادت هندة من دوامها وأوقفت سيارتها في المرأب، سمعت أُمها تصيح عليها من شبّاك المطبخ:

- إحزري منو عدنا؟

- بستانة.

لم يذهب فكرها إلى أيّ كائن آخر. والسرور في نبرة ورديّة كان يدلّ على واحدة لا غير.

تجلس بستانة على السجّادة في غرفة الخطّار وتطوي ساقيها تحتها. لا ترتاح للأرائك الوثيرة المدوشمة بالقطيفة الزرقاء. تأتي هندة وتتمدّد بجانبها، تاركة لها أن تفلّي شعرها من قمل مندثر. كفّها سمراء نحيلة موشومة الظاهر ورائحتها هي هي. يطلب جرجس من ابنته أن تأتي له بقدح ماء، تهبّ بستانة واقفة وتقفز إلى المطبخ.

- سودة بوجهي... هنودة تجيبلك ماي؟

هنودة، الأميرة المدلّلة التي قذفت بها الريح إلى ريفر فيشر وتركتها حائرة ما بين عملها وطفلتها الرضيع. ماذا تفعل بخزّان التداعيات؟

ليت بستانة كانت هنا.

لم يطل الأمر وعثرت على جليسة أطفال من أهل المنطقة. لا تدري كيف ستأتمن غرباء على طفلتها ولم تتعوّد على العيش مع أقوام آخرين لهم ألغازهم وإشاراتهم التي تستعصي عليها. تركت أمرها للإيمان الذي كان يتغلغل، أكثر فأكثر، في قلبها. تعجب من تلك الجذوة المتّقدة وتقول

لنفسها: إنّ المحن التي مرّ بها بلدها ألقت بالعراقيين على باب الله.

تقيم الجليسة باربارا قرب العيادة وتذهب لتبقى مع نرجس في البيت. ولمّا انتقلت هندة لتسكن دار الأطبّاء التابعة للمستشفى، صارت تأخذ ابنتها إلى بيت باربارا، كلّ صباح، وتبقيها عندها طيلة الدوام. بيتها بسيط ونظيف ومشمس حينما تكون هناك شمس. لا تشبه بستانة إلا في سمرة البشرة. والمهم أنّها كانت سليمة من الأمراض السارية وصالحة لتأدية المهمة.

يقع المستشفى في مدينة صغيرة خارج المحميّة، لا تزيد بيوتها على العشرة لكنّها متلاصقة وغير مبعثرة. وبدل الفضاء الترابي، هناك شارع رئيسي معبّد وجدير بهذه التسمية. أما دار الأطبّاء فكانت مجموعة غرف في مبنًى من طابق واحد، لكلّ منها بابها المستقلّ الذي يفضي إلى الشارع. وفي الغرفة زاوية للطبخ وحمّام وفسحة تحتوي على أريكة يمكن تحويلها إلى فراش.

تعتاد هندة مكانها الجديد وتصبح مشكلات التأقلم قصصًا تحكيها لزوجها وتكتبها لوالدتها في الرسائل. والطبيبة الآتية من بلاد ألف ليلة وليلة صارت حكاية يتسلّى بها الأهالي. يسمع بها سكان المحميتين المجاورتين، من أقارب مرضاها، فيقصدونها لتداويهم. يتهامسون فيما بينهم أنّها طيبة، وذات كفّ خفيفة تمسح الأوجاع. خافت أن تتحوّل إلى وليّة

صالحة في تلك البقعة النائية، حيث تقسو الطبيعة حتى على القوم الذين يعبدونها، لابدّ أنّهم عبدوا تقلباتها، ليكسبوا بركتها وليأمنوا شرّها. تتأمل هندة أحوالهم وأحوالها ولا تجد، في النهاية، سوى الانحناء لتلك الريح التي قذفت بها إلى مانيتوبا. للبركة التي ألّفت بين قلبها وقلوب مرضاها الأغراب.

إستقر اسم جاك في بالها. كان مريضها الأوّل الذي افتتحت به سجلّ الزيارات. حين جاءها إلى العيادة الطبيّة، لم تكن تعرف، بعد، مكان جهاز قياس الضغط ولا المسطرة الخافضة للّسان. لكنّه هوّن عليها.

ـ ستتعلّمين كلّ شيئ قبل نثّيث المطرة الأُولى.

كان يعاني من ارتخاء في المعدة. وقد ذهب عدّة مرات إلى المستشفى لكنّهم لم يشخّصوا حالته. وصفت له دواء وطلبت إليه أن يعود بعد أُسبوع. ولما عاد كانت حالته قد تحسّنت فأعطاها شهادة بأنها طبيبة جيّدة، حتى لو كانت لا تعرف مكان جهاز الضغط. وبعد فترة أرسل لها جاك إبنته وزوجها. إنها المرة الأُولى التي ترى فيها شابين في أواسط العشرين مصابَين بتشمع في كبديهما. لا ينفع الكلام مع مدمنين على الشراب. لقد نصحهما أطباء، قبلها، دونما جدوى. لكنّ الزوجة عادت وحدها إلى العيادة ودخلت دامعة العينين على هندة. كانت قد سقطت على الدرج، وهي سكرى، وكسرت رقبتها. فحصتها فوجدت أن الكسر لم يتحرك من مكانه. وأرسلتها إلى المستشفى في سيارة إسعاف

للتثبت من الكسر وإحاطة الرقبة بحزام داعم.

في اليوم التالي عادت المريضة مع زوجها لتشكر الطبيبة. وفوجئت هندة بوجود أطفال خمسة معهما. لم تحتمل رؤيتهما يدمّران حياتهما ويرفضان العلاج من الإدمان. كانت هناك تسهيلات للحالات المماثلة ومراكز مجانيّة ومعالجين نفسيين واجتماعيين. لكنّ المدمنين لا يذهبون ليطلبوا المساعدة. لا أحد يعترف بأنّه مريض. لا أحد في ريفر فيشر يريد تغيير واقعه.

أدخلتْ العائلة إلى غرفة الفحص وأقفلت الباب. إنّ قوانين البلد تكفل حرية المواطن في التصرّف بحياته طالما كان بالغًا سنّ الرشد. ليس من حقّها انتقاد أُسلوب عيش أيّ مريض. وكل ما في وسعها تقديم النصيحة، بدون ضغط أو إرغام. سألت هندة المرأة:

ـ متى ولدت يا سوزانا؟

ـ في سنة الجفاف الكبير... قبل خمسة وعشرين عامًا

ـ بل أنت ولدتِ البارحة لأنّ هذا الكسر، لو تحرّك قليلًا، لضرب مركز التنفس وقتلك أو رماك مشلولة.

لم تقرأ هندة في كتب الطب عن حالات تشمّع كبد في سنّ العشرين. إنّه قد يحدث لأسباب ولاديّة، لا بسبب الخمور. شرحت حقيقة المرض لسوزانا بأُسلوب بسيط. قالت لها ولزوجها إنّهما معرّضان لما هو أسوأ.

ـ هل فكرتما من سيربّي أيتامًا خمسة؟

كعادتها حين تنفعل، تغلف دمعة هندة مقلتيها وتُكسب صوتها عمقًا وخطورة. تتماهى مع مريضها وتتبنّى معاناته. تصبح مأساته مأساتها. يتعاطف الزوجان مع قلقها ويحزنان لحزنها. تقف سوزانا وتعد بأن تذهب إلى مركز للعلاج. لم تجد من قبل من يهتمّ لأمرها ويحنو عليها مثل هذه المرأة الغريبة. ستدخل المصحّ لمدّة ستّة أشهر. وبعد شفائها سيذهب من بعدها زوجها.

ـ ستفعل ذلك يا روبرت... ستفعله من أجل الصغار؟

ـ نعم ... نعم ... من أجلك ومن أجل الصغار.

وقف روبرت وسوزانا، بعد عام، أمام جمع من شباب ريفر فيشر ليتحدّثا عن تجربتهما في التخلّص من الإدمان. قالت الزوجة، وصوتها يرتجف من التأثّر، إنّ اليد الحنون التي امتدّت لهما جاءت من بغداد.

٣٦

ستّة أشهر من التنقّل الأُسبوعي مرتين بالطائرة. تذهب الجمعة وتعود الاثنين. ستّ ساعات في الذهاب وستّ في الإياب. وتيرة مرهقة وكافية لأن تصيب نرجس بالتهاب الأُذن الوسطى.

وصلت حماة هندة من الأُردن بعد مغامرات يراها العراقيّون

طبيعيّة. التفاف بين المطارات وتسلّل من حدود أميركا البرية، وانبطاح في أرضيّة السيارة، تحت الأغطية وأرجل الصغار. استقرّت معهم في تورنتو فكبرت العائلة. وهي قد تزداد عددًا إذا نجح الأشقّاء والشقيقات في مساعي الهجرة والتفتت لهم مفوضيّة اللاجئين. حان الوقت للانتقال إلى بيت يسع الصغار عندما يكبرون والكبار عندما يفدون.

لم تعد تأخذ نرجس معها إلى مقر عملها بل تتركها في رعاية الجدّة. ترتاح لأنّ الطفلة ما عادت تتنقّل في المطارات وبين الأيدي الغريبة. لكن فراقها يشقّ على هندة. كانت ونيستها، تنام معها في الفراش وتطرد عنها الوحشة. تخفّف من شعورها بالذنب بنسبة الثلث لأنّها تترك ولديها الآخرين وتعمل في مكان بعيد. تسحب لحاف نرجس وتشمّه وتبكي. عينان ملوّنتان وكركرتان وعدّة ضمّات وينقضي ليل مانيتوبا الطويل. سبعة كيلوغرامات تعوّض عن عائلة.

لا تترك سيليا ستيفنسون صديقتها العراقيّة لوحدها في الأوقات الصعبة. تقدّر شوقها لابنتها وتخترع المناسبات لكي تدفعها إلى الخروج من الشقّة وتحيطها بأجواء عائليّة. تأخذها في المساء إلى بيتها أو لزيارة أهل زوجها. تعرّفها على صديقاتها وأصدقائها. تذهب لتتعشّى مع هندة وتأخذ معها أفلامًا مسجّلة لكي تسلّيها.

وصل الدكتور حافظ وعائلته إلى ونيبيغ ففرحت بهم لأنّهم يتكلّمون لغتها. طبيب إسكندرانيّ متخصّص في الأمراض

المزمنة، ذكيّ لمّاح وخفيف ظل. يتحدّث معها في السياسة وفي الفن وفي التاريخ فتشعر وكأنها تشاهد فيلمًا مصريًا. يذهب مع زوجته إلى السوبرماكت كلّ مساء ويتّصل بهندة لكي يسألها عما تحتاج. يأتيها بالأكياس إلى باب شقّتها ويضحك منها حين تصرّ على تسديد الحساب فورًا .

ـ مستعجلة ليه... هوه أحنا ح نتطلّق؟

يشعرها كلّ ذلك الودّ بالحرج. إنّ العاملين في المستشفى يدلّلونها لكي تبقى معهم ولا تهرب مثل كلّ الأطبّاء الذين سبقوها. وحتّى المرضى الذين حذّروها منهم كانوا طيبين معها. بسطاء يفرطون في الطعام والشراب والمخدرات ويعيشون على المساعدات الحكومية في محميّات خاصّة. كأن الدولة تعزلهم، وتقدّم لهم الرشاوى، وتشجعهم على ذلك النمط من الحياة. تلهيهم بالخمر والحشيش لكي تتجنّب مشكلاتهم وتصرفهم عن المطالبة بحقوق أُخرى. وهم قد أحبّوها وقبلوها بينهم لأنّها لم تستق أفكارها عنهم من أفلام هوليوود. احترمتهم وكانت، بخلاف الكنديين البيض، لا تنظر لهم نظرة متعالية.

في غرفتها، كانت أحيانًا، تصلي من أجل شفاء مرضاها. تقودهم طريقةُ حياتهم وطعامهم إلى السّمنة وأمراض القلب ومحاذير العلاقات الجنسيّة المنفلتة. لقد عالجت حالات كثيرة للسكّري والضغط وتكلّس المفاصل، لكنّها لم تقابل عشرات يعانون من الأمراض الزهريّة إلا في مانيتوبا. لا تصدّق ما تراه.

تتمهّل وتنتقي العبارات المخفّفة وهي تُخبر المريض بأنّه مصاب بدرجة متقدّمة من داء السكّري. تحاول ألا يكون كلامها صادمًا. لكنّه يقابل الخبر بالضحك والسرور ويفرح لسماع التشخيص. هذا المرض تقليد قوميّ ولا حرج من الإنضمام إلى جموع المصابين بالسكّري في المنطقة.

لم تكن المديرة الطّبيبة سيليا ستيفنسون قانطة ومستسلمة، مثلهم. امرأة حادّة الذّكاء. واحدة من الذين تمرّدوا على واقعهم. كافحت لتكسر دائرة البؤس وأكملت دراستها ووصلت إلى مركز لم يصله غيرها من قبل. حكت لها طويلًا عن هموم السكّان الأصليين المتراكمة منذ زمن بعيد. ولم تكن هندة جاهلة. أدركت أنّ المشكلة سياسيّة قبل أن تكون صحيّة، بدأت منذ وصول أول رجل أبيض إلى القارّة الواقعة في المقلب الآخر.

يمر الأهالي بالعيادة، في طريقهم إلى السوق، ليسلّموا عليها ويطمئنوا على راحتها.

ـ هل أنت بخير؟ أتنقصك حاجة؟

يَخشون أن تذهب الجمعة ولا تعود الاثنين. لكن مخاوفهم تبدّدت بعد أن بقيت معهم سنة أُولى وجدّدت عقدها لسنة ثانية، ثم ثالثة. تعوّدوا على قامتها الطويلة التي لا تشبه قامات نسائهم ولاحظوا أنّ شعرها السَرِح المنسدِل على عينيها يشبه شعرهم. تمرّ بسيّارة الجيب العتيقة فتخفّف السرعة وتلوّح لهم بالسلام. لم يعد من المناسب الاعتماد

على سيّارة المستشفى ولابدّ لها من شراء واحدة خاصّة بها.

تبدأ الكيلومترات التسعون الأُولى من ونيبيغ مثل أيّ طريق خارجيّة سريعة. ممران للذهاب ومثلهما للإياب، مع حاجز واضح المعالم يفصل بين الاتّجاهين. ثم تتحوّل إلى ممر واحد لكلّ اتجاه، لا يفصل بينهما أيّ سياج. ويزيد من الخطر أنّ الجوانب منحدرة وليست مستوية، تقطعها الغزلان والوعول والجرذان السّمينة الشاردة. تكثر في الليل حوادث الاصطدام وانقلاب السيّارات. سائقون ثملون وهاويات غير مرئيّة. حتّى إذا حلّ موسم الشتاء وغطّى الثلج كلّ الدروب، فإنّ السيّارات تسرح من تلقاء نفسها. تمارس رقصاتها ولا يعود لسائقيها من سيطرة عليها.

لم يسبق لهندة أن ساقت سيّارة في الثلج. إنّ لكلّ تجربة مرّة أولى. وهي قد فعلتها في مانيتوبا. كانت قد قادت سيّارتها، صيفًا، في ذلك الجزء الخطر من الطّريق، قرب نارسيس، حيث تخرج الثعابين الكبيرة وتعبر الطريق ويأتي السيّاح لتصويرها. وكان عليها أن تسوق على مهل لئلّا تدعس بعضَ الأفاعي التي تتوقف في الوسط وترفع رأسها في تحدّ سافر. لذلك فقد ضحكت طويلًا حين نصحها سلام بشراء سيارة مكشوفة تنفعها في أيّام القيظ. إنه لا يعرف الذّباب الأسود المنتشر في المنطقة. يأتي ليقيم ولائمه على الأسماك الكثيرة المبذولة على حوافّ البرك المائيّة. كلّ ذبابة في حجم حمّصة، ويتضاعف الحجم حين ترتطم بالزجاج

الأمامي للسيارة وتنفرش عليه. تجبر الحشرات السائقين على السير بنوافذ مقفلة. إنّ السقف المكشوف هو دعوة صريحة لذباب مانيتوبا لكي يضرب الرؤوس ويلتصق بها.

تأخذها سيّارتها الجيب الجديدة إلى أماكن ساحرة في المقاطعة الفقيرة التي تنام على مئة وعشر بحيرات. تقوم برحلات مع الدكتور حافظ وأُسرته وتتعرّف على جبل بالدي وتصل إلى مشارف بحيرة أغاسيز. منطقة متجمّدة طاردة للسكّان، لا تشبه مجاري المياه الكثيرة التي تتلوّى في وديان مستوية. وصيادون يبحثون عن عشاء يومهم، على ضفاف أنهار ريد ونلسون ووايتشيل، ويقذفون بالشصّ فلا تتأخّر الأسماك عن التلبية. كانت فيشر ريفر منطقة صيادين، تقع إلى الشمال من ونيبيغ، لا يزيد سكانها على ثلاثة آلاف، وقد أخذت إسمها من حيوان مائي لم تره هندة من قبل، يسمّونه إبن عرس. تشتهر بأسماكها التي تعيش في البحيرات العذبة المياه. لحم أبيض سمين تذوّقته هندة، مشويًا، فأحبّت مذاقه. تقول لسيليا إنّه الألذّ في العالم بعد المسكوف على دجلة. ثم تشرح لها ما هو المسكوف. تستخدم يديها وعينيها ويسيل لعابها وهي تصف حطب الشّواء وحلقات البصل والطماطة والعنبة وخبز التنّور.

يحمل لها مرضاها ما يعبّرون به عن الامتنان والأريحيّة. إنّه الكرم الوحيد المتاح لهم. يختارون لها أفضل السمكات وينظّفونها ويغلّفونها بالورق الفضي ويرتّبونها، مع قطع الثلج، في

صندوق الفلّين العازل. هدايا تأخذها معها في الطائرة، كلّ جمعة، إلى عائلتها. يجتاز صندوق الفلّين إجراءات الأمن في مطار ونيبيغ ويدخل صالة مسافري الدّرجة الأُولى. يعرف جميع العاملين هناك أنّها أسماك الطبيبة العراقيّة الذاهبة إلى تورنتو. حفظ الطاقم شكلها وهي تمر بهم حاملة طفلتها؛ وكانت المُضِيفات يتلقّفنها منها، حال دخولها إلى الطائرة. نشأت صداقة بينها وبين أمثالها من المسافرين الأُسبوعيين الذين اعتادوا وجودها في رحلات الجمعة. يقلقون ويسألون عنها إذا تغيّبت عن الرحلة. مطار فقير يقدم البسكت في صالة كبار الزوّار. وإذا حدث ونفد البسكت تجد هندة أنّ العاملة قد حفظت لها حصّتها، مسبقًا. تأتي بها ملفوفة في منديل ورقي وتدسّها في حقيبة يدها. يترقّب بعض العاملين في المطار مواعيد سفرها لكي يأتي وتداويه أو تداوي أحد أطفاله.

على فَرادتها، فإنّ المغامرات لا تدوم العمر كلّه. وعلى حد قول غسّان الفلسطيني "مش كلّ يوم زلابية". وقد كان على هندة أن تطويَ صفحة مانيتوبا وأن تتقدّم لامتحان جديد يؤهّلها للعمل كطبيبة عائلة. إنّه الحل الوحيد لكي تجد عملًا في تورنتو وتعود إلى أُسرتها. وقد كانت المنافسة شديدة لكنها نجحت من المحاولة الأُولى ونالت الرخصة. وكم كان شاقًّا عليها أن تخطر سيليا ستيفنسون بأنّها ستغادرهم مع انتهاء الربيع. لم يكن العمل هو ما أتعبها بل ركوب الطائرة، مرّتين في الأسبوع، لقرابة الثلاث سنوات. تحتاج لأن تعود زوجة وأمًا طبيعيّة، تنام على سرير الحب في بيتها الخاص.

٣٧

لم يكتمل على خير ذلك الربيع الذي ستترك، في أواخره، مانيتوبا.

دقّت الطبول مجدّدًا وتحرّكت حاملات الطائرات الأميركيّة العملاقة في إتجاه الخليج. طارت النفّاثات لتقصف العراق ودمدمت الدبّابات وهي تزحف عليه.

لم يحدث أن شعرتْ بالعجز كما هي في تلك الأيام. عاجزة ووحيدة ومرتعبة ومكتئبة وهي تتفرّج على التلفزيون، في غرفة مدير المستشفى. ترى سماء بغداد تمطر نارًا. بمن تحتمي أُمّها من كل هذا الجحيم؟

دخيلك إلهي. تصلّي وهي تفحص المرضى، تصلّي وهي تقود سيّارتها، وهي في السوبرماركت، وتبكي وهي في سريرها المرتجل. تصلّي وتنام على قلق وتنهض لتنغمس في العمل لعلّها تحافظ على توازنها. وفي تلك الأيّام العصيبة، ذهبت مجموعة من نساء ونيبيغ لتنظيف كنيسة البلدة على نيّة العراق. لسن مسيحيّات لكنهنّ أردن القيام بأيّ عمل يفرح قلب الدكتورة.

ـ لقد صلّينا من أجل بلدك... لكي لا يؤذي الأميركان أهلك.

ثأر قديم بينهم وبين الكاوبوي. مشاعر قهر معتّقة ومتوارثة تجمعهم بهندة فيلتفّون حولها ويحاولون مواساتها. تصبح هي

المريضة وهم أطبّاؤها. سكّيرون غائبون عن الدنيا يدخّنون ويتابعون أخبار حرب لا تعنيهم. يتهجّون اسم مدينة بعيدة لا يعرفون عنها سوى أنّ امرأة منها تكشف عليهم وتكتب لهم وصفات شافية. رجال ونساء من السلالات الأصليّة للبلاد. أخطأ كولمبوس حين خدعته سمرة جلودهم التي لوّحتها الشمس فسمّاهم الهنود الحمر. دخل عليهم الغرباء واحتلوا سهولهم وهضابهم وأبادوا منهم من أبادوا ودفعوا بالباقين إلى الزوايا المعتمة. وهي التي لم تنتم لحزب وكانت تخاف السيّاسة خوفها من العقارب، وجدت نفسها تكتب في الرسائل عن الغزو الاستعماري وعن الثروات المنهوبة وعن الهموم الانسانية التي توحّد البشر وعن النزوع الفطري للصداقة والسلام بين الشعوب. هل صارت يساريّة وهي لا تدري؟ لا تعرف هل تضحك على هذه العبارات التي يخطّها قلمها أم تنتحب وهي ترى نساءً وثنيّات يدخلن كنيسة لكي يمسحن الغبار عن مصاطبها ويشطفن أرضيّتها، لعلّ روح الدكتورة تهدأ وتستكين.

في تلك الأيّام، استدعتها سيليا لترافقها إلى تدشين جناح جديد في العيادة الطبيّة. حفل بسيط لكنّه حدث عظيم في المنطقة. وصلت إلى هناك وتعرّفت، بين الوجوه، على الكثير من مرضاها ومن زملاء العيادة. كانت الإدارة قد دعت الأهالي للحضور وأعدّت لهم مائدة مفتوحة. ترك الجميع الطعام والشراب حالما رأوها تدخل القاعة. أحاطوا بها

يسألونها عن تطوّرات الحرب وعن أخبار أهلها.

قدّمتها سيليا إلى صحافيّ جاء خصيصًا من أُوتاوا لكي يغطّي افتتاح الجناح الجديد. قالت له إن الدكتورة هندة من الشخصيّات المحبوبة في المنطقة.

ـ من أين أنتِ؟

ـ من العراق.

إسم سحريّ جعل الرجل يُخرج كاميرته ويصوّرها. يفتح دفترًا صغيرًا ويأخذها جانبًا لاستكمال الفضول. أين ولدت؟ ما هي الديوانيّة وأين تقع؟ في أيّ جامعة درستِ؟ لماذا غادرتِ العراق؟ متى وصلتِ إلى كندا؟ كيف تقطعين المسافة كلّ أُسبوع بين بيتك والمستشفى؟ هل أنت سعيدة هنا؟ ما رأيك بما يجري هناك؟ هل تتّصلين بعائلتك؟ كم تبلغ قائمة هاتفك؟

التلفون كان وسيطها إلى أُسرتها. ينقل إليها أصواتهم وأخبار مشاحناتهم الصغيرة وأشواقهم وقبلاتهم. يتبارون في القبلة الأكثر فرقعة. من يحبّ ماما أكثر يبوسها أعلى. تنقل السمّاعة من أُذنها وتضعها على شفتيها، ثم على خدّها، ثم على عنقها. تغمض عينيها وتتلقّى شفاههم وكأنّهم لصقها. لا تعرف كيف تكشف، لهذا الصحافي الأجنبي، لوعةَ كيانها المشطور بين المدن والقارات. نعم هي سعيدة لأنّها تأكل وتشرب وتعمل وتقرأ على ضوء الكهرباء وتغتسل بماء وفير وتربّي أولادها في أمان وبدون هلع. سعيدة ومسرورة لأنّها تعيش حرّة في بلد يسري فيه القانون على الجميع. مسرورة

وممنونة، لأنّها تمارس اختصاصها، بينما لا يملك أطبّاء كثر من زملائها هذا الترف. لم يفلحوا في معادلة شهاداتهم. ممنونة وفي قمة الاغتباط لأنّها مرتاحة في عملها البعيد عن بيتها راحة قد لا تتوفّر لكثيرين ممن يعملون في المبنى المجاور لمنازلهم. لكن لا، هي غير سعيدة ولن تكون، في أيّ يوم، سعيدة تمامًا. ثمّة مرارة ما تحت اللسان. هناك غبن سيبقى كامنًا في موضع ما، من تاريخها الحميم، لأنّ يدًا سلختها عن حياة سابقة وزلزلت ركائزها. هل تعرف، جنابك، حجر الأساس الذي يحتفلون به عند البدء بتشييد المباني المهمّة؟ لقد اهتزّ حجر أساسها في اليوم الذي حملت جنسيّة ثانية.

تتحدّث بانفعال والصحافي يلهث وراء عباراتها. يملأ الصفحات بخربشات كبيرة ويقلّب أوراق الدفتر ليلحق بها. إنّها لا تخاطبه، مباشرة، بل تحكي مع نفسها وتعرض حالها. هو مجرّد "عرضحالجي" يحسن التدوين والتقديم.

يسألها في النهاية عمّا تريده من حياتها في كندا.

ـ ماذا يتمنّى المرء أكثر؟!

ـ بل ماذا تتمنى كندا أكثر!

نشر بوب ليندسي مقالًا احتلّ نصف صفحة عن الدكتورة هندة جرجس منصور. قال للقرّاء إنّها الطبيبة العراقيّة التي تعمل بمثابرة في مانيتوبا رُغم أنّ الطائرات تقصف أهلها ووطنها. وتصدّرت المقال الطويل صورة لها. وفي آخره، وردت إشارة في خمسة أسطر إلى افتتاح الجناح الجديد في عيادة ونيبيغ الطبيّة.

اقتطعت المقال من الصحيفة واحتفظت به لتبعثه إلى والدتها، في بغداد، عندما تهدأ العاصفة، أو لتقرأه عليها إذا كتب القدر لهما لقاء. لم يطلبوا منها عملًا في أُسبوعها الأخير بينهم، بل أقاموا لها حفلات وداع بسيطة ومؤثّرة تناسب دمعتها السهلة. أمسكت إحدى المريضات المسنّات بيدها وتفوّهت بعبارات غير مفهومة. امرأة مستديرة سمراء ذات كفّ خشنة مثل اسفنجة تلميع الأواني، بلغت الخامسة والأربعين ولم يودِ بها داء السكريّ، فاعتبرت سيدة مباركة بين الأهالي. وها هي تمسح على رأس هندة وتباركها وتنفخ في وجهها وتهدل بترنيمة كأنّها من أصوات الطبيعة، كأنّه ثغاء الفاختة على سطوح الديوانيّة في فجر صيفيّ.

جاء آخرون وقدّموا لها الهدايا التي طرّزتها نساؤهم بألوان برتقاليّة وبيضاء وبنفسجيّة. قالوا لها إنّهم درسوا طباعها واختاروا الألوان التي تنسجم و"فصيلة روحها".

تلك كانت معتقدات أصدقائها المرضى من سكان كندا الأصليين.

٣٨

ـ ألو ماما... أنا برّاق.

لماذا يعرّفها بنفسه في كلّ مكالمة؟ هل هناك أُمّ في الدنيا لا تعرف حسّ ولدها؟

يصلها صوته من البعيد فتلصق السماعة باذنها اليسرى الأقوى من اليمنى وترفع نبرتها لكي يسمعها. تتمنّى لو كان للهاتف ذراعان تسمحان بالاحتضان. تأتي جارتها أُم محمد راكضة من مطبخها، على صوت التلفون، والماء يقطر من كفّيها. تريد أن تشهد الدقائق السعيدة. ماذا قال؟ هل هو بخير؟ ومتى سيأتي؟

يقرصها قلبها لأنّها لا تريده أن يأتي. منذ أن حصل برّاق على عقد مع الأُمم المتّحدة، للعمل في دارفور. وورديّة مطمئنة عليه هناك أكثر من بقائه في بغداد. ذهب ليشارك في تعمير المدارس لكنّه لم يبق أكثر من ستّة أشهر. انتهى العقد وعاد إلى بغداد. يتجدد قلقها اليوميّ عليه. يخرج ليسأل عن الحاج عبدالحسين، المقاول الذي كان يعمل معه في السابق، ويعود ليقول إنّه مات بسكتة قلبيّة. كان الموت كثيرًا، بحيث لا يتوقّف المرء أمام الميتات العاديّة، ولا يجد الوقت الواجب للحزن.

لم يكن المقاول عبدالحسين شخصيّة عاديّة. رجل لا يعرف القراءة والكتابة، لكنّه يحفظ الأرقام على شريط القياس. يأتيه برّاق بالخرائط فيستدعي ولده ليقرأها له. يحفظ ما يسمع وتنطبع كافّة القياسات في عقله. يأتي إلى موقع العمل كلّ صباح ويتأخّر في المرور على المهندس في مكتبه ساعة العصر. يدعوه برّاق لزيارته وشرب الشاي عنده فيرد، دائمًا، بأنّه ذاهب لأداء واجب العزاء في فلان من الناس.

ـ كلّ يوم فاتحة يا حجّي؟

ـ الصلاة على الميتين واجب.

لم يكن قادرًا على قراءة اللافتات السود للتعرّف على أصحابها. يذهب في العصر إلى حسينيّات الزويّة وعبد الرسول علي والبوشجاع وسيّد إدريس ويدخل إلى مجلس العزاء. يقرأ الفاتحة ويمسح وجهه بيديه ويأخذ مكانه بين المعزّين.

ـ مَنْ المرحوم؟

يقولون له إنّه فلان الفلاني، فيحوقل ويضرب كفًّا بكفّ. دائمًا يعرف الميت، كائنًا من كان، مثلما يعرف ثلاثة أرباع سكان الكرّادة.

لم يكن الحاج عبد الحسين طائفيًا لكنّه لا ينكر انتماءه المذهبي. تأخذه العزّة ويتباهى به. يراقب النعرات التي بدأت تطفو على السطح ولا يملك إزاءها شيئًا. تكاد تجرفه في تيّارها فيحاول ألا ينساق وراء التعصّب. كان البناؤون العاملون معه من فقراء الجنوب ومن سكنة الضواحي الشعبيّة، باستثناء توما، المقاول الثانويّ الذي جاء به لتنفيذ أعمال التسطيح. يحاول توما أن يتقرّب من الحاج فيروي له حكايات تضرب على الوتر الطائفي. يتصوّر أنها تعزز من مكانته لديه.

يقول الحاج للمهندس برّاق:

ـ هل تصدّق أن المقاول توما ينذر النذور لمرقد الإمام علي في النجف؟

يضحك بزّاق ويجيب بأنّ العراقيين شعب واحد، والدليل أنّه هو نفسه قد سار في موكب عاشوراء عندما كان صغيرًا في الديوانيّة، وحمل سلسالًا أيضًا.

يهبّ المقاول واقفًا، ينادي العمال رافعًا يديه:

ـ مسيحيّ ويضرب زنجيل... اللّه أكبر.

مات الحاج عبد الحسين وانقطعت المقاولات. خلت طاولة بزّاق من الخرائط. أصبح العمل مع الحكومة الجديدة خطرًا، ومع الأجانب أكثر خطورة. عاد يبحث عن أيّ عقد في الخارج، حيثما كان، بدل البقاء من دون عمل، مع هاجس الخطف أو الموت على قارعة الطريق. ولم يكن يدرك أنّه يلعب، مع والدته، لعبة المطاردة المتعاكسة. لقد طار للعمل في صنعاء حين تهيّأت للهجرة إلى فرنسا. ولمّا وصلت هي إلى باريس، توقعت أن يحصل على إجازة ليزورها فيها. لكنّ السّفارة الفرنسيّة رفضت منحه التأشيرة. قرّرت أن تذهب لرؤيته في اليمن، لكنّه طار من هناك إلى هاييتي. فاز بتعاقد مع اليونيسيف، وذهب ليشارك في تعمير ما هدّمه الزلزال هناك.

قبل سفره، لم تكنورديّة تعرف أين تقع تلك البلاد. ثم طلبت من الراهبة التي تعلّمها اللغة أن تأتي لها بأطلس الخرائط. تجوب الصفحات الملوّنة وتسافر في البطاح وتتأمّل الصحارى والأدغال والمحيطات وتدقّق في أسماء الجزر النائية. صارت خبيرة في جغرافيا البحر الكاريبي وحفظت

الفارق في التوقيت بين جزيرة هاييتي وباريس، مثلما كانت قد حفظت توقيت تورنتو مكان إقامة هندة، وتوقيت دبي حيث حطّت ياسمين.

ساعة الحائط تشير الآن إلى الثامنة صباحًا.

إنّها العاشرة في دبي.

تعلمت ياسمين، منذ الصغر، أنّ الخُلق القويم يقضي بألّا يبصق المرء في الإناء الذي يأكل منه. تشعر بنفسها قزمة أمام أبراج دبي وتحاول توطين نفسها على تقبّل المدينة العموديّة. انبهرت بها منذ النظرة الأُولى وصارت تتعبها بعد النظرة الثالثة. إنّ تلك المباني اللّامعة المتراصّة تُشعرها بالدوخة، خصوصًا، حين يعكس الزجاج أشّعة الشمس فتتحوّل إلى "سولاريوم" يمتدّ على امتداد الطرقات العريضة السريعة.

تنزلق قدمها عن إسفلت الطريق وتغوص في الرمل. تتذكّر شوارع الديوانيّة المتربة وهي طفلة تتشبّث بيد غسّان وتتوسّل إليه أن يأخذها معه إلى السوق بالعربانة. يرفض الفلسطيني طلبها لكي يرفع من وتيرة توسّلاتها.

ـ الله يخليك... لخاطر أبو عمار.

كلمة السرّ التي تفكّ كلّ الأقفال في دماغه وتجعله يهبّ واقفًا يكاد يؤدّي التحيّة العسكريّة.

تعرف الطفلة أبو عمار من الصورة الملصقة بالصّمغ على

جدار غرفة غسّان. كان يقف في مواجهة الصورة ويرفع الأثقال. يتدرّب وينفخ عضلاته إستعدادًا للمعركة الكبرى. لكنّه ترك الحديد بعد أن سافر إلى لبنان وعاد حزينًا. إلتحق بمعسكر للفدائيين وكان متحمّسًا للعبور إلى فلسطين لكنهم استنزفوه في أعمال جانبيّة. يخدم الرفاق ويحضّر لهم الشاي والقهوة وهم يتجادلون في النظريّات السياسيّة وحروب الميليشيات. يعتبرونه جاهلًا بينما هم يستشهدون بأسماء مناضلين كولومبيين وفيتناميين لم يسمع بهم.

يأخذها غسّان معه إلى السوق بالعربانة، كما أرادت وتوسّلت، ويغني لها "طالع لك يا عدوّي طالع". تلتمع قطرات العرق على جبهته القاتمة ويدخل في حالة من الأنخطاف وكأنّه وصل أسوار القدس. كان الدخول إلى غرفة الخادم ممنوعًا على ياسمين. لهذا كانت تكتفي بالوقوف قرب الباب واختلاس النظر إليه وهو يكوي قميصه ويصفّر أو يغنّي. وقد رأته، ذات يوم، يعدّ رزمة من الدنانير الكثيرة ثم يلفّها بكيس النايلون ويدسّها تحت القاعدة الخشبيّة للمبرّدة، في السطح. نزلت الأدراج على عجل وهي تلهث لكي تذيع السرّ على أهل البيت.

ـ أعرف وين يضمّ غسّان فلوسه.

لا تعرف أين يضع أهل دبي مكيّفات الهواء. إنّها مخفيّة في مكان ما من المباني الفاخرة التأثيث والمبرّدة مركزيًّا. تمضي وقتها في الفرجة على الأسواق وكأنّها تتابع فيلمًا إعلانيًّا. كلّ

ما في رؤوس الشّركات العالميّة من مبتكرات تجده هنا يدعوها إليه ويغريها بامتلاكه. إشتريني إشتريني إشتريني. خذيني ولن تندمي. تمدّ يدها إلى الثياب المعلّقة والمناشف والشراشف والبراويز والفناجين والمعلّبات المرصوصة على أرفف الجمعيّة التعاونيّة وتأخذ ما تحتاج إليه وما لا تحتاج. وحين تثقل أكياس المشتريات يديها تشعر وكأنّها صارت جديرة بهذا المكان. إنّ دبي ترحّب بها.

لما جاءها النصيب، لم تكن متحمّسة لزوج لا تعرف عنه الكثير. إنّ القصّة لا تشبه حكايات مسلسلات الغرام التي هبطت عليهم، منذ أن سقط النظام ودخلت عليهم الصحون اللاقطة. يشترون المولّدات لكي لا تنقطع عنهم الفضائيّات. أيّ معجزة هذه التي تجعلها تتابع المسلسل ذاته الذي تراه هندة في تورنتو؟ أمّا حين يتصل بهم برّاق من هاييتي فإنّها لا تتجرأ وتسأله عن المسلسل وتفترض أنّ الزّلزال قد أطاح بكلّ الصحون اللّاقطة من فوق السطوح.

٣٩

كانت شقتنا تتألّف من صالة وحجرتين ومطبخ فأضاف إليها اسكندر مقبرة افتراضيّة.

مدخل مفروش ببساط ملّون من شغل السماوة وجدران كانت بيضاء قبل أن تتلوّن بدخان السكائر وأنفاس الضيوف

وتنهّداتي. أُحبّ هذا التلوث اللّوني الماثل للعين وأعتبره من علامات الحياة. تصلح الحيطان الناصعة لحمّامات السوق ومطاعم الكباب. هذا مكان للعيش والمبيت والحب وليس مسلخًا. إنّه مكاني الذي فيه شيئ منّي، منّا، ومن أصدقائنا الذين صار بعضهم، تحت سطوة الغربة، بمثابة الأهل والعشيرة. تجمعنا موائد الكلام حتى نضيق ببعضنا ونتعارك ونتنافر ويزعل من يزعل ثم يعود، بعد يومين، وكأنّ شيئًا لم يكن. تمسك السياسة بتلابيبنا ونتعلّق بأذيالها كما لو أنّ لحديثها متعة الشعر. كأنّها نشيد إنشاد العصر. منتهى بلاغتنا وروح خطابنا. نتجادل ونتشبّث بالآراء ونفلسف الأوضاع ونوزّع شهادات الوطنيّة والخيانة ونتّفق ثم نختلف ثم نتعب ويصيبنا اليأس. اتفقنا عليه، اليأس، كهدف لنا طالما أنّ لا أمل يأتي من تلك البلاد. لا إشارة. لا بارقة. ولا حامض حلو. صار الوطن، لكثرة ما لكناه، علكة ماء ممطوطة نخجل أن نتفّها من أفواهنا.

يدخل علينا اسكندر ويتوجّه إلى النافذة ليفتحها.

ـ راح تموتون كلّكم من الجكاير والدخان.

ـ راح نموت كلنا وتدفننا عندك على الشاشة. بعد أكو محل؟

تمدّدت شاشته واتّسعت وصارت مأوًى مثاليًّا للمخاوف العابرة، مرقدًا موقّتًا لموت متعدّد الوجهات. يكفي أن يلمس اسكندر مفاتيح الحروف فيتحوّل الحاسوب الصغير إلى بوصلة

تدلّ على موقع موتانا الأعزّاء الموزّعين هناك ثم الملمومين هنا. وكلما جاء ساكن جديد يحمل هيكله العظميّ على كتفيه ويتسربل بأساه، هبّ أقاربه وأحبابه الموتى من قبورهم والتفوا حوله يرقصون ويهزجون:

ـ هلا بيك هلا وبجيتّك هلا...

تسرع الحوريّات الإلكترونيّات إليه ويغسلن عظامه بنقيع الزعفران ويسترن هزاله بسعف النخيل. إنّه آتٍ إلى لمّة أهله وأحبّته ومرحّب به بينهم. وسيكون للأحياء منهم حقّ بثّ الموسيقى والأُغنيات التي يحب واختيار أنواع الأزهار المشتولة حول الضريح. ينام الوافد الجديد من كولون بجوار زوجته التي جيء بعظامها من عينكاوة، ويدخل أبناؤهما الموزّعون ما بين أربيل وأُوكلاند وجرمانا على موقع المقبرة، متى شاؤوا وحيثما كانوا. يقرؤون الصلاة على روحيهما.

أنقر على الموقع الإلكتروني ويخيّل لي أنّني أرى صور الأطفال الذين أودى بهم سوء التغذية والمياه الملوّثة وبقايا الأسلحة المشعّة. نقرة على لوحة المفاتيح وينطرحون، جميعًا، على صدور أُمّهاتهم اللواتي قتلن بتفجير انتحاريّ في حي الدورة، أو في مجزرة الفلّوجة، أو غرقًا تحت جسر الأئمّة، أو في كنيسة سيدة النجاة. تجمع الشاشة النجيع وترتّق الأشلاء. أنقر أكثر فيطلع الآباء الذين خُطفوا ولم يُعثر لهم على أثر، أو الذين دُفنوا بهويّات مجهولة، أو الذين ذُبحوا وقطّعت رؤوسهم

في الفرز الطائفي... يظهرون ويفرد كلّ منهم ساعديه ليحتضن زوجته وطفله.

ألتفتّ إلى اسكندر وأنا ملتاعة مما أرى، تضطرب انفعالاتي ويشطح بي خيالي إلى قصائد لم أكتبها ولا أجرؤ على تدوينها. أيّ كلمات أضع على هذه الشواهد البيض الرخاميّة البريئة التي لم تلوّثها الدّماء والفواجع؟ إن الشقّ كبير وإبرتنا صغيرة، ولن تكون هذه المقبرة الافتراضيّة سوى وهم جديد نضيفه لكل تلك المواقع التي يهرع إليها العراقيون لتشييد بلد على الإنترنت. يستيقظون، في صباحات المنافي، ويهرعون إلى الشاشة قبل وضع قواري الشاي على النار. يطالعون الأخبار ويخزّنون المقالات والقصائد والأغاني والصور القديمة والمواقف التي تعكس شرفًا بائدًا وشهامة ضاع زمنها. يقرؤون البريد المحمّل بالذخيرة العاطفية ويعيدون توجيه الشّحنة إلى عناوين الأصدقاء والمعارف. مئات العناوين في كلّ رسالة. شعب من النشطاء الإلكترونيين المذهلين في المثابرة، يرون وطنًا يتسرّب من جلده فيمسكون به ويحبسونه على الشّاشات. أصابع أخطبوطيّة لا تكلّ من النقر والإرسال. تفرك لوحة المفاتيح فيخرج العراق ماردًا جبّارًا من فانوس ألف ليلة وليلة. يحضر الشبّان الحاسرون ذوو التسريحات الشبابيّة، يسبقهم آباؤهم الأفنديّة من مرتدي السدارة، وتأتي النّساء المحجّبات والسافرات ولابسات العباءة، ويطلع على الشّاشة المعمّمون والرهبان والصوفيّون وضاربو الدرباشة وباعة الشلغم

والسميط وشربت الرمّان والضبّاط المتقاعدون، حملة نياشين الحروب، ونافضو السجّاد الجبليّون الأشدّاء والحفافات خفيفات الأنامل والعدّادات، مذوبات القلوب، والطلائع ببزّاتهم الزرقاء المموّهة والصاغة الصابئة والوايرمانيّة الأرمن وراهبات نجمة الصبح والسمّاكون الذين لوّحتهم نيران المسكوف وسكّيرو حانات أبي نواس المطرودون من الجنّة والسارحون السعداء في البلم العشّاري.

تتحرّك فأرة الحاسوب، فيتدافع الأوادم وأبناء الحمولة، مع الهتليّة واللوتيّة والقشامر. تتواتر صور الملويّة والزقورة وقصر الأُخيضر والثيران المجنّحة وملكات الحضر وتاج شبعاد وقباب المساجد وكنائس النجف وطاق كسرى ومراقد الأئمة وقبر حزقيال وجنازة المس بيل. تنطلق عربات الربل والكاري وقطار الدرجة الثانية وباص ليلاند الأحمر ذي الطابقين ويرتفع الجسر المرتجل فوق الطوّافات. عرب وإنكليز وهنود وسيخ وحاخامات ورهبان وبلوش وشبك وحجّاج إيرانيون. تأتي صور الفيصلين وغازي وعبدالإله والملكة عالية ونوري السعيد ويندب الأقدمون سلالة مغمّسة بالدم. يقوم الرّصافيّ من قبره والملّا عبود الكرخيّ والجواهريّ ونازك وتبقى ذراع السيّاب ممدودة عند شطّ العرب. أصوات محفورة في صدر اليوتيوب. فلفل كرجي وحسين نعمة ووحيدة خليل وحضيري ويوسف عمر وسليمة باشا وسيتا هاغوبيان. تنام عفيفة اسكندر وهي تتمتم: حرّكت الروح لمن فارقتهم. يقرأ القبانجي محمّد

مقامه على القبانجي أحمد. أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا. الهجر
مو عادة غريبة. تختلط لقطات أرشاك والمصور الأهلي
مع أرشيف الخارجيّة البريطانيّة ووثائق المبشّرين اليسوعيين
وأعداد جريدة الزوراء. تنفض أغاتا كريستي التراب
عن تمثال سومري في عكركوف وتشرب الشاي مع جبرا
وديفيد جونسون ديفيز في شرفة على دجلة. تتوارى
مكسّرات سعد الحلي وتزدهر نكات جديدة عن الدليمية
والناصرية والمواصلة والأكراد. يتبادل الإنترنتّيون آلاف
الصفحات عن المناطق والعشائر واللهجات والمذاهب وأُصول
العبادات والفتاوى. تبتسم رينيه دنكور ملكة جمال بغداد
لعام سبعة وأربعين وينام عبدالكريم قاسم على أرضيّة مكتبه
في وزارة الدفاع. يطلق عديّ نار رشاشته في فضاء
المحتفلين بعيد ميلاد و يبتهج كنعان مكيّة بالقنابل الأميركيّة
النازلة على وطنه ألعابًا نارية. يرتقي جواد سليم سقّالة نصب
الحرية ويصاب بسكتة قلبية ويموت فائق حسن في فرنسا
ويُحرق ويتحوّل هباءً منثورًا على دجلة. تنجو نزيهة الدليمي
من وحشة القبر الألمانيّ لتغفوَ في تراب بغداد وتدفن
بياتريس أوهانسيان غريبة في هاليفاكس بعد أن تنقر على
البيانو نغمتها الأخيرة.

بلاد طويلة عريضة بكل حضاراتها الفخمة وحاضرها البائس
تتمدّد على الشّاشات. يغيب العقل وتحضر اللّطميّات. وها
هو إبني يلتحق، من دون أن يدري، بجوقة البكّائين على

وطن تشوّه بماء النار وفقد ملامحه. وبدل أن أردعه أفرح به وأغطس في نهر الحنين الذي سيغرقنا ونحن أحياء. أسبح مع تيّاره وأتعجّب كيف نجت عمّتي منه. لقد عاشت في العراق سنوات تكفيها ذُخرًا لما بقي من العمر. أمّا أنا فإنّ الشوق إلى بغداد يجلدني كلّ يوم وينفّذ فيّ حدّ الهجر والنكران. فارقتها ولم أشبع منها، أحلى البلاد وموطن الحبّ الأوّل. عشت الحرب بالمراسلة، ودخان القصف وضيق ذات اليد ولوعات الفقد ولافتات العزاء السود. سمعت الحشرجات في الهاتف.

وحده الخوف لازمني كما لازمهم رغم أنف المسافات. خوف أوحد موحّد لا يعرفه أهل هذه البلاد المترفة. تقول رأيك فيها فلا تتلقّى صفعةً ولا تؤخذ إلى الأقبية. خفت على أهلي وعلى نفسي لأنّ كفّ البطش طويلة يمكن أن تمتدّ فوق الحدود. تمحوك أو تأتي بك من أقاصي الأرض. أنا الحرّة وأهلي الرهائن التي تغلّ يديّ. ارتديت، مثلهم، الخوف جلدًا ثانيًا لي، يكبر معي ونصبح قرينين متآخيين. لن نموت من السّكر والتدخين، بل من داء الحنين، ومن تلك الحياة الإفتراضيّة الموازية، التي لم نعرف كيف نعيشها كما يجب. فهل ستقوى يداك يا ولدي على أن تهيّئ لي مرقدًا بجوار شقيقي اسكندر، سميّك الذي خطفته الحمى وهو في المهد؟ حين حملت بي أُمي، تمنّت القريبات أن يكون ولدًا لكي يحمل اسم الطفل السابق الذي مات وخلّف حسرات

في القلوب. لكنني خيّبت الآمال وجئت أنثى وضاع مني الاسم.

احتفظت به لك يا اسكندر، ولدي البكر الذي لم أُرزق سواه.

٤٠

مثل شقائق النعمان، يذبل الحلم الجميل حالما تمتدّ إليه أنامل قاطفة.

إنّها أنامل كلثوم، هذه المرّة. فتحتُ لها الباب، ذات مساء بارد، ورأيت البنت بيضاء مثل ورقة دفتر لم يمرّ عليها قلم، تسير على عكّاز وتتوجّه إلى غرفة اسكندر مباشرة. كان المرض قد تمكّن منها والنوبة شديدة هذه المرّة. لم يعد العلاج الكيمياوي ينفع.

أقف في باب الغرفة وابني في مكانه المعتاد، أمام الشّاشة، يقوم ويتطلع بهلع إلى كلثوم وهي ترفع عن رأسها طاقيّة الصوف. إختفت الخُصلات الجعداء التي كانت تتوّج جمالها. يتلعثم الولد ويحاول التخفيف عنها. يتبادلان بضع عبارات بالفرنسيّة فلا تغيّر اللغة الأنيقة من ثقل الدقائق. كانت الحبيبة الصغيرة قوية، رغم الوهن، وقد جاءت في مهمّة محدّدة.

ـ أُريد، إذا متّ، أن أنام في قبر حقيقي.

"أون فري تومب"، قالتها ورجته أن يلغي قبرها الافتراضي. ترنو إليه تواسيه بنظراتها التي ازدادت بريقًا. إمّحى الحاجبان واشتدّ بروز العينين السوداوين. يتحوّل وجه ابني إلى القرمزيّ ويحضنها دون أن يشدّها إليه. يخاف أن ينكسر الخزف الرقيق. يرجوها أن تنسى القبور، ألا تتحدّث عن الموت. يمسح على رأسها الذي بدا صغيرًا وقاحلًا ويقبّل مواضع الشعر الغائب. وأنا لا زلت واقفةً في الباب. أحبس نَفَسي ولا أقدر على الانصراف. أستمع إلى كلام يليق بالمجرّبين وأبناء الفواجع لا بمراهقين في طور الورد. يقبّل اسكندر صديقته دون مراعاة لوجودي. وأسمع البنت تكرر رجاءها بأن يحذف قبرها من مشروعه.

ـ أحبّ تربة جندوبة، لصق أبي.

لم تمت كلثوم بيننا. أخذتها أُمها إلى تونس على أمل أن ترتّب الشمس فوضى كريّات الدم وترمّم عظامها. وظلّ اسكندر يتحادث معها عبر الشاشة ويقوّي معنويّاتها. ترتدي له السفساري وتخفي وجهها وراء لثام أبيض تاركة عينيها تتلاعبان. تكشف اللّثام وتشكّ إضمامات الياسمين وراء أذنها. تسأله عن أُمور دراسته ومقبرته والزبائن الجدد. لقد نفّذ ما وعدها به. مسح مرقدها وارتاح لأنّها ارتاحت. لكنّه لم يتوقع انسحاب زبونة ثانية. عمّتي.

ـ خيانة... والله خيانة.

كعادته، يكرّرها بالفرنسيّة: ترايزيون. لم يصدّق إبني أننا

شعب انقلابات وخيانات حتى رأى نزلاء مقبرته ينتفضون عليه. يقومون، الواحد بعد الآخر وهم يفركون أعينهم. يحجبونها بأيديهم من شدّة النور. يخفّف من وهج الشاشة حتى يتعوّدوا على الضوء. ينضّون عن أجسادهم الهلاميّة تويجات الورد والفراشات المحنّطة، يزيحون السعفات ويعاودون التّسربل بالأكفان. يحملون كاسيتات أغانيهم المفضّلة والوسائد المحشوّة بريش الأوز ويذهبون من حيث جاؤوا. لا يقطعون المسافات إلى مقابر الغرباء في القارّات كلّها بل يتوجه كلّ منهم إلى مسقط رأسه. "يلماشية بليل هلج حوّلي عدنا الليلة". وحتى أولئك الذين ما زالت قبورهم جاهزة ولم تُسكن، جاؤوا وسحبوا العربون الرمزي وأخذوا الصور والموسيقى واعتذروا عن الرقاد.

لم يصبر إسكندر حتّى أذهب وآتي بعمّتي، كالعادة. يريدها فورًا لكي يفهم سبب الانقلاب. ليس انقلابًا بل ثورة. ريفولوسيون. مِعول يهدم خياله وجهوده وساعات سهره. لن يثق بنا بعد اليوم. كم كان أبوه حكيمًا حين سخر من هذه اللعبة وطلب إليه الاهتمام بدراسته. هؤلاء قوم لا يستحقّون المساعدة. ناكرو جميل. خدعوه بسحناتهم الحزينة وأوقعوا به واستغلّوه. تسلّوا بموهبته ثم أصابهم الضجر وانسحبوا من اللعبة. مثل مقامر غير شريف، يجمع ما كسب ويقوم مبكرًا عن الطاولة. يقطع على الخاسرين الأمل بالتعويض.

ـ الدنيا كلّها لعبة.

تمسك عمّتي بيد اسكندر وهما يجلسان على سريره والشّاشة مُطفأة. تتلقّى ثورته وتؤكد له أنّ أحلى ما في الحياة أنها لعبة. نعيش ونموت ونفرح ونحزن ونبني ونهدم ونرتاح ونجري ونواصل السير حتى انقطاع النفس. هي، مثلًا، أقامت بيتين وعيادتين ثم تركتهما. عبرت الثمانين وما زالت تتنقّل بين غرينيي وكريتاي وتتعلّم لغةً جديدةً. هكذا هي الدنيا. صداقات وخيانات ومفاجآت لا تنتهي. لا شيئ يستحقّ الزعل ولا الدموع.

ـ أنتِ بالذات تبكين كثيرًا.

ـ تمويه. حساسيّة ربيعيّة مزمنة. ألا تثق بتشخيصي؟

هربتْ عمّتي من الشاشة لأنها صلبة وباردة. تتوقّف إذا غابت عنها الكهرباء والبطاريّة وتترك ساكنيها للمجهول. تتسلّل إليها الفايروسات وتهدّد محفوظاتها بالزوال. الجسد زائل لكنّ العظام باقية. وعظامها لن تطقطق تحت طبقات الإلكترون. كانت الفكرة مثيرة ومحرّكة للخيال. تداوي أشواقها لأمواتها الأعزاء وتستحضرهم تحت بصرها. وهم جميل في زمن قاحل. وهي قد رأت ما يكفي لتمزيق غلالات الأوهام. ماتت الدهشة وكتبت لها شهادة الوفاة. ليس هناك ما يوجعها سوى أنّها جرحت براءة هذا الولد.

ـ تعال نجرّب فكرة جديدة.

٤١

ـ هنا كانت عيادة الدكتورة ورديّة اسكندر.

تشير النساء إلى ذلك المبنى المتهالك وهنّ يعبرن، أمامه، في طريقهن إلى بيوتهن في الغدير وتل محمد وكمب سارة وزيّونة، وبغداد الجديدة. بغداد الجديدة التي كانت من أبهى أحياء العاصمة فيما مضى، قبل أن تتحوّل أسواقها إلى مزابل ومياه آسنة. تربط النساء أقدامهنّ بأكياس النايلون ويخضن في طين النزيزة وهنّ يرفعن صغارهنّ على أكتافهنّ. عبرت الشط على مودك وخليتك...

تخلّت وردية عن عيادتها حين لم تعد تأمن على روحها هناك. دخل الأميركان وملأت أرتالهم الشوارع فسادت الفوضى، بدل النظام، واشتدّت الريح الصفراء. قُلْ لي ما هو مذهبك أقلْ لك من أنت. تجري الأيّام وتبدأ الاغتيالات في العيادات وأمام البيوت. يفرّ الأطباء من البلد ليعملوا في الأُردن وليبيا والخليج وكندا وبريطانيا. تركت بنات شقيقها سُليمان بغداد، واحدة تلو الأخرى، وتفرّقن في البلاد. كذلك ابنتا يونسٍ. وهاجر ابن كمالة الكبير مع زوجته وابنته ليعمل طبيبًا في أوكلاند. وبعد سنوات لحق به أخوه. لا أحد يودّع أحدًا أو يهيئ حقيبة أمام الجيران. يستعين المهاجرون على قضاء حاجتهم بالكتمان. تنزل النساء إلى سوق الذهب ويتركن حليّهنّ في الميزان ويقبضن الدولارات. يبيع الطبيب

وأُستاذ الجامعة سيّارته وأثاث بيته، سرًا، ويواصل الدوام في عمله كالمعتاد، حتى اليوم الأخير.

ـ نشوفكم باجر.

يسلّم على الزملاء ويترك مبلغًا لفرّاش العيادة أو الكليّة ويذهب ولا يعود "باجر". ثم يسمعون أنّه صار في الأُردن وهجر بلاد ألف ويلة وويلة. فتح العراقيّون عشرات العيادات هناك. شيّدوا مستشفيات كاملةً في كلّ التخصّصات، وملأوا الجامعات. ماهرون ومتكبّرون، تجمعهم لهجة واحدة وحسرة مشتركة. العراقي الجيّد هو المهاجر الجيد.

علّقتْ ورديّة على جدار مطبخها ورقة تسجّل عليها أسماء القتلى من زميلاتها وزملائها، من تعرفه ومن لا تعرفه. توقد شمعةً كلّ صباح للصلاة والترحّم عليهم. وكلما بلغ العدد خمسة شطبت بخط مائل عليهم، مثل إحصاء النقاط في المباريات الرياضيّة. خمسة زائد خمسة حتى ضاع الحساب. لا شيئ يجري، في ذلك البلد، بالمفرد إلّا الولادة. يولد العراقيون فرادى ويموتون جماعات. حتّى الزعيم الأوحد وجد من يخلفه ويتناسل مع أُسطورته فظهر زعماء متعدّدون وأوحدون كثرة.

رأت، على الشاشة، موتى في مقابر جماعية. شاهدت شبابًا يهجّون بالآلاف. بلغتْها روائح الجثث المتراكمة في الشوارع. طيّارون وصحافيّون وأساتذة جامعات يقتلون، أيضًا، بالجملة. إنها أرخص من المفرد، أكثر توفيرًا في بلد يشتري أهله

الدجاج بالجملة، وكرتونات البيض، وأفخاذ الغنم النيوزيلندي، وعبوات صبغ الشعر، وعلب العقاقير المهدّئة. يعلّقون على البزّات الخاكيّة أنواط الشجاعة بالجملة. يدخل الشاربون إلى الحانات ويطلبون قناني البيرة بالجملة ليطمئنوا عليها تحت الطاولة. يضمنون سكرة لا يفسدها الشحّ.

كلّ شيئ بالجملة. الأحزاب والطوائف والتفخيخات وأفراد حراسة المسؤولين. سرقات بالمليارات لا بالملايين. وحتّى الدكتاتور صار دكاترة بالجملة. وهي لا تعرف أيّ ملّة تتبع ومن هو دكتاتور طائفتها. من يحميها ومن ينهبها. من يغضّ بصره أمامها ويحترم شيباتها ومن ينظر إليها بعين صلفة ويطالبها بأن تغطّي شعرها. تتمنّى لو تصفع الجهلة والقساة وقليلي الأدب وتعيد تربيتهم. تحشرهم في فروج أُمّهاتهم وتأتي بهم إلى الدنيا من جديد، مواليد كالماء المقطّر، يكبرون في القنينة ولا يتلوّثون. تتطلّع إلى الروزنامة في المطبخ وتهمّ بأن تشطب منها خمسين سنة. تحدّثها نفسها بأن تنزل إلى الشوارع وتمزّق الثياب التنكّريّة والأقنعة التي يرتديها الهمج لكي يعودوا إلى وجوههم الأصيلة. ما هكذا نزلوا من الأرحام... ما هكذا.

تتعب من آهات التمنّي ويتراخى عنادها. تذعن لنداء أولادها وتقرّ بأن لا شيئ بات يغريها بمواصلة العيش في مكان لم يعد منها ولم تعد منه. سافرت وأخذت معها الرسائل والصور وأرقام الهواتف وحجّة البيت وشهادة وفاة

جرجس. وصلت إلى باريس وقرّرت أن تصدّق، مع من جاء معها من المسيحيين، أنّها ضيفة الرئيس. تكره صفة لاجئة وترفض أن يعتبروها مضطَهدة أو منفيّة.

ذهب ساركوزي وجاء غيره. مثلما ذهب البابا وجاء غيره. لم تتبدّل شروط الضيافة المتّبعة مع كل اللاجئين. سكن رخيص وتأمين صحيّ ومنحة تغطي معيشة متقشّفة. أعطنا خبزنا كفاف يومنا. تتفرّج على التلفزيون في شقّتها وتتابع المسلسلات التركيّة. تغيّر القناة وترى الفيلم المستمرّ هناك. موت يرقص فوق عشب الحدائق ويمتصّ عسل التمر ويسكر في حانات أبي نواس. ترى في النشرات رعبًا يوميًا صار معتادًا، أعطنا دمنا كفاف يومنا.

بلدٌ فذٌّ ضربته لعنة الفرقة فمسخته وحشًا. تصلّي له فلا تستجيب السماء. سماؤها الطيّبة الحنون التي لم تردّ لها يومًا طلبًا.

أمَ يشبعون من الدم؟

باريس، ربيع ٢٠١٣